مُقَدِّمَاتُ

الشَّيْخ عَلِيّ الطَّنْطَاوِيّ

جمعها ورتّبها وقدّم لها

مُجَاهِد مَأْمُون دِيرَانِيَّة

دار المنارة

للنشر والتوزيع

الطَبعَة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م



هاتف: ٦٦٠٣٦٥٢ - فاكس: ٦٦٠٣٢٣٨ - المستودع: ٦٦٧٥٨٦٤
جدة ٢١٤٣١ - ص.ب: ١٢٥٠ - المملكة العربية السعودية

مُقَدِّمَاتُ

الشَّيخ عليّ الطَّنْطَاوِيّ

رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي المقدمات

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، ورضي الله عن أصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان من العلماء العاملين والدعاة الصادقين إلى يوم الدين، وبعد:

فمن أوائل الكتب التي طالعتها، وتركت أثراً في حياتي، وجعلتني محباً للمطالعة مكثراً من القراءة.. كتب الأستاذ الطنطاوي. وفي مقدمتها: «صور وخواطر»، و«مقالات في كلمات»، و«هتاف المجد»، و«قصص من التاريخ»، و..

فقد طالعت هذه الكتب في بواكير شبابي، فوجدتها سهلة ممتنعة، يعيش القارىء فيها مع المؤلف دون أن يشعر بحاجز يحول بينها وبينه، فيها العلم والأدب والعظة والمتعة.

و(الطنطاوي) الكاتب الموهوب الذي لا يُجَارىٰ، وكل ما يقوله هو السهل الممتنع، تنظر إليه فتراه بين يديك لا يتعاصى شيء منه عليك، فهو في معانيه أقرب إليك من شعاع الشمس، فإذا ما حاولتَ أن تحاكيَ أسلوبه وتنسج مثل ما نسج، كنت كمن يريد أن يمسك شعاع الشمس، فما أبعده وما أقربه، وهذا هو السهل الممتنع.

بقي اسم (الطنطاوي) من الأسماء المحبوبة لدي، والشخصيات الأثيرة عندي، فكنت أقرأ له جميع ما تصل إليه يدي وما تقع عليه عيني من مؤلفاته الممتعة، واشتريت أكثر كتبه بإمكانياتي المتواضعة، وجعلتها في أعزِّ ركن من مكتبتي الصغيرة آنذاك.

وبعد هجرتي من موطني (حلب) وإقامتي بمكة المكرمة في رمضان من سنة ١٤٠١ ودراستي بجامعة أم القرىٰ، منذ ذلك الوقت وأنا أتمنى أن ألتقيَ بالأستاذ الطنطاوي.. والأستاذ آنذاك في أوج عطائه وزحمة أعماله، لا يجد متّسعاً من الوقت للقاء أمثالي. والشيخ من طبعه العزلة والبعد عن لقاء الناس، كما يقول في «مقدماته»[1]: «لأنني معتزل، بعيدٌ عن مجامع الناس، أمضيتُ شبابي في ذلك، وامتد معي إلى شيخوختي، فأنا لا أكاد أخرج من داري، ولا ألقى إلا نفراً من إخواني ومن أصحابي».

ثم تحققت الأمنية فزرته ببيته بـ(أجياد) بمكة المكرمة بصحبة أستاذنا الشيخ عبد الله علوان رحمه الله تعالى، ثم تكررت الزيارات، فزرتُه في بيته بـ(العزيزية) بصحبة الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا، والأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة[2].. ثم بصحبة الداعية الأستاذ أبي الحسن الندوي.. حفظهم الله وأمتع المسلمين بحياتهم.

ثم أصبحت من ملازميه في مجالسه، وخواصِّ أبنائه الذين يؤثرهم برعايته ويهبهم وقته، ويوليهم اهتمامه، وتتالت السنوات وأنا لا أنقطع عن مجلسه الأسبوعي يوم الأربعاء ليلة الخميس. وسمعت منه في مجالسه، وشُغفت بمسامرته، ومناقلة الحديث معه في شتى الموضوعات التي تجمع بين الفائدة واللذة الفكرية، وقد دوَّنت كثيراً من الفرائد والفوائد خلال هذه اللقاءات المتكررة، لعل الله سبحانه ييسر لي تنسيقها وإخراجها في كتاب حافل باسم: (مجالس الطنطاوي).

والأستاذ الطنطاوي من حماة الإسلام في هذا العصر، وكبار دعاته، آتاه الله المواهب الجزيلة، والعلوم الجليلة، ورزقه الله القبول والمحبة في قلوب عباده الصالحين.

---

(١) ص١٠٧.

(٢) توفي أستاذنا العلامة المحدث المحقق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة عند تصحيحي لهذه المقدمة، يوم الأحد التاسع من شوال سنة ١٤١٧ رحمه الله تعالى.

ترادفت في الشيخ عوامل النبوغ مبكرة: من بيئة علمية صالحة نشأ فيها، إلى صحبة علماء كبار اشتهروا بالصلاح والعلم، إلى رحلات علمية، أَثْرَتْ علومَه وأظهرت فضله ونجابته.. وعوامل أخرى كثيرة.

ولست أحاول في هذه الكلمات أن أتكلم عن الشيخ وأثني عليه، فذلك ما لا تتسع له هذه الصفحات.

وقد أثنى عليه شيوخه وأصدقاؤه بما منحه الله تعالى من المواهب والمزايا، فوصفه أستاذه الشيخ محمد بهجة البيطار في مجلة «الرسالة» بأنه (نابغة الشام) وهو دون الثلاثين من عمره.

وقال عنه أستاذه الشيخ محمود ياسين: «الأديب الغني عن الوصف، والكاتب العبقري الفذ. نال الشهادات العالية، وألف كتباً خالدة، ومقالات رائدة.. له في كل مجلة كبرى مقال ممتع يدلُّ على نبوغه ويشعر بتفوقه، هذا إلى ذكاء حاد، وجرأة نادرة، واطلاع واسع، وغيرة على الأمة. وهو فوق ذلك خطيب ومحاضر وناقد بارع»[١].

وأثنى عليه صديقه العلامة المؤرخ الفقيه محمد العربي العزُّوزي الإدريسي فقال: «ومنهم زميلي في التعليم في كلية فاروق الشرعية في مدينة بيروت، الأديب الماهر، والكاتب العظيم، ذو القلم السيّال، والعلم الغزير، والذكاء المفرط واللسان اللسن الأستاذ الشيخ علي الطنطاوي. فهو كما قال القائل:

وإنّ لساني شهدة يُشْتَفىٰ بها   وهو على من صبَّهُ الله علقم

عاشرته ما يقرب من السنتين، فحمدت عشرته، وذاكرته فوجدته منهلاً عذباً لوارده، ما فاوضته في علم إلا وجدته ذا اطلاع واسع. ولقد كان يزورني في بيتي ويسمر معي ويتحفني بطرفه وأدبه وغرائب نوادره، له مؤلفات عظيمة سارت بها الركبان، وتلقاه بالقبول فطاحلة

(١) رحلة الحج والعمرة ص٣٦.

الرجال. وما رأيت من جمع بين الأدب والشريعة مثله.

وكأن لسان حاله ينشد متمثلاً بقول المتنبي:

فدغ عنك تشبيهي بما وكأنه   فما أحدٌ فوقي وما أحد مثلي

كيف لا والدرُّ من معدنه، فهو ابن أولئك العلماء العظام الذين تفتخر بهم دمشق الشام على سائر البلدان، وهو الآن قاضي العاصمة أدامه الله وسدده»[1].

وقد سمعتُ من الأستاذ الفقيه الشيخ مصطفى الزرقا ـ صديق شيخنا الأثير ـ يقول أكثر من مرة: من منن الله على المسلمين في هذا العصر وجود أعلام كبار، يذكر منهم الأستاذ الطنطاوي. حفظهما الله وأمتع بهما.

ووصفه الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي بأنه: «فقيه الأدباء وأديب الفقهاء».

ولست الآن بصدد الحديث عن الشيخ ومكانته وأثره، وإنما هي كلمات جرى بها القلم، بين يدي هذه المقدمات.

* * *

هذه المقدّمات التي أكتب بين يديها هذه الكلمات كان جمعها ونشرها من أمنيات الشيخ، ولطالما سمعت ذلك منه، فقمت بجمع ما استطعت معرفته والوصول إليه، وقدمتها للشيخ مجموعة مرتبة.

وبلغ مجموع المقدمات ستاً وعشرين مقدمة[2]، كتبها الشيخ

---

(١) إتحاف ذوي العناية للعلامة محمد العربي العزوزي الإدريسي أمين فتوى بيروت المتوفى سنة ١٣٨٢ ص٥١ طبع عام ١٣٧٠.

(٢) حذف فضيلة الشيخ منها ثلاث مقدمات، لأنها لم تعجبه ولم يرض عن أسلوبه فيها، وهي مقدمة «المطالع النصرية» للسان الدين ابن الخطيب المطبوعة بالقاهرة سنة ١٣٤٧، ومقدمة كتاب «الظِرَاف والمتماجنين» لابن الجوزي، وكتاب «الباكورة» للأستاذ عباس الحامض المطبوع بدمشق سنة ١٣٥١ ـ ١٩٣٢.

حفظه الله لعدد من المؤلفين في أزمنة مختلفة، وهذا العدد يمثل نصف المقدِّمات التي كتبها شيخنا، ولم أستطع معرفة المقدمات الأخرى، لأن الشيخ نسيها، ولا يمكن الاهتداء إليها عن طريق الفهارس، ولكنني أخذت بالحكمة القائلة: «ما لا يدرك كلُّه لا يترك قلُّه»[1].

ولعل الأيام القادمة تطلعني على ما فات مني، وشكر الله لمن أرشدني إلى ما غاب عني.

فمقدمات الشيخ كثيرة تزيد على الأربعين، بل وتزيد على الخمسين أيضاً. فهو يقول في مقدمته لكتابه «أبي بكر الصديق» ص٢٤٠: «لقد كتبت مقدمات لأكثر من أربعين كتاباً مِنْ مؤلِّفيها من هو مبتدىء يعتمد على مقدمتي فيرى الناس كتابه، ومنهم من هو مثلي لا يحتاج إليّ، ولكن ينوِّع مائدته، حين يضع مقدمتي مع كتابه، ومنهم من هو أفضل مني ولكنه كرّمني حين جعلني أقدِّم كتابه للناس».

ويقول في مقدمته لكتاب شقيقه الأستاذ ناجي الطنطاوي «كلمات نافعة» ص١٨٧: «ولقد سبق أن قدمت لأكثر من خمسين كتاباً في أكثر من خمسين سنة، أولها كان لصحفي ناشئ اسمه عباس الحامض، صار من بعد صحفياً معروفاً.. وآخرها مقدمة شرفني بها الداعية الكبير أخي الأستاذ أبو الحسن الندوي».

ويقول في مقدمته لكتاب الدكتور حسان شمسي باشا «قبسات من الطب النبوي» ص٢١٣: «ولقد كتبت المقدمات لأكثر من خمسين كتاباً، في أكثر من خمسين سنة، منها ما هو لمؤلف مبتدئ أُعرِّف به وأدلُّهم على فضله.. ومنها ما هو لأساتذة كبار ما هم بحاجة إلى مقالة مني أقدم بها كتبهم، ولكنهم أرادوا تكريمي بضمِّ اسمي إلى أسمائهم».

فقمت بجمع هذه المقدمات في جملة ما أقوم به من جمع تراث

---

(١) هكذا سمعت شيخنا يقولها، كما سمعها من أستاذه العلامة اللغوي الكبير الشيخ عبد القادر المبارك رحمه الله تعالى.

الشيخ وترتيبه، واستحسنت أن أضمَّ إلى هذه المقدمات، مقدماتِه التي كتبها لكتبه، وخاصة التي قدَّم لها بعد مرور زمن طويل على إعادة طباعتها، فضممت من مقدمات كتبه سبع عَشْرَةَ مقدمة فتمَّ المجموع أربعين مقدمة.

وجعلتها في قسمين: الأول: ما قدمه الشيخ للمؤلفين، ورتبتهم حسب التسلسل التاريخي، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

والقسم الثاني: مقدماته لكتبه، ورتبتها باعتبار تاريخ كتابتها، وراعيتُ أيضاً تآلف المواضيع وتجانسها.

وعلقت على بعض المواضع تعليقات مناسبة يسيرة[١]، رمزت لها باسمي أو بحرف (م).

* * *

تجد في هذه المقدِّمات: الذكريات والتاريخ والتراجم والأدب والدعوة وأنواع المعارف وفرائد الفوائد.

يسجّل للتاريخ حقائق عاش فيها، ويصف معارك للحياة خاض غمارها، وأحداثاً شهدها وسبر غورها.

فاقرأ إن شئت مقدمته لـ(ظلال الأيام) لرفيق عمره أنور العطار، ومقدمة (مكتب عنبر) للأستاذ ظافر القاسمي. وهما من آثر المقدمات عند شيخنا.

تقرأ في هذه المقدمات ذكرياته في الطفولة ص١٨٩ ـ ١٩٢، ومكتب عنبر ص٣٣ ـ ٣٨، والمدرسة التجارية ص١٢٤، والمجمع الأدبي الذي أسسه منير العجلاني ص٢٧، وعمله بجريدة فتى العرب ص٢٦، وصلته بمجلة الرسالة والزيات ص٢٧.

وتجد وصفاً دقيقاً للحرب العالمية الأولى ومظاهر البؤس والألم ص٢٨ و١٥٧، وتشاهد الطريق الذي سلكه في رحلته إلى الحجاز

---

(١) انظر على سبيل المثال التعليقات الآتية ص١٠٢ ـ ١٠٣ و١٢٢ و١٢٦ و١٣٢ و١٩٠.

ص٢٢٩ ـ ٢٣١، وأيامه في العراق ص٢٥ و١١٦، وذكرياته في بغداد ص٣٦٧ ـ ٣٧٣، ورحلته إلى الهند ص٨٩ ـ ٩٣.

* * *

كما تتعرف في هذه المقدِّمات على كثير من الأعلام الذين اتَّصل بهم، والشيخ هو الصلة بين الطبقة المتقدمة من كبار رواد النهضة الإسلامية المعاصرة وبين الجيل الحاضر من أمثال العلامة أحمد تيمور باشا، ومحمد الخَضِر حسين، وبدر الدين الحسني... و.. و.. يحدثك عنهم كأنما تراهم، ويُسمعك أخبارهم كأنك معهم في مجالسهم، ويعطي حُكمه على الأشخاص بكل عدل وإنصاف.

ويذكر أسماء العلماء الذين اتَّصل بهم في الشام ومصر والعراق ص٣٥٢ ـ ٣٥٣ ويقول: «لو عددتهم لأَربىٰ عددهم على المئة».

ومن هؤلاء الأعلام الذين ترجم لجوانب من حياتهم أساتذته: عبد الرحمن سلام، وسليم الجندي ص٣٩، وعبد القادر المبارك ص٣٩ ـ ٤١، ومحمد البزم ص٤١، والشيخ محمد الداوودي ص٤٢، وجودة الهاشمي ص٤٣، ومسلّم عناية ص٤٤، وفارس بركات، وعارف القلطقجي ص١٢٤ ـ ١٢٥.

وذكر كبار القراء في دمشق: الشيخ محمد الحلواني، وعبد الله المنجد، وعبد الرحيم دبس وزيت، وولده الشيخ عبد الوهاب ص١٢٨ ـ ١٢٩، والسلسلة الذهبية من المفتين الذين أدركهم بدمشق ص٢٠٢، ونوابغ المكفوفين الذين عرفهم ص١٢٥.

تقرأ في هذه المقدمات كلمات عن الشيخ طاهر الجزائري وأثره العلمي في بلاد الشام ص٧٥ و١٢٩، وتلميذه شيخ شيخنا العلامة النابغة محمد سعيد الباني ص١٣٢.

كما تقرأ ترجمة والده الشيخ مصطفى الطنطاوي ص٢٠٢،

وإخوته: الأستاذ ناجي الطنطاوي ص١٨٨، والأستاذ الشيخ محمد سعيد الطنطاوي ص٢٠٣، والدكتور عبد الغني الطنطاوي ص٢٠٢.

وتسمع أخبار كبار علماء بغداد أمثال العلاَّمة بركة العصر أمْجَد الزهاوي ص١١٥، وحمدي الأعظمي، وقاسم القيسي، وفهمي المدرس، وبهجت الأثري ص٣٧٢ ـ ٣٧٣.

وتقرأ ثناءه على كبار الدعاة مثل الإمام حسن البنا ص٧٦ و١١٤، وخاله محب الدين الخطيب ص٧٤، والأستاذ سعيد رمضان المصري ص٧٠ ـ ٧١، وأبي الحسن النَّدْوي ص٨٨ و٩٧ و١٠٤ و١٠٩، ومحمد محمود الصواف ص١١٤ ـ ١١٧.

ويذكر تلاميذه الأوفياء، وفي مقدمتهم الأستاذ عبد الرحمن الباني ص١٣٣، والدكتور محمد الصباغ ص١٤٠، ومحمد القاسمي ص١٤٨، وعبد السلام عارف رئيس الجمهورية العراقية رحمه الله ص٣٧٣، والعقيد المحامي الطبيب جهاد عبد الوهاب ص٣٧٤، والأستاذ نجدة فتحي صفوة ص٣٧٥، والشيخ حسن خالد مفتي لبنان ص٣٧٥.

تجد في هذه المقدمات قطوفاً تاريخية من القديم والحديث، فيتكلم عن ولعه بالتاريخ ص٢٩٠، وأسلوب عرض التاريخ ص٢٩٦، وأهمية علم الرجال ص٣٠٠، وكيف يكتب التاريخ ص٣٠٣، وشروط المؤرخ ص٣٠٣، والفرق بين رواية المؤرخين ورواية المحدثين ص٣٠٢، والتساهل في رواية الأخبار ص٢٧٣.

ويبين أن كتب التاريخ والأدب والمحاضرات تحتوي على سير وتراجم ليست في كتب التراجم ص٢٨٥، وأن التاريخ الإسلامي لا يقتصر على التاريخ السياسي وحده ص٢٨٨، وأهمية التاريخ العلمي ص٢٩٨ و٣٠١، وتاريخ القضاة ص٢٩٩، لأنهم كما يقول الشيخ: «مقياس الخير في الأمم ومعيار العظمة فيها، وهو رأس مفاخر كل أمة حية رشيدة».

ويحذر من طمس التاريخ وتزويره ص١٦٢، ومن الجهل بتاريخ عظماء أمتنا ص٢٥٦ ـ ٢٥٧.

ويبيّن أن التاريخ الإسلامي هو تاريخ الكمال الإنساني ص٢٦١.

ويتكلم عن قصة الفتح الإسلامي ص١٦٢ ـ ١٦٦، وأن هذا الفتح هو أعجوبة التاريخ ص٢٦٥ ـ ٢٦٧ و٢٨٦، ويناقش دعوى انتشار الإسلام بالسيف ص٢٨٧ ـ ٢٨٩.

ويفيض في الحديث عن عظمة عمر رضي الله عنه ص١٧١ و٢٧٢، وعبقرية خالد بن الوليد في الدفاع والهجوم ص١٦٧، وأنواع الأسلحة ص١٦٩، وأثر القوة المعنوية ص١٧٢، وأسباب النصر ص٣٤٣.

وعن الدولة العثمانية التي أعزت الإسلام وحمت رايته ص٣٣ و١٥٧، وعن الاتحاديين وأتاتورك ص١٥٧ و١٥٨ و٢٣٣.

ويتحدث عن أُسرٍ توارث أبناؤها العلم ص٩٧ ـ ٩٨، وعن العرب الأقحاح الذين عرفوا بألقاب فارسية أو أعجمية ص١٠٢، وما عرفه من أصحاب المكتبات الشخصية النفيسة ص٢٣١.

وعمن اختص بتبسيط العلم من المعاصرين، وأوتي القدرة على حل المعضلات وتوضيح الغامضات ص١٣٣ ـ ١٣٥ و٢٠٢، ومن عُرِفَ بارتجال الشعر ص١٩٧ و٢٠٦ ـ ٢٠٧، وعن علماء جمعوا علوماً مختلفة ص١٩٩ ـ ٢٠٠.

* * *

وفي المقدمات كذلك فوائد أدبية ولغوية، ولمحات تربوية وتعليمية، فتجد فيها دعوة إلى اختيار كتب الأدب ص٦٠ ـ ٦١ و٨٧ ـ ٨٨ وتعريف الأدب الإسلامي ص١٠٥، والصلة بين الفقه والأدب ص٦٠، وبين العلم والأدب ص٢٠٠، والتنبيه على فوائد لغوية ص٣٥ و٤٠ و٦٨ و١٣٣ و١٤٣ و١٨١ وأخطاء لغوية وأسلوبية ص٦٤ ـ ٦٥ و١٠٤ و٢٣٦ و٣٢٢.

وطريقة الدراسة التحليلية ص٢٥٨ و٢٥٩، والكتابة الأدبية الوصفية

ص٢٥٨، وأسلوب المسرحيات المنظومة ص١٩٨.

وينتقد بعض أساليب التأليف القديمة: (الإيجاز في المتن إلى حد الإخلال، ثم الاستطراد والتطويل في الشرح والحاشية إلى حد الإملال) ص٦١، و٦٨.

كما ينتقد بعض أساليب التعليم ص١٢٤ ـ ١٢٨، ويتكلم عن أساليب التأليف ص٦٨ و٨٧ و١٤٨، وطبقات المؤلفين ص١٣٠ ـ ٣١ وروّاد الكتّاب المعاصرين ص٦٩.

* * *

وفي هذه المقدمات مسائل علمية وفقهية أشار إليها الشيخ، وفوائد في علوم القرآن والتفسير، مثل: ترتيب السور توقيفي ص١٢٦، وكتابة المصحف بالرسم الإملائي ص١٢٦ و١٣٦، والكلام عن مصحف عثمان ص١٣٨، ومعنى التفسير والتأويل والفرق بينهما ص١٣٩، وتحذيره من تأويل القرآن على غير الوجه الذي أراده الله ص٣٢٦، ونقده لآراء بعض المفسرين المعاصرين ص١٣٧ ـ ١٣٨.

ومسألة دوران الأرض وما دار حولها من خلاف ص١٢١، وكروية الأرض ص٢٠١، والقرآن والحقائق العلمية ص٢١٩، والكشوف العلمية والمخترعات الحضارية وأثرها في تقوية الإيمان ص٢١٨.

وتفسير قول الله عز وجل: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ ص٢٢٣ ـ ٢٢٤، والحكمة من القسم في القرآن ص٢٢٤.

والتفريق بين ما قاله الرسول ﷺ من طريق الوحي، وما قاله بصفته البشرية ص٢١٩ ـ ٢٢١.

ومزايا الشريعة الإسلامية عن غيرها من الشرائع ص٢٢١ ـ ٢٢٢.

وحكم الردة ص٢٤٩، وحكم نصب التماثيل ص٢٥٦.

* * *

وفي هذه المقدمات إرشادات وتوجيهات في الدعوة إلى الله عز وجل، من داعية حكيم ومربٍّ جليل.

فهو يتكلم عن أسلوب الدعوة الإسلامية ص١٠٦ و١٠٩ ـ ١١٠ و٣٢٨، وفقه الأولويات ص٣٢٨، ومراحل الدعوة الإسلامية ص١٤٦ ـ ١٤٧، وعن تجاربه في الدعوة والتأليف (رسائل في سبيل الإصلاح) و(رسائل سيف الإسلام) ص١٩٥، وطريقته في الكتابة وأسلوبه ص٢٤١ و٢٤٣.

ودعوته إلى العرض الشامل للإسلام ص١٤٣، وبأسلوب عصري ص٣٥٣ و٣٥٦، وإلى الجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا ص٣٥٦.

* * *

وبعد:

فهذه قطوف دانية من حديقة الشيخ المورقة المزهرة، ذكرت بعضها ولم أذكر جميعها، وإلا لاحتجت إلى وضع المقدمات في هذه الكلمات.

والشيخ غنيٌّ بمؤلفاته وأثره عن كتابة هذه الكلمات بين يدي مقدماته، ولكن الأستاذ على طريقته في التشجيع أحب أن يشرفني بكتابة هذه الكلمات التي ترددت في كتابتها واستحييت، ولكن الشيخ طلب وأرجأت، والأستاذ نادر حتاحت (صاحب دار المنارة) أكَّد عليَّ واستحثّني فكتبتُ هذه الكلمات بين يدي المقدمات: «ولا يضر أستاذنا ألا تكون مقدمة كتابه عظيمة مثله، وما ينفعه وجودها ولا يضره عدمها، لكنه طلب فلم أملك إلا الإجابة، ومن فاته أن يستمتع وينتفع بما كُتِبَ هنا، فسيجد المتعة كلها، والنفع كله، فيما كتب الأستاذ في مقدماته»[1].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

مَجد مكي

جدة ١٤١٧/٧/٢٧

(١) مقتبسٌ من كلام الشيخ في مقدمته لكتاب «المسلمون في الهند» للسيد أبي الحسن الندوي ص٩٣.



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله..

هذه المقدمات كتبتها في أوقات متفاوتة وبمناسبات مختلفة، منها المعتنى به كمقدمة «مكتب عنبر» للأستاذ ظافر القاسمي، ومقدمة «في ظلال الأيام» لرفيق العمر الأستاذ أنور العطار رحمهما الله، ومنها ما كتب عفو الخاطر في وقت أضيق من أن يتَّسع للتفكير العميق، ومنها ما كتب مجاملة وجبراً للخاطر. وأقدم هذه المقدمات: مقدمةُ كتاب عالم الأندلس ووزيرها لسان الدين ابن الخطيب التي كتبتها بطلب من خالي الأستاذ محب الدين الخطيب، وتاريخ نشرها ١٣٤٧.

وأنا أكتب منذ سبعين سنة، والإنسان تمرُّ به حالات نشاط وقوة، وحالات ضعف وفتور وركود ذهن.

وها أنذا أقرع أبواب التسعين، وبعد ثلاثة أيام يكون قد مرَّ عليَّ في الحياة الدنيا تسع وثمانون سنة هجرية.

ولقد كنت أتمنى أن يكون لديَّ بقية من الشباب والقوة والنشاط لأؤدي بعض الواجبات عليَّ لأناس أحبهم غاية المحبة، وأقدرهم أعظم التقدير، وأحترمهم أجلّ الاحترام، ممن يشرِّفني أن أقدِّم لكتبهم، ولكني أعتذر بهذه الحال التي وصلت إليها وأكاد أعجز بعد كتابتي أكثر من عشرين ألف صفحة منشورة عن تسطير عشرة أسطر تصلح مقدمة لهذه المقدمات.

وإنني في هذه السن أشعر بالفراغ الكبير، بعد أن كنت لا أجد متَّسعاً للقاء الناس والاجتماعِ بهم، حيث كنتُ في كل يوم أنظر في

ثلاثين قضية من قضايا المحكمة، وكنت أيضاً رئيسَ مجلس الأيتام وأعالج مشكلات الأوصياء والأولياء، وفي الوقت نفسه كنت رئيس مجلس الأوقاف وأعالج مشكلات الأئمة والخطباء، ومقررات المجلس الإسلامي الأعلى، كما كنت ألقي حديثاً أسبوعياً في الإذاعة أول الأمر، ثم في الرائي، وأجيب خلال ذلك على جميع ما يردني من أسئلة إلى برنامج (مسائل ومشكلات) و (نور وهداية).

لقد جربت زحمة الأعمال وكثرة الإرهاق فوجدت الفراغ أصعب منها بكثير.

وقد أكرمني الله عز وجل، فيسَّر لي إخوة كراماً محبين، فهذه المقدمات التي أقدِّم لها كانت مهملة حتى قيّض الله لها ولدي الأعز الأستاذ مجد مكي، الذي استفدت من صحبته، وعرفت منه أسماء كتب قيّمة ومراجع كثيرة لم أكن أعرفها، ووجدت فيه من صدق المعاملة ونبل الأخلاق وسعة الاطلاع ما جعلني أعد معرفتي إياه من نِعَمِ الله عليّ، وفقه الله إلى ما يحبه ويرضاه.

كما قام بجمع كثير من مقالاتي القديمة وأوراقي المبعثرة فاستخرجها وقدمها إليّ، وكنت نسيتها، وصرت بعد أن وجدتها كأني أقرؤها لأول مرة.

وأسأل الله سبحانه كما سترني في شبابي أن يسترني في شيخوختي، وكما أحسن إليَّ في دنياي أن يحسن إليّ في آخرتي، وأن يختم لي بالحسنى، وأن يتوفاني مسلماً ويلحقني بالصالحين. وأن يريني قبل موتي ظفر المسلمين وعودتهم إلى دينهم عودة كاملة صحيحة سالمة من كل عيب.

والحمد لله في البدء والختام وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

علي الطنطاوي

٢٣ شوال ١٤١٦ هـ

أنور العطار

ظلال الأيام

المقدمة

للأستاذ علي الطنطاوي

لقد وعدت الأستاذ أنور العطار بهذه المقدمة منذ خمس وعشرين سنة، من يوم أسمعني أول مقطوعة له. قلت له: ستصير يا أنور شاعراً كبيراً، وسأصير أنا كاتباً وأكتب مقدمة ديوانك.

ولقد صار أنور شاعراً كبيراً فهل صرت أنا كاتباً؟ إنني كتبت إلى اليوم أكثر من خمسة آلاف صفحة، أنشأتها إنشاء ولم أجمعها جمعاً، ونقلتها عن قلبي لم أنقلها عن الكتب، ولكني لم أصر كاتباً، لأنني أعجز الليلة عن إنشاء أحب الفصول إليّ، وأوجبها علي: هذه المقدمة التي وعدت بها أنور من خمس وعشرين سنة!

لقد قعدت لأكتبها، فأحسست أنها قد عادت لي أيامي المواضي التي افتقدتها وأيقنت أنها لن تعود، ورفع لي الستار عن عالم كله حب وطهر وجمال. عالم عشت فيه أنا وأنور أمداً، ثم أضعناه وضللنا طريقه. عالم كان حقيقة فصار (مع الأسف) ذكرى، وكان واقعاً فغدا خيالاً، وكنا فيه فصرنا غرباء عنه، لا نراه إلا بقلوبنا من خلال ضباب الماضي.

فُتحت عليَّ أبواب الذكريات، وكرَّ عليَّ هذا الماضي، كأنما هو (فلم) حافل بكل جميل ونبيل، فلم طويل عرض في لحظات وقد تصرمت في تأليفه وإخراجه ثلاثون سنة، فلماً كنا نحن أبطاله وكنا نحن ممثليه، فصرنا نرى فصوله تعرض علينا من بعيد:

رأيت الفصل الأول من هذا الفلم وكان في المدرسة الثانوية الوحيدة في دمشق (مكتب عنبر) في أعقاب الحرب العالمية الأولى، عندما أبصرت أنور العطار أول مرة. أبصرت تلميذاً رقيق العود، دقيق الملامح، أنيق المظهر، من غير أن يبدو عليه أثر الغنى، شارد النظرات، يمر في ظلال الجدران، خفيف الوطء، حالم الخطى، كأنه طيف يمرّ على خيال نائم، يعتزل التلاميذ لا يكاد يثب وثبهم، ولا يلعب لعبهم، فسألت عنه من يعرفه، فقال: هذا تلميذ شاعر اسمه أنور العطار. وما كنت يومئذ أؤمن بغير شعراء الجاهلية والشعراء الإسلاميين، ولا أرضى لنفسي أن أقرأ شعر المتنبي ولا يرضى ذلك لي مشايخي، لئلا تفسد (قالوا) ملكتي، ولم أسمع بعد باسم شوقي ولا باسم المنفلوطي، فما أبهت لهذا الشاعر الذي اسمه أنور العطار، ولا طلبت صحبته، ولا ظننت أنه سيكون بيني وبينه اتصال، حتى كانت تلك المصادفة المسعدة التي كان لها في حياتي وفي حياته أبلغ الأثر:

كانت هذه المصادفة على باب (المدرسة البادرائية)، في ليلة من ليالي رمضان، أيام كان رمضان يزور دمشق حقاً، وكانت تدري دمشق بزيارته وتحتفل بلقياه، وكنت خارجاً منها فواجهت أنور داخلاً إليها، فوقف يحييني ووقفت أحييه، وكلمني وكلمته، واتصل الحديث ونحن قيام تحت مصباح الشارع، حتى جاء ذكر شوقي، فأنشدني قصيدة له، قرأها بصوت عذب حالم حنون، فأحسست أنه كان يمس بكل كلمة من القصيدة حبة القلب مني، فأحببته، وأنت تلقى المرء أول مرة فتحسّ بأنك تحبه أو أنك تكرهه، لا تدري لحبك ولا لكرهك سبباً، سر ركبه الله في نفس الإنسان.

وفهمت منه أنه يسكن في (السمّانة)، وكنت أقيم في (الديمجية)، فاصطحبنا، وذكرت له موت والدي في تلك الأيام، فطفق يحدثني عن

موت والده وهو صغير، واجتزنا سوق العمارة، والعمارة في دمشق كحي الحسين والأزهر في مصر، إن ضاع منك رمضان ببهائه وجماله وجدته في الحسين أو في العمارة، وإن خفيت عنك معالم حسنه في كل مكان وجدتها في العمارة أو في الحسين، ولكنني ما أدركت تلك الليلة شيئاً من هذا البهاء، لقد كان ما أسمع من أنور أبهى عندي مما أرى، وجعلنا طريقنا على (الدحداح)، وهنالك، على قبر أبيه وعلى قبر أبي، ولدت هذه الصداقة التي أثمرت شعراً ونثراً وحباً وإخلاصاً، وكانت من أسعد الصداقات. وهنالك في مدينة الأموات، عاشت هذه المودة التي لا يستطيع أن يعدو عليها الموت، لأن الأدب أكسبها الخلود.

وكرّت فصول الفلم تتتالى، فرأيتني غدوت صديقه وغدا صديقي، يبثني شكاته وأبثه شكاتي، ويجد في حياتي مشابهاً من حياته وأجد في حياته مشابهاً من حياتي، قد ألف بيننا الأدب وألّف بيننا اليتم، وأننا كنا مستورين، على حالة هي فوق الفقر ودون الغنى... حتى كأنني هو وكأنه أنا.

وصار يسمعني شعره، فأجد بواكير شاعر متمكن، لا محاولات طالب مبتدىء، وأجد في هذه (البواكير) قوة في التعبير، وجدة في التفكير، وأبياتاً سائرة، وصوراً رائعة، فهو يقول في الدموع:

عجبي من لغة غامضة   تطرب الناس على شتى لغاها

وهو بيت نبيل في مبناه وفي معناه:

ويقول في وصف العمر (عمر البائس):

والعمر يحكي مستغيثاً علا   أنينه ثم تولّى صداه

وطفق أنور يرسل قطع الشعر، شعر القلب، تترا، يستقيه من معين صاف لا ينضب، فتتناقله الألسنة، وتمشي به الصحف، وتستقبل

فيه العربية شاعراً جديداً ملهماً، ويفتح له أستاذنا الأكبر محمد كرد علي أبواب المجمع، فيقيم له ولإخوانه الثلاثة[1] حفلة تكريمية ينشد فيها أنور قصيدة من الشعر الجيد، عنوانها (الشاعر)، يحسن اختيار موضوعها وألفاظها ومعانيها، وتشق له هذه القصيدة الطريق إلى مجلة (الزهراء)، التي كان يصدرها في مصر خالي محب الدين الخطيب، والتي كانت أرقى مجلة أدبية في تلك الأيام، وكنت أودُّ أن ينشرها الشاعر في هذا الديوان (الذي لم يضمّ إلا الأقل من شعره) ليعرف منها القراء كيف كان أنور ينظم الشعر قبل عشرين سنة، وكنت أودّ إذ لم تكن في الديوان أن أرويها كلها، ولكنها طويلة تملأ صفحات من هذه المقدمة.

وشعر أنور في تلك الفترة آهات أبدعها الفن صوراً، ودموع صاغها البيان شعراً، ومقطعات حلوة، ما أدري ما الذي زهَّد الشاعر فيها فلم يثبت منها في هذا الديوان إلا مقطوعة (الحمامة).

* * *

ورأيت فصول (الفلم) تتتالى... فرأيت فيها كل دقيق وجليل من حياة أخي في الصغر وفي الكبر، ورفيقي في السفر وفي الحضر، وأنيسي في المسرة وفي الكدر: أنور.

رأيت أيامنا في المدرسة، ونحن تلاميذ نعيش من الأدب في دنيا الخيال، إذ أعجزتنا دنيا الواقع أن نجد فيها ما نصبو إليه ونتمناه، لا نصدق متى ينقضي النهار، وننجو من هذيان جماعة الرياضيات،

---

(١) وهم: جميل سلطان، وزكي المحاسني، وأبو سلمى عبد الكريم الكرمي، وكلهم من رفاق الشيخ في المدرسة، وكانت هذه الحفلة سنة ١٣٤٦. ونشرت قصيدته في «الحديقة» أيضاً التي كان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب في تلك السنة (مَجد).

وطلاسم أصحاب الكيمياء، حتى نفر إلى كتب الأدب، نقرأ كل بارع من القول، ونتدارس كل رائع من البيان.

ورأيت أنور وقد بذ الأدباء جميعاً في (العلم...) بالرياضيات، حتى لقد عرف قطر الدائرة، وأضلاع المثلث، ولم يبق عليه ليبلغ نهاية العلم إلا أن يعرف القاسم المشترك الأعظم الذي لم يسمع به امرؤ القيس... رأيته دائباً يكد ذهنه، ويمسح عرقه، يحاول أن يفهم سر المعضلة الكبرى التي لا يفهم لها سر، ويحل المشكلة التي لا يعرف لها حل: الجذر التكعيبي. وأشهد أني جزت الأربعين من عمري، ورأيت أياماً سوداً، ولقيت شدائد ثقالاً، وسلكت البوادي المقفرة، وركبت البحار الهائجة، وعلوت متون السحب، فما رأيت في البر، ولا في البحر، ولا في الجو، شيئاً أشد ولا أصعب، من هذا الجذر التكعيبي...

ورأيتنا وقد فرقت بيننا الأيام أمداً، فاشتغلت أنا بالصحافة، وغامرت في السياسة، وآثر أنور التعليم، فكان مدير المدرسة الأولية في (منين)[1]، في هذه القرية النائمة في حجر (القلمون) الأدنى، ترى مواكب الأحلام بأجمل (عين) وأشدها سحراً، وأكثرها فتوناً: عين منين. من لم ير عين منين، ما عرف سحر العيون، ولا رأى جمال الينابيع، ولا رشف خمر الجمال على مائدة الطبيعة... فكنت أزوره فأقضي ليلة أو ليلتين في جنة قد جمعت فيها النعم، أسكر فيها سكرين: سكر الجمال وسكر البيان، وأخضع فيها لسحرين: سحر الطبيعة وسحر الشعر، وأجمع فيها الماضي البهي ذكرى حلوة، والآتي الشهي أملاً مرتجى، في حاضر ضاع في نشوة اللذة حتى لم يبق لنا منه حاضر نحسه وندركه، نقضي الأصباح نستمع إلى أشعار السواقي المتحدرة من الينبوع وأشعار أنور، ونقطع الأماسي عند الصخور التي أفضنا عليها من قلوبنا الحياة فصارت تحنو علينا، وتولينا الحب، وأرقنا عليها البيان

---

(١) منين: إحدى القرى القريبة من دمشق.

فأمست تحدثنا، تتلو علينا أحاديث الغابرين، وتقص قصص الأسلاف من غسان[1]، أصحاب المجد المؤثل، فتحس كأن قد عاد الماضي، ورجعت (القصور البلق) عامرة، وبعث المجد وعاش الحب، حتى لكأننا نسمع همس العشاق، وآهات نشواتهم، ووسوسة قبلاتهم، ونرى خيالات العناق من وراء الأستار.

أيام سعدنا بها، وما سعدنا بالصخر ولا بالماء، ولكن بأحلام الشباب، رحمة الله على شبابنا، وعلى تلك الأيام...

ورأيتنا وقد صرت أنا معلماً في الجبل من دمشق (في المهاجرين) وصار هو معلماً في السفح (في الصالحية)، فكنا نرتقب المساء ارتقاباً، فإذا حل انحدرت أنا من هنا، وانحدر هو من هناك حتى نلتقي عند (العفيف)[2]، نفرح بهذا اللقاء فرح حبيبين التقيا بعد طول الفراق.

ورأيت أيام العراق، زهرة أيامنا أنا وأنور وزينتها، أيام بغداد، سلام المحبة والوفاء منا على بغداد، وسلام على أهليها، وسلام على الأثري والجوادي وروح الراوي وعلى إخواننا وعلى تلاميذنا فيها.

ويا ما كان أحلى أيام بغداد، ويا ما أبهى لياليها، ويا ما أطيب ما حملنا منها من ذكريات. على دجلتها سلام بردى، وعلى نخيلها سلام الحور، وعلى أبوذيتها سلام العتابا، وعلى أعظميتها وكرادتها ورستميتها سلام الربوة والمزة والشاذروان...

لقد كنا فيها معاً أبداً، يدرِّس أنور في صف وأنا في صف، وربما دخلت فدرست مكانه وقعد فاستمع، وربما دخل فدرّس مكاني فاستمعت، ونمشي على الجسر معاً، وما في الأرض مكان أحفل بذكريات المجد والشعر والغرام من جسر بغداد، ونتبع الشط، ونرتاد

---

(١) غسان الذي ينسب إليه الغسانيون والغساسنة ليس رجلاً، ولكنه نبع ماء نزلوا عليه، وموضعه في جبل الدروز عند قرية سلطان باشا الأطرش.

(٢) العفيف: حيٌّ من أحياء دمشق يقع في أدنى سفح جبل قاسيون.

الرياض، نزور قصور الخلفاء، ومواطن الشعراء، وخلوات المحبين، نؤم الديارات والأطلال والمقابر، نتنسم عرف الأجداد، ونستروح رائحة الماضي، نستنطق دجلة، ونستخبر الآثار، ونسأل النخيل، ونسمع من الأرض ومن الناس أخبار الماضي الفخم، وأحاديث الجدود العبقريين، وقصص المجد الذي لم تر عين الزمان ولم يحمل متن الأرض مجداً أجل منه ولا أعظم، ولا أرسخ أساساً ولا أعلى ذرى. ولم يكن يرانا الناس إلا معاً، ولا يقولون إلا أنور وعلي وعلي وأنور، وربما خلطوا فقالوا علي العطار وأنور الطنطاوي...

لقد كانت أيام بغداد أجدى الأيام على أنور ففيها اختزن في نفسه أجمل الصور، وفيها نظم أروع القصائد، وفيها ابتدأ في حياة الشاعر عهد جديد هو عهد الشعر القومي: شعر الحماسة الوطنية، فازدادت بذلك هذه القيثارة السحرية وتراً جديداً، خرجت منه أطيب النغمات.

رأيت هذا كله فأحسست أن الدنيا تدور بي، واختلطت عليَّ الصور وتداخلت المشاهد، فلم أعد أستطيع أن أتبين شيئاً، ولم أستطع أن أكتب شيئاً...

* * *

ورأيت فصول (الفلم) تتتالى، ثم تكر راجعة، فإذا نحن في سنة ١٩٣٠، وقد بقيت بلا عمل (عقب عودتي من سفرتي الثانية إلى مصر)، فأخذني أنور إلى إدارة فتى العرب، فقدمني إلى معروف الأرناؤوط لأعمل معه في الجريدة، وقد عملت معه شهوراً، وصارت الجريدة ملتقانا أنا وأنور، وصارت مدرستنا الثانية نأخذ فيها من نفس معروف، ومن أدب معروف. وما رأينا في الأدباء، من هو أحلى حديثاً، وأظهر صفاء، وأملأ بالأدب الحق من فرعه إلى قدمه من معروف، إذ كنت تشعر وأنت معه أنه يعلو بك عن المادة، ويسمو عن المطامع، ويوصلك بحديثه وابتسامته وطفولته، إلى عالم كله حب وعاطفة وتجرد. وشيء

آخر كنت أحسه ولا أملك التعبير عنه، شيء مثل الذي تحسه وأنت تقرأ في رواية معروف (عمر بن الخطاب)،ومثل الذي تحسه وأنت تسمع حديث أنور، عندما يكون أنور في سبحاته الشعرية...

ورأيتنا، ونحن في مطلع سنة **١٩٣٣**، وقد لقيت أنور، فقال لي: لك عندي مفاجأة تسرك، قلت: وما هي؟ قال؛ لا، إلا أن تتغدى معي في الدار، فذهبت معه فإذا هي مفاجأة تسر حقاً: العدد الأول من مجلة الرسالة.

ومن ذلك اليوم دخل بيننا (نحن الإثنين) صديق ثالث، أحببناه وأحبنا، هو الزيات ورسالته، وصارت الرسالة مدار أحاديثنا، وصارت مستقر أدبنا، وصار الزيات أخاً لنا كبيراً، وصديقاً عزيزاً، وإن كنت لم أره إلا بعد ذلك بثلاث عشرة سنة، ولم يره أنور إلى الآن.

ورأيت أيام المعجزة التي ظهرت على يد الصديق منير العجلاني وكانت تظن من باب المستحيلات، أيام المجمع الأدبي، حين ألّف بين رجال ما كنا نتخيل أنها تؤلف بينهم الأيام، لاختلاف مذاهبهم في الأدب وتباعد مسالكهم في التفكير، وتباين طرقهم في الحياة، وكانت أيام ألفة ونشاط وأمل، فأعقبها أيام افتراق وكسل ويأس... فياليت منيراً الوزير يكمل ما بدأه منير المحامي.

* * *

رأيت هذا كله، فحرت ماذا أصف وعم أتكلم. وكيف أستطيع أن أجمع في كلمات دنيا من العواطف، وعالماً من الذكريات وآلافاً مؤلفة من المشاعر كانت أثبت من الزمان لأنها بقيت وقد ذهب الزمان، وكانت أجمل من العمر لأنها هي جمال العمر؟

رأيت (هذا) كله، وما (هذا) إلا تلخيص لحياة أنور، الشاعر الذي عاش حياته كلها كما يعيش الشعراء الخلص الملهمون، شعراء القلب والروح واللسان، لا شعراء الألفاظ وحدها والبيان، الشاعر في قلبه

المتفتح أبداً للجمال المترع بالخير الممتلىء بالحب، وفي لسانه الذي يفيض أبداً بالبيان، وينفث السحر الحلال.

وفي هذا التلخيص تحليل شاعرية أنور، فإذا أخذتم عليه أنه كان حليف الحزن صديق الأسى، قد وقف شعره على تقديس الألم العبقري، فبكى الأحلام الضائعة كما بكى الأوراق المتناثرة في (الخريف)، وخلد مظاهر الأسى في النفس وفي الطبيعة، فاعلموا أنه لم يكن يستطيع غير ذلك، وأن الشاعر لا يطبع نفسه كما يشتهي ولكن يطبعه الله بطابع البيئة والزمان، ويكوّن مشاعره في طفولته، قبل أن يشعر هو ليكوّن مشاعره كما يريد، ولو استطاع أن يصغر فمه أو يجمل أنفه، لاستطاع أن يبدل قلبه ويحول عواطفه.

وقد نشأ أنور مثلما نشأت أنا[1]، وفتح عينه على الدنيا والحرب العالمية قائمة، ودمشق في أشد أيامها، ومظاهر البؤس والألم في كل مكان، فكان يرى الازدحام كل صباح على الفرن، ولم يكن يفتح منه إلا كوة صغيرة يبرز منها رأس الخباز ليعطي السعيد من الناس كتلة سوداء لا يعرف ما هي على التحقيق، وإن كان يعرف أن اسمها (الرغيف)، والجياع ينبشون المزابل ويأكلون قشور البطيخ، والنساء يعملن من دون الرجال لأن رجال دمشق قد أكلتهم الحرب، والاسم المرعب اسم جمال باشا يملأ القلوب فزعاً. ثم رأى المشانق وشهد المآتم، فامتلأت نفسه بهذه الصور القاتمة حتى لم يبق فيها مكان لغيرها. وإذا هو رأى الأعراس والأفراح أيام فيصل، فإن هذه الأيام لم تكد تبدأ حتى انتهت، ولم نكد نستمتع بفرحة الاستقلال في حفلة التتويج، حتى ذقنا غصة الانتداب في مأساة (ميسلون).

---

(١) ولد الأستاذ أنور في السنة التي ولد فيها أستاذنا الطنطاوي سنة ١٣٢٧، وتوفي سنة ١٣٩٢ ـ ١٩٧٢ رحمه الله تعالى (مَجْد).

فلا تلوموا أنور إن كان الحزن طابع شعره، وأن الفرح فيه مثل الفجر الأول لا يكاد يبدو بياضه في الأفق حتى تبتلعه بقايا الليل، فهذا هو السبب. . .

ولا تلوموه إن تغزل، فتكلم عن الرؤى والأحلام وترك الحقائق، وعلا إلى سماء الخيال ولم ينزل إلى أرض الواقع، وأنه عمم وجمجم، فلم يخصص ولم يصرح، فإن البيئة التقية التي نشأ فيها أنور لم تكن ترى في الحب إلا (ذنباً) على صاحبه أن يستغفر الله منه، وأنا أؤكد أن أنور كـ(نصيب)، الشاعر الذي سمى قوسه ليلى ليتغزل بها. إن أنور لم يتصل في حياته بفتاة على نحو ما يفعل شباب اليوم، وإنه كان أعف وأشرف من أن يفكر في هذا أو يحاوله، فمن هنا جاء الذي تلومونه عليه.

ولا تأخذوا على أنور أنه حبس نفسه في هذه الدائرة الضيقة، وقصر عليها شعره، ولم يخرج إلى الفضاء الأرحب، ولم يعش في الدنيا الواسعة التي يعيش فيها أكثر الشعراء والناس، فإن أنور أمضى صباه كما أمضيت صباي في عالم ضيق، كانت حدوده تلك المسالك الملتوية الموصلة إلى (مكتب عنبر)، وتلك الساقية الصغيرة المطيفة بمقبرة الدحداح، وذلك الطريق الموحش الذي كان ينتهي عنده العمران، ويبدأ منه عالم الظلام والفزع واللصوص، والذي كان اسمه (قفا الدور)، فصار يسمى اليوم (شارع بغداد) أفخم شوارع دمشق الجديدة. . .

إن أنور يخشى اليوم أن يفارق عالمه الشعري الذي أحبه، أو يتجاوز حدوده، كما كان يخشى من قبل أن يتجاوز (قفا الدور)، أو يتخطى (مكتب عنبر)، ولكن عالم أنور الشعري، عالم واسع على ضيقه لأنه عالم القلب، ولأنه متصل بالله، وقد تضيق على المرء الأرض كلها إن اقتصر عليها، ولا يضيق عليه شبر واحد سما حتى اتصل بالسماء.

وعاش أنور في عهد جد ويقظة، وإقبال على العلم والعمل، وحفظ أنور أكثر من عشرة آلاف بيت من جياد أشعار العرب، فجاء أسلوبه كالماء الصافي فيه عذوبة ولين، وفيه إن تدفق قوة ومضاء، وكان

في شعره أثر الجد ومؤهلات الخلود، لا كأشعار أصحاب المناسبات وطالبي إعجاب العوام، وكان نسجه كالحرير المتين المفوف المنقوش النقش البارع، لا كالنسيج الرخيص الذي يتمزق من اللمس، وتذهب ألوانه من رؤية الشمس.

ما مشى أنور على الطريق الذي فتحه له مَن قبله، بل على طريق شقه هو لمن بعده، وكان أنور إمام جماعة الشباب ولم يكن مؤتماً تابعاً، ولولا نفس من شعر شوقي في مثل (ليل الحزين) من بواكيره وروح من الأدب الفرنسي في بعضها، لقلت بأن أنور لم يقلد في أسلوبه أحداً أبداً، وهل لشاعر مثلُ الذي لأنور في وصف الطبيعة وفي وصف البلدان وفي وصف الرؤى والأحلام، حتى يقلده أنور؟

وبعد فهذا ديوان الوفاء للعربية: نخل مفرداتها فاختار أطيبها، وعرض أساليبها فاصطفى أحلاها. وديوان الوفاء لأقطارها: جرى بردى منذ الأزل، وقام لبنان، فهل قال شاعر في بردى مثل الذي قال أنور؟ هل نُظم في لبنان مثلُ ما نظم؟ وهل يعرف القارىء في الشعر العربي كله قصيدة في وصف الطبيعة أعظم من (لبنان) التي اشتمل عليها هذا الديوان؟

أنا لا أبالغ ولا أغالي، وهذا الشعر العربي بين أيدي الناس، فمن عرف أعظم منها فليقل... ولكن المعاصرة حرمان، وأزهد الناس في العالم أهله وجيرانه، وستمحص السنون هذا الشعر وهذا النثر، وتميز الزجاج من الجوهر، والنحاس من الذهب، وهنالك بعد أن يذهب الرجال، وتنقطع الصداقات والعداوات، ولا يبقى إلا الأدب الذي يستحق الخلود، تُعرف قيمة (لبنان) وقيمة (بردى)، وهنالك بعد أن يعفي النسيان على أسماء كثيرة تملأ اليوم الأسماع، وتشغل الناس، يحتل اسم أنور العطار مكانه مع أسماء الشعراء الخالدين.

دمشق: ٢٥ أيلول ١٩٤٨

علي الطنطاوي

مكتب عنبر

صور وذكريات من

حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية

ظافر القاسمي

المقدمة

بقلم الأستاذ علي الطنطاوي

هذه فصول من كتاب (مكتب عنبر) الذي نثرت الأيام صفحاته، وشتّتَتْ فصوله، كتبها أخي الأستاذ النقيب ظافر القاسمي، وكرّمني حين كلّمني في التقديم لها، وشرط عليّ أن أُجنّب المقدمة الحديث عنه، أو الثناءَ عليه.

ولقد قبلت، ثم ندمت!

قبلت لأن (مكتب عنبر) جمعني يوماً بالأخ ظافر فأحببت أن يجمعني به الكتاب عنه، ولأنه فتح لي باباً ألج منه إلى أطيب ذكرياتي، وطريقاً أعود منه إلى أحلى أيام حياتي.

وندمت لأن المقدمات إنما تكون للتعريف بمؤلف مجهول، أو التمهيد لمبحث صعب، وما في البحث صعوبة، فهو سهل سائغ، عذب اللغة، بارع الأسلوب. وما بالمؤلف جهالة وهو من (نقباء) الصناعتين: صناعة المحاماة، وصناعة البيان ـ ومن بلغة اللسانين: لسان العرب ولسان الفرنسيين، وهو من الأعلام الذين يُستدلُّ بهم، ولا يُدَلُّ عليهم.

. . . قلت: إن هذا الكتاب فصول قيّمة من كتاب (مكتب عنبر) وليست هي الكتاب. إن لمكتب عنبر في تاريخ المكرمات كتاباً كبيراً، ولكن تلاميذه تقطّعوه بينهم، فمنهم من ذهب بالصحيفة الواحدة منه،

ومنهم من راح بالصحائف الكُثر، ومنهم من لم يخرج منه بشيء، ومنهم من حمل منه شيئاً فأضاعه في زحمة الحياة، وعاد فارغ اليدين.

فإذا أردتم أن تقرؤوا (الكتاب) كله، فدوروا عليهم جميعاً، لتجمعوا صحائف الكتاب!

لقد عاش (مكتب عنبر) من أواخر القرن الذي مضى، إلى أوائل الحرب الثانية، وهو يضم جمهرة المتعلمين في هذا البلد. كان هو الثانوية الرسمية المفردة في دمشق، فكان يمرّ عليه كل شاب في دمشق. يدخل إليه ثم يخرج منه فيعلو في مدارج الحياة، أو يغوص في أوحالها، حتى ما تكاد تجد اليوم كبيراً في دمشق، ولا صاحب اسم، ولا ذا منزلة، إلا وقد جاز يوماً بـ (مكتب عنبر).

ولقد كان من تلاميذه رجال، لو عاشوا كلهم إلى الآن، لكان أصغرهم اليوم في الخامسة والسبعين، هم الذين كنا ندعوهم رجال الرعيل الأول، وكانوا هم أول من رفع صوته بذكر العربية على عهد الاتحاديين من الترك[1]. وتسلسلت القوافل من بعدهم، تجوز كلها بهذه الواحة الظليلة، تستمتع بزهرها، وتجني من ثمرها، قبل أن توغل في صحراء الحياة.

فإذا أردتم أن تنشقوا الآن ريّاها، وتتعللوا بعد فقدها بذكراها،

---

(١) وما كان الترك العثمانيون الأولون أمة سَوْءٍ، ولقد تسلّموا الحكم والأرض الإسلامية مِزَقٌ مُرَقَّعة، ورُقَع ممزقة، في كل مدينة ملك، وعلى كل رابية عَلَم، مماليكها ملوكها، وعبيدها سادتها، فأقاموا للإسلام دولة كانت ثالثة الدولتين الكبيرتين: الأموية والعباسية، في صدر تاريخه. دولة بسطت يديها على ما بين فارس والنمسا، وأدرنة وصنعاء، وكان منها أول الأمر ملوك صالحون كبار، ثم خالف آخرها سيرة أولها، ودب الفساد إليها من يوم تركت قوانين الإسلام الذي كان به وحده عزها، وأخذت قوانين أعدائها، حتى كان عهد الاتحاديين، فكانوا قوماً كفرة فجرة، لا يرضى بحكمهم مسلم تركي، بَلْهَ المسلم العربي، الذي حرصوا على تجريده من عربيته، كما حرصوا على إخراجه من إسلامه.

ففتشوا كل من تلقونه من رفاق الصبا، علّ معه نفحةً من وَرْدها، أو عنده لمحة من عهدها.

سائلوهم جميعاً عن (مكتب عنبر)، فإن لدى كل واحد منهم طرفاً من حديثه، وفصلاً من تاريخه، فأمسكوا بأطراف الأحاديث تجىء في أيديكم فصول الكتاب، وهيهات! بعدما فات منها ما فات، ومات مِنْ حَمَلَتِهَا من مات!

ويا ليتني أستطيع أن أروي لكم الفصل الذي حفظته من ذلك التاريخ الطويل! لقد عشت فيه ست سنين، كانت أحفل سني حياتي بالعواطف، وأغناها بالذكريات، وكانت لنفسي كأيام البناء في تاريخ الدار، لو عاشت الدار بعدها ألف سنة لكانت كلها تبعاً لهذه الأيام، التي يُرْسَم فيها المُصَوِّر، وتخطط الغرف، ويرسى الأساس.

فكيف أُدخِل ست سنين، بطولها وعرضها، في عشر دقائق، هي مدة تلاوة هذا الفصل؟

كيف أجمع البحر في كأس، وأحصر الدنيا في صندوق؟

* * *

لقد عشت فيها من الصف السابع إلى الثاني عشر، ما تأخرت ولا (رسبت). ولكنها لم تكن ست سنين، إلا بحساب التقويم المعلق على الجدار، وهل يقاس الزمان بالأشهر والأعوام؟

إن ليلة الصيف تمتد في تقدير عقارب الساعة عشر ساعات، سواء في ذلك ليل العاشق الناعم بالوصال، وليل السجين المكبل بالأغلال، مع أن ليلة الوصال في الحقيقة لحظة، ولحظة العذاب دهر طويل. وهذه هي نظرية النسبية إن كنتم سمعتم بها.

لقد تعلمها (آنشتاين) من ابن زيدون حين قال:

إنْ يَطُلْ بَعدَكَ لَيلِي فَلَكَمْ بِتُّ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيلِ مَعَكْ

ست سنين، ولكنها كانت هي العمر.

لقد عشت فيها في دنيا لم تعرف الغش، ولا الخداع، ولا زيف الصداقات. لم يكن يتقدم فيها إلاّ الجاد العامل من الطلاب، ولا يتأخر إلا الخامل الكسول، ولا يعلو أحد درجة إلاّ إذا ثبت بالامتحان، أنه أهل لهذا العلاء.

فلما فارقت تلك الحياة، ودخلت حياة الناس، عرفت (يا أسفي!) ما الغش، وما الخداع، ولكني لم أستطع أن أغش أو أن أخدع، فكنت الضحية لكل خادع غشاش!

لقد رأيت هذه الحياة لجة، (يرتفع) فيها التبن والبعر، و (ينزل) فيها الذهب والألماس[1].

قد اضطربت فيها الموازين، واختلت المقاييس، ونفق المنافقون، وكسد الصادقون الصالحون!

* * *

ولكن من قال أنها كانت ست سنين؟ كيف، وكل ساعة منها، بما حفلت به من جديد الأحاسيس، وطريف العواطف، كانت كأنها شهر، وهأنذا في محكمة النقض من عشر سنين كوامل، لم أجد فيها كلها لخلوها من العاطفة، وفراغها من الشعور ـ إلا يوماً واحداً يتكرر. يوم واحد، أمسه كغده، وصباحه كمسائه. ساعات تمرّ، ما فيها شيء!

* * *

---

(١) هي الالماس لا الماس كما يكتبها أكثر الكتاب.

كذلك كنتُ يا أخي الأستاذ ظافر لما شرعت أقرأ أصول كتابك عن (مكتب عنبر) التي تلطفت فبعثت بها إليّ.

لقد كنتُ من السأم والملال، كأني في ظلام السينما، فطلعت عليّ هذه الفصول طلوع الفلم، الذي يعرض عالماً أبصره وأسمعه وأعيش في أحداثه.

لقد حرَّكْتَ بها سواكن نفسي، وبعثت لي ذكريات أمسي، وهززتني هزاً، حتى لقد أحسست كأن قد عادت لي مواضي أيامي!

وهل تعود الأيام الماضيات؟!

لقد كان عهد مكتب عنبر، جنّتي التي خرجت منها ثم لم أعد إليها، فرجعتني إليها يا أخي ظافر بكتابك، أطير من فوق أسوارها العالية، وأبوابها الموصدة، بجناحين من ذكرى وخيال، حتى أدخلها مرة ثانية، فأعيش فيها، في حلم ممتع فتان.

إن مدرّسي الإنشاء، ومحدّثي الإذاعة، لا يكادون يلقون أحداً حتى يسألوه: ما هو شعورك؟

كلمة حفظوها، فهم يرددونها، لا هم يدرون عَمَّ يسألون، ولا المسؤول يدري بِمَ يجيب!

فهل تحب أن أتبع أسلوب مدرّسي الإنشاء، ومحدّثي الإذاعة، فأخبرك من غير أن يسألني أحد: كيف كان شعوري، لما قرأت كتابك؟

أعرفتَ البدويَّ العاشق، الذي طالما أنسَ بلقاء المحبوب على غفلة الرقيب، في ظلال الخيمة المنفردة ساعة الأصيل، وعلى شط الغدير الصافي عند العشية، وعلى سفح التل البعيد في ضوء القمر، والليل يغلّف بسكونه همسات الغرام...

... لياليَ رأى المنى ماثلاتٍ أمامه، لما رأى حبيبه معه، واللذائذ كلها في يديه، والماضي والمستقبل قد احتواهما هذا الحاضر، فلم يعد يذكر فيه ما كان، ولا يفكّر فيما يكون، ثم يتفرّق الشمل الجميع، وينأى الحبيب القريب، ولا يبقى من مرابع الحب إلاّ الأطلال المواثل في القفرة الخالية، قد جفّ الغدير، وهُدّت الخيام، ورحل الأحبّة...

... ماذا يكون شعوره حين يجيئه من يحمل إليه رسالة من ليلاه، فيها بشارة باللقاء، ووعد بالوصول؟

هذا هو شعوري لما قرأت هذه الفصول!

غير أن البدوي يأملُ أن يرجع الحبيب، وتعود أمسيّات اللقاء، وأنا أعيش بلا أمل ولا رجاء!

وهل أرجو أن يعود لي أمسي الذي مضى، وآمل أن يرجع شبابي الذي ولّى؟

وَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ ٱلْحِمَى بِرَوَاجِعٍ عَلَيْكَ وَلَكِنْ خَلِّ عَيْنَيْكَ تَدْمَعَا

* * *

وبعد فيا أخي ظافر!

إنك لم تستوف في هذه الفصول أخبار مكتب عنبر كلها، ولكنك فتحت بها للناس باب الذكريات، فما يقرأ تلميذ من تلاميذ المكتب خبراً مما رويت، حتى يذكر خبراً مثله، يرويه ويحدّث به.

لقد مرّ بمكتب عنبر آلاف من التلاميذ، فما كان فيهم من هو أوفى له منك، إذ سجّلت ما عرفت من تاريخه، وحملت غيرك على ذكر ما لم تعرف.

ولقد كنا جميعاً في هذا المكتب، ولكن اختلفت تواريخ وجودنا فيه، ووجهات نظرنا إليه، فتعددت قصته بتعدد تلاميذه، فصار لكل تلميذ فيه قصة جديدة، فهل أروي طرفاً من قصتي فيه؟

لقد كلفت أن أقدم لهذا الكتاب مقدمة أعلم أنه لا لزوم إليها ولا داعي لها!

فما لي قد جاوزت حدّي، وجئت أشغل القراء بحديثي؟

وما للقراء وحديثي أنا، ولهم فيما حدّث به المؤلف فأجاد وأفاد، وجمع فأوعى، ما يغني عن حديثي؟ ولكنه أثار في نفسي ألف ذكرى. وبعث فيها ألف صورة، فاضطرني إلى أن أنفّس عن نفسي بالإشارة إلى بعضها!

فهل يأذن لي القراء أن أسوق إليهم طرفاً من حديثي عن مكتب عنبر؟

كان موعد دخولي المكتب سنة ١٩٢٠، ولكني لم أدخله إلا بعد ذلك بسنتين، ما قصّرت عنه سني، ولا عاقني عنه كسلي، ولكن طال إليه طريقي.

ذلك أننا شهدنا في سنتين اثنتين، مولد انقلابين، وموت حكومتين، أدركنا عهد الترك، ورأينا ذهاب الترك، وعشنا في حكم فيصل، وأبصرنا انهيار حكومة فيصل، فكانوا كلما جدّت حكومة ونحن في الصف الخامس أعادونا إلى الصف الرابع، فلم نستقر في الخامس إلا سنة ١٩٢١ على عهد الفرنسيين، وقد كنا فيه سنة ١٩١٨ على أيام العثمانيين.

لقد كان أول درس حضرناه في مكتب عنبر للشيخ عبد الرحمن سلام، فاستقبلنا، رحمة الله عليه، بخطبة رنّانة، أعلن فيها أنه غدا ذلك اليوم مدرّساً للعربية حقاً.

ذلك أن من كان قبلنا من التلاميذ، قد درسوا في العهد التركي، فنشؤوا (إلا من عصم الله) على ضعف بالعربية، ومن كان معنا درسوا في العهد العربي، فكانوا أقوى ملكة، وأقوم لساناً.

رحمة الله على شيخنا عبد الرحمن سلام، فلقد كان نادرة الدنيا، في طلاقة اللسان، وفي جلاء البيان، ولقد عرفتُ من بعده لُسُنَ الأدباء ومَصَاقِعَ الخطباء، فما عرفت لساناً أطلق، ولا بياناً أجلى. ولست أنسى خطبته حينما أطلّ من شرفة النادي العربي، قبل يوم ميسلون، على بحر من الخلائق، تموج موجان البحر، قد ملأ ما بين محطة الحجاز، والمستشفى العسكري في بوابة الصالحية[1] (الخسته خانة)، وسراي الحكومة، وحديقة الأمة (المنشية). وكَبَّرَ تكبيرة رددتها معه هذه الحناجر كلها، وأحسسنا كأن قد رددتها معه الخمائل من الغوطة، والأصلاد من قاسيون. ثم صاح صيحته التي لا تزال ترن في أذني من وراء ثلاث وأربعين سنة، حتى كأني أسمعه يصيح بها الآن: غورو، لن تدخلها إلا على هذه الأجساد[2]!

رحمة الله عليه، وعلى أستاذنا سليم الجندي، الذي جاءنا بعد ما فارقنا سلام، قافلاً إلى بلده بيروت، فكنا أول تلاميذه، والذي كرهناه لما رأيناه، ثم أحببناه لما خبرناه! الجندي الذي مات وما أعرف تحت أديم السماء أعلم منه بالعربية وعلومها، الجندي الذي ما رأينا مثله، ولا أظن أننا سنرى مثله أبداً[3].

وعلى أستاذنا عبد القادر المبارك، الذي كان الإمام في اللغة، والمرجَع فيها، قَيَّد أوابدها، وجمَّع شواردها، وحفظ شواهدها، وكان

(١) ولم يكن قد فتح شارع بغداد.
(٢) اقرأ الخبر مفصّلاً في كتابي (دمشق).
(٣) أطلت الكلام عنه، في خطبتي التي خطبتها في حفلة تأبينه، وهي في كتابي (من حديث النفس).

أعلم العرب بالعرب، عرف أيامهم، ووعى أخبارهم، وروى أشعارهم. وكان المفرد في بابته[1]، لا نظير له في العلماء. تحس إذ تجالسه وتسمع منه، كأن الأصمعي أو أبا عبيدة قد تمثّلا لك في جبته، وكأن ما كنت تقرؤه في التاريخ، قد عاد لك حتى رأيته بالعيان.

أما درسه، فما حضرت (على كثرة ما حضرت من الدروس) درساً أكثر منه حياة، وأبقى في نفس سامعه أثراً. إن نغمته لا تزال إلى اليوم في أذني، وكلماته لا تزال في قلبي.

كنا ندخل (الصف) في مثل (العراضة): أصوات عالية متداخلة، وضجيج صاخب مزعج. وكان المدرسون يجدون مشقة في إسكات المتكلمين، وتهدئة الصاخبين. فإذا كان درس الشيخ المبارك، رأى التلاميذُ البابَ قد انفرج مصراعاه، وبدا من بينهما جبين عريض، من فوقه خط أبيض، ثم ظهر وجه الشيخ وعمامته، وجلجل صوته الذي كان يعرف من بين أصوات البشر جميعاً بضخامته وجهارته، بِصَدْرِ بيتٍ من الشعر، فيسكت الطلاب ليسمعوا فيخطو الخطوة الثانية فيكون في الصف، ويتم البيت، ويشرع بالدرس.

وكان يدرّس الفقه، يقرئنا (مراقي الفلاح) أولاً، ثم (الأحكام الشرعية لقدري باشا). ولكن درسه لم يكن يقتصر على الفقه، بل كان فيه مع الفقه تفسير، وحديث، وقواعد من الأصول، يسوقها بعبارات موجزة محكمة بليغة، يلقيها ويرددها، ويكتبها بالخطّ الثلث على اللوح، بعرض الحوّارة[2] وكان يتخذ ضوابط يجمع فيها أحكام الفقه، ومفردات الغريب، نحفظها فلا ننساها.

---

(١) يقال هو من بابة فلان: إذا كان من أشكاله ونظرائه.

(٢) كان رحمه الله يُسمّى الحوار (الحَكَك)، مع أن الذي أراه أن اسم الحوار عربي فصيح لأن التحوير هو التبييض كما أن اسم اللوح عربي فصيح، والعامي الفصيح خير من الغريب المهجور.

ولطالما دلّنا على كتب قرأتها وانتفعت بها، فكانت هي رأس مالي في العلم. ولولاه ما سمعت بها.

أنا أشهد أني استفدت من المبارك أكثر مما استفدت من الجندي، وما فتئنا نقلده، حتى صارت لهجته في التدريس، لهجتنا ونحن لا ندري!

ولقد أقيمت حفلة سمر في بغداد، في آخر سنة **١٩٣٧** أو **١٩٣٨**، لم أعد أذكر، وقد كنت أدرس فيها، فسأل الطلاب مدرّسيهم على عادة اعتادوها: هل يأذنون لهم بأن يقلّدوهم؟ فمنهم من أذن، ومنهم من أبى، وكنت فيمن أذن. فقام تلميذ يقلّدني بزعمه، ولكنه قلّد شيخنا المبارك. فقلت: هذا شيخنا المبارك. وإذا بالتلاميذ يصيحون من الأركان الأربعة: بل هذا أنت، هذا أنت!

فإذا أنا لطول ما حاكيت الشيخ قد صرت مثله! أعني مثله في لهجته ونغمته، لا في علمه، أين أنا من علم الشيخ؟

ولقد كان يعاب على درسه أنه فوضى، ومتى كانت الفوضى غريبة على أدبنا؟ هذه كتب الأدب العربي، هل فيها إلا (الفوضى)؟ والانتقال من قصة إلى مثل إلى تفسير آية، إلى حكمة لأفلاطون، إلى أبيات من أشعار عقلاء المجانين، إلى حكاية لا تخلو من اللفظ الفاحش والمعنى البذيء؟

هذه كتبنا الأدبية، فَلِمَ لا تكون دروس أدبائنا مثلها؟

أما (البزم) فلم نقرأ عليه. لقد قرأ عليه من جاء من التلاميذ بعدنا، فخبّرونا أنه كان مدرساً نادر المثيل. كان فصيح اللهجة، بيّن الأسلوب، تعرف ذلك من سلامه وكلامه، إذا سألك: (كم الساعة؟) أدركت من سؤاله أنك أمام إمام في العربية، صارت الفصاحة له طبعاً لا تطبّعاً.

ولقد اتصل حبل المودة بِأخرَةٍ بيني وبينه، وكنت قد جافيته أولاً وناوأته، وكتبت عليه.

ذلك أنه كان رحمه الله، يكتب في مجلة الميزان[1] كلمات، يتناول فيها الأدباء بالتجريح، لا يكاد يسلم من لسانه أحد. فكتب عن الجندي أنه: (يهدم للمعرّي قصراً منيفاً، ليبني بأنقاضه كوخاً حقيراً). فانتصرتُ لشيخي الجندي، وكتبت عن البزم أنه (يعرف في النحو ما يجهله الناس، ويجهل ما يعرفه الناس، وإن شعره جدار من الحجارة الصلد، ولكنها مركومة ركماً، ليس بينها ملاط).

فغاظه ذلك مني، وكفّ عن الجندي.

وما كنت في الحقيقة إلا تلميذاً للبزم. ليس قدري من قدره، ولا مكاني قريباً من مكانه، وليس لمثلي أن يكتب ذلك عن مثله، ولكنه غرور الشباب مني، والغيرة على شيخي وأستاذي. ولعله سكت عني استصغاراً لي، أو رحمة بي.

أما الشيخ الداوودي، رحمه الله، فقد كان يدرّس في صفوف غير صفوفنا، فلم أحضر عليه، ولكن من حضر عليه يؤكد القول أنه كان له من لطفه وظرفه، وعطفه على تلاميذه، وحرصه على إفهامهم، وتفننه في ذلك، ما لا ينسونه. وكان شيخاً أبيض اللحية، مريضاً. وكان يجيء المدرسة في آخر عمره على أتان (حمارة) بيضاء، وكانت لذلك العهد مثل السيارة الخاصة اليوم. فكان ينزل عنها عند آخر الدهليز، فيأخذ تلاميذه بيديه، يساعدونه حتى يدخل الصف، فيكون كأحسن مدرّس عرفوه، فإذا خرج إلى (الفرصة) لم يبق فيه قوة. فيلقي بنفسه على الأريكة يضطجع، يستريح إلى وقت الدرس التالي.

ولما توفي سنة ١٩٢٦ أو قريباً منها[2]، ألقيتُ على قبره رحمه الله

---

(١) التي أنشأها الأديب العبقريّ أحمد شاكر الكرمي رحمه الله.

(٢) توفي الأستاذ محمد الداوودي سنة ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م.

كلمة لي، وقصيدة لأخي أنور العطار، وكان طالباً معنا، وكان ينظم الشعر الجيد من تلك الأيام.

لقد كان مكتب عنبر هو الثانوية الرسمية المفردة في دمشق، بل كان الثانوية (الوحيدة) الكاملة في سورية، فكان يأتي إليه الطلاب من كل مكان ليكملوا دراستهم فيه. فلذلك اختاروا لتدريس كل علم فيه أكابر علمائه. فكان من مدرّسينا في الرياضيات الأستاذ جودة الهاشمي رحمه الله، الذي رأيته مرة بعدما خرجت من المدرسة بسنين، فسلمت عليه فابتسم لي، فكدت أقضي من الدهشة. قال: ما لك؟

قلت: لا شيء. قال: أراك دهشت. قلت: لأني رأيت عجباً! قال: ما هو؟

قلت: رأيتك يا سيدي تستطيع الابتسام!

وكنا نظنه لا يبسم أبداً.

ومن مناقبه أنهم فتحوا باب تحقيق واسع، إثر زيارة المسيو دوجوفنيل[1] التي وصفها الأخ ظافر، وأعدوا أسئلة يسألونها التلاميذ، ليعرفوا من دبّر الأمر، ومن تولّى كِبْرَه، واستدعوا التلاميذ كلهم واحداً بعد واحد ليجيب عليها، وكنت فيمن دعي، فلما صرت في غرفة المدير، وأخذت القلم لأكتب، اقترب مني، وقال لي هامساً: (ما بتعرف شي، مو هيك؟).

قلت: نعم يا سيدي. وكتبت تحت كل سؤال: لا أدري.

وتبيَّن أن التلاميذ كلهم أجابوا بـ (لا أدري)، وكان ذلك بتوجيه الأستاذ الهاشمي، وكان هو المدير. ومرّ الحادث على جلاله وعظمه

---

(١) راجع البحث في صفحة ١٢٣ من (مكتب عنبر).

بسلام، ولم ينل أحداً من التلاميذ كبير سوء. ولو كان المدير غيره لقُوِّضت المدرسة على رؤوس من فيها.

وكان المدير لما دخلنا المدرسة شريف بك رمو، وهو أميرالاي متقاعد، عسكري صارم، ثرنا عليه الثورة المعروفة، فَوَلِيَ الإدارة بعد خلعه المربي الكبير، العالم الجليل، الذي لم يَفِ له هذا البلد، وهو أبو (المعارف) فيه، وأستاذ أساتذته، مصطفى تمر، ثم وليها جودة بك، رحم الله الجميع.

وكان زميله في تدريس الرياضيات الأستاذ مسلّم عناية، عليه الرحمة. ولقد سِحْتُ في البلدان، ولقيت الرجال، ودانيت الأذكياء من العلماء والأدباء، ولا والله لم أجد فيمن لقيت أذكى من هذا الرجل ذكاءً، ولا أحدَّ ذهناً.

لقد كان جودة بك عالماً بالرياضيات، هضمها (كما يقولون) هضماً، وقتلها فهماً، وأحسن فيها تعليماً وتفهيماً، وأعانه على ذلك سكوت الطلاب في درسه، واستماعهم لقوله، فأفاد واستفاد.

أما مسلّم بك، فقد كان عبقرياً من أفذاذ الرجال.

كان ضابطاً كبيراً من أركان الحرب. وكان من أعلم الضباط بفنون العسكرية، وكان أستاذاً في العلوم بفروعها كلها، أستاذاً في الكيمياء يرجع إليه مدرسوها في معضلات مسائلها، لا يكتمون ذلك عنا، ولا يخفونه علينا، أستاذاً في (الطبوغرافيا)، أستاذاً في علم الموسيقى، وكان يعرف الفرنسية ويُدَرّسها، والتركية وكان أديباً فيها، والألمانية وكان يتقنها.

ولكنه كان (والحق يُقال) كان على هذه المزايا كلها، بعيداً عن التوفيق في التدريس، عاجزاً عن ضبط التلاميذ، له في الفوضى نوادر عجيبة، لا يزال الأحياء من تلاميذه يروونها عنه.

لقد كان أكبر من أن يكون مدرّس مدرسة ثانوية، فعجز عن الهبوط إلى مستوى عقول التلاميذ ليفهمهم، وعجزوا عن الصعود إليه ليفهموا منه، فبقي بينهما فراغ، ملؤوه بالشغب والضجيج وإفساد الدرس.

* * *

هؤلاء كانوا أساتذتنا: المبارك للدين، وإن كانت دروسه في الواقع للدين والدنيا، والعلم والعمل، والجد والهزل، وما يُقال في الدرس عادة، وما لا يُقال...

والجندي للعربية، عنده العلم الغزير، وعنده جواب كل سؤال، وحل كل مشكلة. ولكن ليس عنده ما يغري التلاميذ بالإقبال عليه، والإصغاء إليه، فهو يقعد على كرسيّه لا يقوم عنه، وما قعد المبارك على الكرسي قط، ويلقي درسه بصوت خفيض، بلهجة واحدة كدت أصفها بأنها مملّة، والمبارك يُفَخِّم ويُرَقِّق، ويَجْهَر ويُخَافت، وله صوت إذا خافَتَ أسمع به كل من في المدرسة!

وكان الجندي، على هذا، إمام الأئمة، وأستاذ العصر. أما الداوودي والبزم، فما قرأنا عليهما.

وجودة الهاشمي ومسلّم عناية للرياضيات.

والدكتور جودة الكيال، والدكتور يحيى الشمّاع للعلوم، وهي تجمع الفيزياء[1]، والكيمياء والتشريح والنبات والحيوان وحفظ الصحة.

فلما سافرا إلى أوربة لإتمام دراستهما سنة **١٩٢٤** أو **١٩٢٥**، لم أعد أذكر، جاءنا الدكتور عزة الغبراء، والدكتور صبحي راغب يدرّسان في غيابهما.

---

(١) وكان اسمها عندنا (الحكمت)، هكذا بتاء مبسوطة.

وكان الأستاذ حسن يحيى الصبان يدرّسنا التاريخ، والدكتور كامل نصري يدرّسنا الجغرافيا. وكان الدكتور نصري مديراً ثانياً (معاون المدير). ثم حل محله الأستاذ عبد الفتّاح ملحس رحمه الله، ثم الأستاذ عبد الرحمن السفرجلاني شيخ المعلمين، وابن شيخ المعلمين. رحم الله أباه شيخنا الشيخ عيد السفرجلاني، وبارك في أستاذنا عبد الرحمن الذي مدّ الله في حياته حتى رأى من تلاميذه من بلغ الثمانين.

وأشهد لقد علّمونا الدين والخلق، كما علّمونا العلم، وأفادونا بثمرات تجربتهم في الحياة، مثلما أفادونا بدروسهم، وكانوا لنا آباء قبل أن يكونوا معلمين.

وكان من معلمينا الذين لا يُنسون: الأستاذ عبد الوهاب أبو السعود، وكان يعلمنا الرسم، وما كنا نبالي بالرسم، ولا نقيم له وزناً، ولا كان القائمون على التعليم يَعْدِلُونَه بالعلوم التي يدرّسها غيره من الأساتذة. ولكن عبد الوهاب يضطر جليسه أن يُبَالِيَهِ، وأن يلتفت إليه، فكيف بتلميذه؟ لقد كان أحد رُوَّاد (التمثيل) الأوائل، فكان يلقي درسه (وما درسه؟) كأنه رواية (درامية) على المسرح، فما ظنك برواية تُمَثَّل في الصف.

وإذا كان الكلام يجرّ الكلام ولو لم يكن من جنسه، فمن الإنصاف أن أذكر رائداً آخر من روّاد الرسم، غدا اليوم مجهولاً، وقد كان في أيامه من الأعلام، وهو ضابط قديم، جسيم وسيم، علّمنا كيف نرسم الأشياء، ونقيس أبعادها، ونضع الظلال، ولا تزال عندنا بقية صالحة مما علّمناه من نحو نصف قرن، هو (عبد الحميد عبد ربه) رحمه الله.

ومن رواد التمثيل السابقين الدكتور أسعد الحكيم عضو المجمع العلمي العربي، وقد ألّف لتلاميذ المدرسة الكاملية روايتين وأخرجهما. إحداهما (دمنة الهندي) والأخرى نسيت اسمها. وكان لتمثيلهما ضجة في

دمشق، وأنكرت ذلك مجلة الحقائق، وجمعت الفتاوى من (المشايخ) على تحريم التمثيل، ومن أراد الوقوف على أدلتهم التي ساقوها فليرجع إلى المجلّد الثاني من هذه المجلة...

وتبعه بعد أكثر من عشر سنين رائد آخر، كان يؤلّف الرواية، ويعلّم التلاميذ تمثيلها وكان له صديق من المحامين يخرجها ويصنع المسرح والثياب من بالي الخرق، ورخيص الورق، فيأتي بالمدهشات، وهذا الرائد هو كاتب هذه المقدمة، وصديقه هو المحامي أحمد حلمي العلاّف رحمه الله. وقد مُثِّلَتْ لهما على مسرح المدرسة الأمينية خمس مسرحيات، وعلى مسرح المدرسة التجارية مسرحية طويلة عن (عنترة)، وكانت كل رواية تُعرض مرات كثيرة، ويتحدث بها الناس أياماً طوالاً.

وكان يعلّمنا الفرنسية أول الأمر، فرنسي عجوز أعرج، طويل اللحية، أحمق، رخو، لا يضبط صفاً، ولا يصغي إلى درسه أحد، وكان يسكن الدار المواجهة للمدرسة ويتحمل أذى التلاميذ صابراً، واسمه المسيو ميشيل.

ثم جاءنا مدرّس لبناني الأصل، قصير القامة، غريب الشكل، له شاربان دقيقان، يخرجان من تحت منخريه، ويمتدان إلى الأمام، كأنهما رجلا عنكبوت، وكان يتكلم الكلمة بالفرنسية ويلحقها بترجمتها بالعربية، بصوت ثاقب، بنغمة ممطوطة، ولم يطل بحمد الله مقامه بيننا.

ثم جاءنا (تريس) Tresse وهو استعماري جاهل، يبدو أنه من أجلاف الريفيين الفرنسيين، لا يفقه شيئاً، ولا يحسن تعليماً ولا تفهيماً. ثم جاءنا الرجل الفاضل النبيل شكري الشربجي، فأفادنا وعلّمنا. وكان يعلّم في الصفوف الأخرى، المسيو علي الجزائري، والمسيو صالح التونسي. أما المسيو علي، وكنا نلقّبه بهذا من أيام الشريف فيصل، فهو رجل رقيق الحاشية، حَيِيّ الطبع، مهذّب اللفظ، توفي رحمه الله من سنتين. وأما المسيو صالح، فكان بديناً عظيم الشاربين، جهير الصوت

ناري الطبع، وكان يؤلف الجملة الواحدة من كلمات عربية وكلمات فرنسية، فيقول مثلاً: chacun يقعد في بلاسه، واللي يحكي نعمل له الـpunition. وكانت لهجته مغربية. أخرج مرة تلميذاً إلى اللوح ليترجم فقال له: (مْلْكْ عْطْشْ مَلْقَامَا) أي: (ملك عطش ما لقي ماء) وسكّن حروفها كلها ودمج كلماتها دمجاً، ووصل أوائل تواليها وأواخر أواليها، فما فهم التلميذ، فغضب وقال: (نكلموك بالعربي ما تفهم؟!).

وكان يعلّمنا الموسيقى الأستاذ مصطفى الصواف. أما الأساتذة الشباب فقد أدركنا اثنين منهم، وكنا في أواخر السنة الأخيرة، الدكتور صليبا (مدرّس الفلسفة وكان يدرّسها قبله الأستاذ سعيد البحرة) والأستاذ الفصيح. وقد صحبناهما شهوراً كنا نحن فيها في أواخر طريق التعلّم، وهما في أوائل طريق التعليم، وما رأينا من قبلهما أستاذاً شاباً مثلنا. ما كنا نرى إلا شيوخاً أو كهولاً كالشيوخ.

وكان في المدرسة معيدان: الأول عاصم بك البخاري، والثاني عزة أفندي الرفاعي، هكذا كنا ندعوهما. وأشهد أن للأستاذ الرفاعي فضلاً على الرياضة في دمشق، لا أجد اليوم من يذكره أو يشكره، فهو الذي بعث الله على يده الروح الرياضية بعد أن ماتت، وهو الذي نشأ على يده أكابر أبطالها، رفاقنا: محمود البحرة عبقري الرياضة، وحسن الهاشمي، وأحمد سامي السمّان بطل القفز العالي رحم الله الجميع.

أقام لنا في رَحْبَة متروكة كانت وراء المطبخ ملعباً كامل العدة، من غير شيء، لفّقه من شبه العدم فجعله صالحاً لتخريج هؤلاء الأبطال.

لقد استرسلت في الحديث، والحديث طويل، ولو كتبت كل ما أعرف عن مكتب عنبر لما اتسعت له هذه المقدمة، بل لضاق عنه أضعافها.

لقد كان مكتب عنبر مثابة العلم، وكان موئل الوطنية، وكان مصدر الحركات الشعبية، ومبعث النضال، ولقد كُتِبَ لي أن أقوده في يوم من

أعظم أيام نضاله، وإن نفسي لتراودني أن أقص قصة ذلك اليوم، يردّني أن الأستاذ المؤلّف كلّفني تقديم كتابه، ما كلفني الحديث عن نفسي...

... ولكن هل أتحدث عن نفسي؟ إني أروي صفحة من صفحات كتاب (مكتب عنبر)، وهل الكتاب إلا قصص من كان فيه، ومن مرّ به؟ أو لم يقل فيكتور هوغو: «أنا حين أصف آلامي أباً، أصف آلام كل أب، وحين أصور عواطفي في الحب، أصور عواطف كل محب»؟ أو لعل قائلها غير فيكتور هوغو، أو لعله قال شيئاً غير هذا، فما أريد الاستشهاد بشهرة القائل، بل بصحة القول.

ثم إن المقدمة ستكون بين يدي أخي الأستاذ ظافر، فإذا رآها طالت، أو رأى هذه القصة أولى بها الطيّ، فله أن يطويها ولا ينشرها.

لقد أمضيت ست سنين في (مكتب عنبر) منفرداً متحداً[١]، أصادق الأخ والأخوين، لا أنغمس في الحياة الاجتماعية للطلبة، ولا أشارك في جمعية رياضية ولا فنية، ولم أدخل حزباً من الأحزاب، وكان الانتساب إلى الأحزاب شائعاً بين الطلاب قبل الثورة، يوم كان في الشام حزبان وطنيان فقط، هما حزب الشعب، وحزب الاستقلال. ثم أمسكت الكتلة الوطنية الزمام، فكان الطلاب يصدرون عن رأيها، وينفّذون مقرراتها. وكنت في معزل عن ذلك كله، حتى إني كنت أعتذر عن حضور (السيران) السنوي التقليدي، وكان من العادات المتبعة أن يشترك الأساتذة والطلاب جميعاً فيه، وكان موضعه الذي لا يتغير قهوة الربوة، وطعامه الذي لا يتبدل (صفيحة وشعيبيات) أو (قوزي) عليه خروف كامل.

بل لقد زدتُ على ذلك فكنت لا أضرب يوم الإضراب. ولما كان الإضراب المشهور، يوم زيارة (بلفور) دمشق سنة ١٩٢٥ (على ما أذكر) ذهبت وحدي إلى المدرسة، ودخلت وحدي الصف، ولم أخرج حتى

---

(١) المتحد: المتوحد المنفرد.

أخرجني الأساتذة، وعلى شفاههم ظلال الاحتقار لي، لمخالفتي إخواني - وما فعلت ذلك عن عمد، بل كنت لانفرادي لا أحسّ بما كان من حولي.

لم أخالف ذلك طول أيامي في التجهيز إلا مرتين، دعيت فيهما إلى إلقاء قصيدتي شوقي والزركلي، في الثورة، (سَلامٌ مِنْ صَبَا بَرَدَى أَرَقُّ) و (الأَهْلُ أَهْلِي والدِّيَارُ دِيَارِي)، فألقيتهما في جماعة الطلاب، ولما وصلت إلى قول خير الدين:

وَٱنْظُرْ إلى ٱلآلافِ مِنْ بُسَلائِهِمْ   يَغْزُوهُمُ مِئَةٌ مِنَ ٱلثُّوَّارِ

بلغت بي الحماسة مبلغها، فثرت وأثرت، وسمع المدير (جودة الهاشمي) رحمه الله، فجاء وأشار إليّ أن أتم، ووقف يسمع، ولم يأتني منه سوء، وكان ذلك في غمرة الثورة، والمعارك تقع من حول المدرسة، وربما دخلها الثوار أحياناً.

بقيت على هذه العزلة، إلى الصف الثاني عشر. فجئت يوماً، وكان اليوم الخامس عشر من شعبان، فَخُبِّرْتُ أن إخواننا الطلاب الليليين أرادوا الاحتفال بليلة النصف من شعبان، فمنعهم المراقب، فعصوه وشغبوا عليه، وسهروا محتفلين، فقرر طرد جماعة منهم ثلاثة أيام، منهم أخونا أنور العطار، ومرّ الخبر كأن لم يكن، ودخلنا الصفوف، وانتهى النهار ورحنا إلى دورنا، ولم نبال بما كان، لا أنا ولا غيري، لأن العقاب طفيف، والسبب هيّن، والاحتفال بليلة النصف من شعبان، لم يأمر به الدين، ولم تجر به السنّة.

ونمت في موعد منامي، لا أفكّر فيما كان في المدرسة، حتى إذا كان قبيل الفجر فإذا أنا أحسّ بفكرة تسيطر عليّ، بلغ من قوتها أن أيقظتني من منامي، هي أن أذهب إلى المدرسة صباحاً، فأنتظر قرع الجرس للدرس، فإذا قرع وقفت على واحد من هذه المقاعد التي تحيط بالساحة فخطبت خطبة مجلجلة أدعو فيها إلى الإضراب، أو يُعاد من طرد من الطلاب.

وبقيت قاعداً أرقب طلوع النهار. فما كاد يطلع حتى وليت وجهي شطر المدرسة. ولم يكن لي أب أستأذنه، وليس لي أخ أكبر مني أستشيره، فكنت أصدر عن رأي نفسي وحدها. ووجدت باب المدرسة مغلقاً، فمررت برفيقنا في الصف محمد الجيرودي (الأستاذ النقيب)، وكان يسكن في دار عند عيادة الدكتور بيازيد، فأمضيت عنده ساعة، وخضت في كل حديث، ولكني لم أعرج على ما في نفسي، ولا أشرت إليه، وذهبنا إلى المدرسة. فلما قرع الجرس، وهمّوا بالدخول، وقفت فخطبت، وهيّجت وحمّست ودعوت إلى الإضراب، فاستجابوا جميعاً، وما كان الفضل في الاستجابة لما ألقيت عليهم، بل لما كان من القوة في أنفسهم، فقد كانوا يلبّون إنْ دُعوا بهمسة يقولها قائلها ويختبىء، فكيف وقد دعوا (لأول مرة) بخطبة معلنة، يلقيها صاحبها ويقف؟

ذلك أنها كانت أيام نضال، كان يحكمنا فيها من ليس منا، وكانت الثورة السورية قريباً عهدها، وكانت الأمة كلها، كالجنود في الثكنة، ينامون على استعداد، ويقومون على استعداد، لا يسمعون نفخة البوق أو صوت الداعي، حتى يفزعوا إلى أسلحتهم، ويهبّوا سراعاً إلى صفوفهم، فلا ترى البلدة هادئة مفتحة أسواقها، حتى تسمع من كل دكان صوت الغلق ينحدر، وترى المظاهرات قد قامت، ودبابات الفرنسيين قد نزلت، والمعارك قد ابتدأت.

لم يكن (مكتب عنبر) في الحقيقة مدرسة، بل كان يومئذ مجمع الشباب المثقّف ولب البلد، ومصدر كل حركة وطنية، وكانت الاضرابات تُعَد في الخفاء لئلاّ يُعرف من دعا إليها فيعاقب. فلما رآني الطلاب أجهر وأعلن، لا اختفي ولا أتوارى، عجبوا مني وأُعجبوا بي، وصرت في لحظة زعيم المدرسة!

وجربت الإدارة الترغيب والترهيب، ولجأت إلى التهديد والوعيد، فخرج المعيد أولاً، ثم نزل المدير الثاني، ثم المدير الأول والأساتذة،

فكنت أرد على كل محاولة بخطبة جديدة، فوجدوا الأمر أصعب مما كانوا يقدرون ويعرفون، فخبَّروا الوزارة.

فجاء الوزير بنفسه، وكان أستاذنا الكبير كرد علي رحمة الله على روحه، فلما دخل علوتُ على المقعد الذي اتخذته منبري وناديته: يا معالي الوزير! فتجاهل ومضى قُدُماً، فأعدت النداء، فما وقف، فأسمعته كلاماً استوقفه، ثم حوّل وجهه إلي، فسمع مني وأجابني.

وكنت يومئذ في فورة القدرة على الخطابة والارتجال، لا أحتاج إلا إلى ابتداء الكلام حتى تنثال عليّ المعاني، وتزدحم الخواطر، وينطلق اللسان، يعبّر عنها ببليغ البيان، وكنت أعيش مع الأدب العربي الصافي، لم تفسد ملكتي هذه الأساليب الجديدة، وكنت فتيَّ الذاكرة، كثير المحفوظ، لم تضعف ذاكرتي الأيام، فكانت كل خطبة كأنها قطعة أدبية من الأسلوب الفحل، تفيض بالآيات والشواهد والأمثال. فضعف مع الأيام جناني، وكَلَّ لساني، ولم يبق مني الآن إلا ما يبقى من المصارع العجوز، ولا يدوم على ما هو إلا هو.

على أن فيَّ بحمد الله بقية (لا تزال) تسر الصديق، وتكبت العدوّ.

ودخل الوزير، فاجتمع بالمدير والأساتذة، ثم خرج شيخنا المبارك رحمه الله، فوقف على المقعد واستهل خطبته بقوله: (الآن أُعْطِيَت القوسُ باريها، وأسكنت الدار بانيها، فعودوا إلى دروسكم، وارجعوا عن غيّكم، وإني لكم ناصح أمين). وكان بين الطلاب فتى صغير اسمه نور الدين القاسمي، رحمه الله، أحسبه ابن عم للمؤلف، فصاح: لا ندخل، وردد الطلاب صيحته، فاهتاج المبارك وقال: يا كاظم، افتح الباب، وكان كاظم ألبانياً صالحاً ففتح الباب، وخرج الطلاب.

انطلقت العفاريت من القماقم، ونفذنا من القباقبية إلى المسكية، فباب البريد، فأخذت سلّماً صغيراً، كان أمام الدكان، فارتقيته وخطبت

في الناس. فوثبوا إلى الأغلاق ينزلونها، ويلحقون بنا، فلما وصلت إلى سوق الأروام خطبت، فأغلق التجار دكاكينهم ومشوا معنا، فما وصلنا إلى المرجة حتى كانت البلد كلها وراءنا، وصار كل طالب قائداً لجماعة من الناس، وكان من أوائل من أعانني ذلك اليوم رفيقنا حسن مراد (المحامي الكبير). لم أره من ثلاثين سنة، ولكني واثق أني حين أراه، ينهار هذا السدّ الذي أقامه بيننا الزمان، فأحسّ أني فارقته بالأمس، ولقيته الأن، وكذلك تصنع أُخُوَّةُ الصبا، ورفقة الصغر.

وقد كتب إليّ من سنين في ذيل بطاقة تهنئة بالعيد: (هل تذكر)؟ ولم أجبه لأني وجدت السؤال لا يحتاج إلى جواب.

هل أذكر؟ نعم أذكر يا أخي حسن، وهل تظنني أنسى رفاق صباي؟

وصرت أنا القائد لهم جميعاً، حتى بلغنا (السراي) وأحطنا بها كما يحيط الجيش المهاجم، بالقلعة المحصورة، وعلوت درج العمود التذكاري، فخطبت خطبة كلماتها من نثار الحِمَم، وأسلوبها من هبة العواصف، مجّدت فيها الحرية، ولعنت فيها الاستعمار، وأعدت فيها ذكر الثورة، وقلت ما يقوله شاب متحمس هائج، وهتفت هذه الحناجر هتافاً ارتجت منه الأرض، وزلزلت أركان القصر، فبرز من الشرفة رئيس الحكومة (وكان الشيخ تاج الدين) فتكلم مهدئاً واعداً، وتفرّق الجمع، واجتمع عليّ نفر من رجال الأحزاب والجماعات، كل يريد أن يجذبني إليه، ويجعلني من حزبه، ونصح لي ناصح أن أجتنبهم جميعاً، وأعود إلى دروسي وإلى عزلتي، وكيف تعود الصخرة التي كانت مستقرة في قمة الجبل إلى مكانها بعدما دحرجتها فهوت، من يستطيع ساعة انحدارها أن يقف سيرها، ويقوم في وجهها؟

لقد أسكرني هذا القرار فكدت أتدحرج فأنحدر في هذا الطريق، لولا أن تداركني الله فأراني عاقبته، لقد اغتررت بالحلاوة في أعلى

الكأس، فأذاقني الله طعم المرارة في أواسطها وفي قعرها.

لقد أمسكت بي الشرطة فأودعتني سجن النظارة، فإذا أنا منفرد في حاشرة (زنزانة) طولها متر وعرضها متر، وحيد فريد، ليس حولي من أخطب له، ولا من يصفّق لي، ولا أستطيع أن أضطجع فيها ولا أن أمد رجلي، وليس من حولي إلا جدران مغلقة ليس لها نافذة ولا معي فيها أحد، فكدت أجن، ورحت أصيح فلا يرد عليّ الحارس جواباً، وأضرب الباب حتى كاد يتمزق جلدي وتدق عظامي ولا أجد لذلك نفعاً - فقعدت أفكّر.

كنت في أول النهار، طالباً مغموراً، يمشي في جماعة الناس، لا يعرفه أحد فيضره أو ينفعه، فما جاء الظهر حتى صرت علَمَ البلد، وأضحيت ملء الأسماع والأبصار، فما أمسى المساء حتى كنت سجيناً ذليلاً، مسلوب الحرية، معرّضاً للأذى.

هذه هي حياة السياسيين المغامرين، يوم في الذروة ويوم في الحضيض، يأكلون (السبت) البقلاوة، ولا يجدون (الأحد) إلا الخبز اليابس.

إنهم كالذي يحتل مقعداً في الصف الأول من المسرح، إنه أكبر، والمنظر منه أجمل، ولكن ليس له رقم، ووراءك من ينتظر غفلة منك لينتزعك منه، ويقعد فيه دونك، أفليس خيراً منه مقعد في زاوية، (مرقم) لا ينازعك فيه أحد، تقوم منه وأنت واثق أنه لك تستطيع أن ترجع إليه.

وقررت في تلك الساعة، أن أجتنب حياة السياسيين، وألا أشارك فيها إلا من بعيد، ونفذت هذا القرار.

* * *

وبعد، فلقد كتبت هذا الذي قرأتموه من المقدمة وأنا في دمشق،

في بلدي، بين أهلي وولدي، وأنا رخيّ الحال، ناعم البال، أكاد من فرط الراحة أشكو الملال، وهأنذا أختمها وأنا بعيد، بعيد بجسدي عن دمشق، تفصل بيني وبينها بوادي الحجاز ورمال نجد، بعيد عن مكتب عنبر، تفصل بيني وبين أيامه سنون طوال، تكاد بعد قليل تبلغ الأربعين...

... فأين أنت يا مكتب عنبر؟ رحم الله أيامك.

أين أنت يا عهود الصبا، ويا مراتع الأحلام؟ تعالي انظري ماذا صنعت الأيام بتلك الأحلام.

ولقد زادني شجناً على شجن، صفحةُ الإهداء التي بعث بها إليّ أخي المؤلف الأستاذ ظافر.

إنك لا تدري يا أخي ظافر ماذا صنعت بي هذه السطور.

لقد انتزعتْ قلبي من صدري، فعادت به إلى بيوت دمشق، يا أسفي على تلك الجنات، على تلك (الصحون) التي يبسم في أرضها المرمر، ويضحك في (أحواضها) الزهر، ويتربع في جنباتها الشمشير، وتتخطر من حول بركتها صبايا الليمون والنارنج، ولها من ثمرها مثل نهود الصبايا، والياسمين المطيف بأغصانه من حول الإيوان، والمَلِّيسا المتعلقة خشية السقوط بالجدران، والدوالي التي تتمدد على السطوح، تعمل النهار، تستمد من حرِّ الشمس ما ينضج الثمر، وتستريح الليل لتحلم في ضوء القمر...

على تلك (المربعات) و (القاعات) و (الفرنكات) و (المصبات)، على ذلك الفنّ الشامي الأصيل، الذي قفز من فوق البحر، فوصل الشاطىء الغربي في إسبانيا، بالشاطىء الشرقي في الشام، وحمل عبقرية العمران، إلى بلاد المغرب والإسبان، فامتلأ بسحرها كل مكان، وبقيت فيه إلى الآن...

على دارنا وداركم، على (مكتب عنبر) الذي كان جنّة من جنّات

الشام. وما كلفي من تلك المنازل بأرضها وجدرانها، ولا بسقوفها وأركانها، ولا بصحنها وإيوانها، ولا بوردها وريحانها، ولكن لهفي على من غَبَر من سكانها...

تلك يا أخي مرابع صبانا، وأين مني تلك المرابع؟ سقى الله أيامها، أين، وبيني وبينها البيد والصحارى، وبيني وبينها عمر، تقضّى أكثره ولم يبق منه إلا الأقل، وحياة كان أجمل ما فيها تلك الأيام العذاب؟

هذا يا أخي المكان، فأين السكان؟ أين أهلي وأهلك، أين مجلس أبيك في قاعة درسه، ومجلس أبي؟ أين المدرّس وأين التلاميذ؟ وأين أولئك النساء، أين صخب حديثهن، وقرع قباقيبهن على مرمر الدار، وتجاوب ضحكاتهن في أرجائها؟ أين الأولاد ومرحهم وعدوهم، وتراشقهم بماء البركة، وتسلقهم عرائش الدوالي؟

لقد تفرّق الشمل المجتمع، وخلا المكان المزدحم، لقد أخذتهم يد الموت واحداً بعد واحد.

و (بقيتَ وحدك بعدهم، تعيش في الماضي على قصره، أكثر مما تعيش في الحاضر على طوله).

مَا في الدِّيار مُخَبِّرٌ   إلاّ صَدىً لِمُصَوِّتِ
نَادَيْتُ أَيْنَ أَحِبَّتِي   فَأُجِبْتُ: أَيْنَ أَحِبَّتِي

هل تصدق يا أخي ظافر أني وقفت عند هذه الجملة من صفحة الإهداء ساعة كاملة، معجباً مفكّراً معتبراً.

ذكرتَ من مضى من أهلك، فأذكرتني من مضى من أهلي، وحننت إلى ماضيك، فأثرت في نفسي الحنين إلى ماضيّ، فجمعت عليّ غربة المكان وغربة الزمان، وحملت روحي إلى دمشق، واعدتني إلى

أيامها المواضي، فتركتني أعيش في نجد جسداً بلا روح، وأحيا في الحاضر شبحاً بلا قلب.

ولا غرو فالأسى يبعث الأسى، كما يقول الشاعر العربي ابن نويرة، وكل من في المآتم يبكي، ولكن يبكي على أمواته كما يقول الفيلسوف الإنكليزي سبنسر.

قولة الحق يا أخي ظافر، لقد كنت موفقاً في تأليف الكتاب، وكنت عظيماً في كتابة (الإهداء)، وأنت أوفى ابن عظيم لأبيه، وتلميذ معهد لمعهده. ولئن بقيت وحدك بعد الأب والأم، والأخ والعم، فلقد بقوا كلهم فيك، وما يتقوَّض بيت كنت عميده ولو ذهب عميده، ولقد لبث بيتهم بك مفتوحاً، وذكرهم بك سارياً، وعزّهم بك قائماً، وما مات من خلّف مثلك، رحم الله أباك الرجل العظيم، وأخاك النابغة المجاهد، وعمّك الفاضل النبيل، وأطال عمرك، ونفع بك، وأمتع بأدبك.

علي الطنطاوي

لغة القانون في البلاد العربية

للدكتور عدنان الخطيب

ما أدري أأتكلم في هذه المقدمة عن الكتاب أم عن المؤلف، أما المؤلف (الأستاذ عدنان الخطيب)[1]، فهو في غنى بفضله عن التعريف به، وهو إن عُدّ القضاة العادلون، الذين لم تتعلق بضمائرهم ريبة، ولم يرق إلى قضائهم مطعن، كان من هؤلاء القضاة العادلين، وإن عُدّ الباحثون المحققون كان من الباحثين المحققين، وإن عُدّ أهل الجرأة والرجولة والخلق كان فيهم من السابقين المجلّين.

وأما الموضوع، فهو الغاية التي يلتقي عندها الأدب بالقانون ولا يطيق الخوض فيه إلا من رزقه الله حظاً منهما وتوفيقاً فيهما، وهو ركن ركين في صرح الأمم، إن انهدّ أو مال، لم يسند مَسْنده ركن، لأن اللغة عماد كل أمة، وسنادها، والقضاء أول ما تعقد عليه خناصرها، إذا عدّت مفاخرها، فكيف إن اجتمع الأمران، واتحد الخيران، وكان لقضائنا الصحيح، أسلوب فصيح؟

وليس يصح لسان القضاء، إن اعتلت لغة القانون، وركبتها الأمراض، أو كان قانوناً أبكم لا يفهم قارئه مراد واضعه، لذلك كان حسن صياغة القانون من حسن وضعه، وكان بيان الفقيه من تمام فقهه.

ولقد كان الفقهاء في الصدر الأول هم الصحابةَ والتابعين، وكان الزمان مقبلاً، واللسان فصيحاً، والرواية كثيرة، واللحن قليلاً، فكانت فتاواهم وكانت أقوالهم، آيات بينات في دقة الحبك، وقوة السبك، وجمال اللفظ، ووضوح المعنى، حتى كانت تحفظ كالحِكَم، وتنقل كالأمثال. ثم جاء أئمة المذاهب وقد صقل ألسنتهم الكتاب، وهذبتها أحاديث الرسول صلوات الله عليه، وأقوال الصحابة والتابعين، فكانوا أدباء كما كانوا فقهاء، وهذه كُتبهم التي بقيت: موطأ مالك، وكتب

---

(١) ولد الأستاذ عدنان بن عبد القادر الخطيب بدمشق سنة ١٩١٤ وتوفي ٢٥/٩/١٩٩٥ رحمه الله تعالى (مَجد).

محمد (التي شرحها السرخسي في المبسوط) والأم للشافعي ورسالته، ومسند أحمد ومسائله، وهذا كتاب الأموال لابن سلاّم، والخراج لأبي يوسف. اقرأوا مقدمة الخراج مثلاً، تروا قطعة أدبية من النسق العالي، الذي يعرفه من يقرأ آثار أعلام الترسل، وأئمة البيان من أمثال أحمد بن يوسف وابن مسعدة، ومن قبلهم ابن المقفع وعبد الحميد، بل إن نفَس أبي يوسف في هذه المقدمة لأصفى من ذلك كله، وديباجته أنقى، والطبع فيها أظهر.

واستمرت لغة الفقه (وهو القانون عندنا) تسير مع القافلة العامة تقدماً ووقوفاً، وعلواً وهبوطاً، حتى أدرك الحياة الإسلامية عصر خمول وتقهقر، شمل مظاهر الحياة كلها، منذ القرن الثامن الهجري، منذ غلب الأتراك وأمثالهم من الأعاجم على البلاد، ففشا اللحن، وغلبت العجمة، وكان من أثر ذلك في لغة الفقه هذا الأسلوب العجيب في التأليف؛ الإيجاز في المتن إلى حد الإخلال، ثم الاستطراد والتطويل في الشرح والحاشية والتقرير إلى حدّ الإملال، وتقطيع المسائل، وتجزئة البحث، والقفز من موضوع إلى موضوع لأضعف المناسبات، فكانت المراجعة في كتب الفقه المتأخرة، والوصول إلى المسألة من خلال هذا الطم والرم من الاستطرادات اللغوية والفقهية والتاريخية، كان ذلك عملاً من أشق الأعمال.

فلما انبلج صبح النهضة من نحو مائة سنة، وأفاق العرب، وهبّوا يغْدون في طريق الحضارة، ليدركوا ما فاتهم في ليلهم الطويل، لم يتجهوا (مع الأسف) شطر الماضي ليقيموا الغرف الجديدة والشرفات والأبهاء في هذا الصرح العظيم، الثابت الأساس، المتين الدعائم، بل انصرفوا إلى بناء أكواخ (يشحدون) لبنها وجذوعها من الغرب... ولعل تبعة ذلك عَلَى العلماء الذين فرطوا كما قال ابن القيم رحمه الله في طرقه[1] في اعتبار السياسة الشرعية فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق،

---

(١) الطرق الحكمية صفحة ١٣.

وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد ظناً منهم منافاتها لقواعد الشرع، ولعمر الله لم تناف ما جاء به الرسول وإن نافت ما فهموه من شريعته باجتهادهم، فلما رأى ولاة الأمور ذلك وأن الناس لا يستقيم أمرهم إلا بشيء وراء ما فهمه هؤلاء من الشريعة أحدثوا من أوضاع سياستهم (أي قوانينهم الجديدة) شراً طويلاً، وفساداً عريضاً، فأخذوا القوانين الجزائية والتجارية وقوانين الأصول من أوربة، فترجموها بأضعف الأقلام، وعرضوها بأقبح الأزياء، ولكنهم لما وضعوا المجلة (وهي القانون المدني) جاءوا بها بأسلوب هو في الجملة صالح، ذلك لأن الأحكام الشرعية على ضعف ملكات المتأخرين من المؤلفين فيها، لا تزال تملك بقايا البيان الذي أسبغه عليها الأئمة الأولون ـ رحم الله الجميع ـ.

وكانت المصيبة في القائمين على أمر الأمة من بدء النهضة إلى اليوم، أن أكثرهم يسيء الظنّ بكل شرقي، ويحسب أن الشرق الذي لبث نائماً حتى سبقه الغرب لا يأتي منه إلا أسباب النوم، ودواعي الخمول، مع أن لدينا ذخائر وأعلاقاً لا تقوّم بثمن، لا سيما في باب البيان، وما أظن أن في الدنيا أمة عنيت بلغة القوانين مثل عنايتنا، ولا اشتغلت به مثل اشتغالنا، حتى صار لدينا علم خاص بتنظيم لغة القانون وبيان ما تفيده كل كلمة فيه، وكل حرف واحد منه، وما يفهم منه، وما ينتج عنه، هو علم الأصول، ولكن من بيدهم أمر وضع القوانين لا يعرفون علومنا، ولا وقوف لهم عَلَى فقهنا، والفقهاء العالمون منا، لا خبرة لهم بوضع القوانين ولا مقدرة لهم عليها، لذلك كانت هذه الهوّة بين تشريعنا القومي (الفقه) وتشريعنا الرسمي (القوانين)، ولذلك انتهينا إلى حال تضحك من غرابتها، وتبكي من سوء عاقبتها، وهي أننا تركنا ثروة تشريعية لنا ليس لها مثيل، ورحنا نسأل الناس قانوناً أو شبه قانون، صدقة من مال الله!

إنها ثروة ليس لها مثيل حقاً، لا الحقوق الرومانية ولا الحقوق

الفرنسية، ومن شك فليرجع إلى المبسوط (الحنفي) أو المجموع (الشافعي) أو المغني (الحنبلي) أو إلى الرهوني[١] (المالكي) أو إلى المحلى (الظاهري) أو إلى مثل (إعلام الموقعين) و (الطرق الحكمية).

ولم تكن الحالة في مصر خيراً مما كانت عليه في سائر البلاد العربية التي كانت تحكم بالتشريع العثماني. فقد كانت بداية هذه القوانين الجديدة فيها قانون ديوان القضايا الذي أصدره نابليون لما غلب على مصر، وقال فيه الجبرتي: وفي ربيع الثاني سنة ١٢١٣ هـ شرعوا في ترتيب ديوان سموه ديوان القضايا وكتبوا في شأنه طوماراً كبيراً إلخ... بتعبيرات سخيفة لا يفهم منها المراد إلا بعد التأمل الكثير لعدم معرفتهم بقوانين التراكيب العربية. وجاء بأمثلة عَلَى ذلك تضحك المفجوع.

وتتابعت القوانين في مصر، وكلها من هذا النمط، وما زال المصريون يشكون منها، ويعملون عَلَى إبدالها حتى أصدروا القانون المدني الجديد سنة ١٩٤٨، وظنوا أنهم فتحوا فيه فتحاً في البيان، وجاءوا بمعجزة في البلاغة، وكتب عنه السنهوري باشا[٢] مشيداً بلغته، مثنياً عَلَى أسلوبه الذي (بريء من ذلك الضعف في التعبير، وتلك الركاكة في الأسلوب)! وهذا حق إذا قيس بتلك اللغة التي لم تكن عربية ولا أعجمية، ما كانت إلا كلغة جزيرة مالطة، ولكنه إذا قيس بما كان عليه الفقهاء الأولون، وبما ينبغي أن تكون عليه لغة القانون، كان فيّاضاً بالتعقيد والغموض واللحن والركاكة وإهمال المصطلحات الفقهية الإسلامية التي صقلتها الألسنة وأساغتها الأسماع ثلاثة عشر قرناً، على جهل بها، أو زهد فيها.

ثم جئنا نحن فأخذناه بكل ما فيه من خير وشر، وكمال ونقص،

---

(١) الرهوني، هو محمد بن أحمد بن يوسف الرهوني ت (١٢٣٠) له حاشية على شرح الزرقاني ت (١٠٩٩) شرح مختصر خليل في الفقه المالكي، أما بقية أسماء الكتب التي ذكرها أستاذنا فمشهورة معروفة (مَجْد).

(٢) الوسيط في مصادر الالتزامات، القاهرة ١٩٥١ م.

لم نبدل فيه شيئاً، حتى المصطلحات أخذناها كما هي مع أن بعض مصطلحاتنا خير من بعض مصطلحات الإخوان في مصر. وكان مقتضى الرغبة في توحيد لغة القانون في البلاد العربية أن نأخذ منهم ويأخذوا منا، ويكون المدار على الأصلح لا عَلَى شامي نأخذه عصبية للشام، ولا عَلَى مصري يتمسكون به عصبية لمصر، لأن العلم ليس فيه عصبيات.

وإني لآخذ عَلَى سبيل المثال على فساد صياغة هذا القانون، الباب الثالث (الأوصاف المعدلة لأثر الالتزام) وما اخترته اختياراً ولكني فتحت والله القانون، فاتفق لي اتفاقاً، فرأيت فيه ما أنبه هنا إلى بعضه:

١ ـ إن كلمة (مترتباً عَلَى...) التي جاءت في المادة (٢٦٥) والتي أولع بها واضع القانون ليس هذا موضع استعمالها، ولا تصلح لهذا المعنى إلا في لغة العامة.

٢ ـ إن المادة (٢٦٦) عرضت لذكر ما سماه واضع القانون بالشرط الواقف، والشرط الفاسخ، وكان عليه أن يعرف بهما في مادة مستقلة قبل هذه المادة، بدلاً من تعريف التعليق على الشرط في المادة (٢٦٥) وهو معروف لم تزد المادة القارىء معرفة به.

٣ ـ إن المادة (٢٦٦) قررت أن الالتزام لا يكون قائماً إلخ... ثم عادت فقالت (هذا إذا كان...) ثم عادت فاستدركت (أما إذا كان فاسخاً...) ثم عادت فقالت (ومع ذلك لا يقوم...).

فكانت نادرة في التمثيل على اضطراب الفكر، وتجزئة الحكم، وركاكة العبارة.

٤ ـ قوله: (أما إذا كان فاسخاً فهو نفسه الذي يعتبر غير قائم) فيه غموض فما هو نفسه الذي يعتبر غير قائم؟ الشرط؟ إن في ذلك تعقيداً شديداً، كان يدفعه لو عمد إلى الإظهار مكان هذا الإضمار.

٥ ـ وإن كان الشرط الفاسخ أو بعض الشرط الفاسخ هو الذي

يبطل، فكيف قرر في المادة (٢٦٩) أنه يترتب على الشرط الفاسخ زوال الالتزام؟ هل يبطل الشرط كما قرر هناك، أم يبطل به الالتزام كما قرر هنا.

٦ ـ إن المادة (٢٦٧) لَغْوٌ لا داعي لذكره، لأنه لا يختلف اثنان في معرفة الحكم الذي اشتملت عليه.

٧ ـ إن تكرار (واقفاً) و (متوقفاً) في هذه المادة من أعجب مظاهر العيّ في اللسان، والركاكة في الأسلوب.

٨ ـ الأصل أن ألفاظ القانون تقدر بقدر المقاصد فلا يكون لفظ منه إلا وله مدلول، فما الفرق بين قوله في هذه المادة (إرادة الملتزم) و (محض إرادته)؟ إن كانا شيئين فما هما؟ وإن كانا شيئاً واحداً فلِمَ جاءت هذه (المحض)؟

١٠ ـ ولو كلفت إعراب هذه الـ (ما) والـ (إنما) والـ (مع ذلك) في هذه المادة وفي غيرها، لقلت إنها (أدوات تشويش وتعقيد لا محل لها في أسلوب صياغة القوانين).

١١ ـ تعريف الأجل في المادة (٢٧١) من أعجب ما يبلغه بصاحبه الولع بالتعريفات، والشغل بتوضيح الواضحات، ولا سيّما قوله فيها (ويعتبر الأمر محقق الوقوعِ متى كان وقوعه محتماً) وهذا عَلَى وزن. . . قول الأول:

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

١٢ ـ وما الفرق بين (المقدرة والميسرة) في المادة (٢٧٢)؟

١٣ ـ وفي هذه المادة قوله: (مقتضياً منه. . .) وهي إحدى أغلاط القانون اللغوية، أما تتمة العبارة ودخولها في متن القانون بهذه الصيغة فمن أعجب العجب.

هذا وأنا لم أتكلم إلا عَلَى ثمان مواد فقط من العشر، فكيف لو

تكلمت عَلَى القانون كله؟ إِذن لألَّفت في نقد لغته كتاباً في حجمه!

إن الواجب على من في أيديهم مقاليد الأمور أن يفتشوا عمن يترجم لهم هذه القوانين إلى لسان العرب وإذا كانوا قد فرضوا علينا ـ ونحن أغنى أمة في الدنيا في التشريع ـ أن (نشحد) القوانين ممن (شحدها) من فرنسا وغير فرنسا فلا أقل من أن يحفظوا علينا لغتنا، فلا نكفر بها كما كفرنا بتشريعنا، وأن ننقل هذه القوانين إلى لساننا لا أَن ننتقل نحن إليها، ونفكر برؤوس أهلها، ونتكلم بألسنتهم، ونلبس جلودهم.. ونكون أدعياء فيهم فلا نحن نبقى عرباً مسلمين، ولا نصير فرنسيين ولا أميركيين، وإنما نهدم بيوتنا بأيدينا وأيدي (الآخرين)!

اللهم إنا نعوذ بك من الخذلان، ومن الكفر بعد الإيمان!!

علي الطنطاوي

قاضي دمشق

من مكتبة المسلمون



سعيد رمضان



تقديم

أنا واثق أننا نمشي إلى الصلاح، وأن ليلتنا السوداء التي طالت حتى حسبنا أن ليس وراءها صباح، قد تصرَّمت، وأنَّ تباشيرَ الفجر قد بَدَت، وأننا لا نزال من أربعين سنة إلى اليوم نتقدم صُعُداً، نبتعد عن الهُوَّة التي تردَّينا فيها منذ ابتدأت في الشرق عصور الانحطاط، وأننا في نهضة إذا لم تكن نهضة كاملة، فإنها نهضة شاملة كل أقطار الإسلام، تختلف من قطر إلى قطر، قوة وضعفاً، وظهوراً وخفاءً، ولكنها نهضة على كل حال.

ومن آياتِ ذلك هذه الفَوْرة المباركة في معين التصنيف الإسلامي، وأنا في سنة ١٣٤٨ للهجرة كنت أنقد في (رسائل الإصلاح) التي أخرجتها يومئذ، قعودَ العلماء عن التأليف، وخلوَّ المكتبة الإسلامية إلا من هذه الكتب المكتوبة بأسلوب ليس فيه من البيان قليل ولا كثير، الموضوعة على صورة لا يتصور العقل أعجب منها، ولا أبعد عن طبائع الأفهام، وأذهان المتعلمين: (متن) مصوغ صياغةَ البرقيات التي تدفع فيها أثمان الكلمات، فهو أشبه بالرموز والأحاجي، و (شرح) لا يكاد يوضح غامضاً، ولا يسهِّل صعباً، و (حاشية) مهوشة مضطربة، مقطعة الأوصال، متعددة الموضوعات، مملوءة بالاستطرادات، و (تقرير) على الحواشي، هو أسوأ من الحواشي. تضيع حقائق العلم في هذا اللتّ والعجن[1]

(٣) اللّت والعجن من العامي الفصيح.

حتى يصير أقصى جهد المتعلم فهم الكتب لا إدراك العلوم...

... وهأنذا في سنة ١٣٧٤ أي بعد ست وعشرين سنة فقط أكاد أشكو من كثرة الكتب الإسلامية الجديدة، وأن وقتي لا يتّسع للنظر فيها فضلاً عن قراءتها والكتابة عنها. مكتبة ضخمة اشتركت فيها أقلام عربية وغير عربية، من المغرب الأقصى إلى باكستان والهند، ومنشورات هائلة يتسابق الناشرون إلى طبعها لأنها أروج الكتب اليوم على الإطلاق، لذلك أقبل عليها الكتاب المحترفون الذين كانوا يَدعون من قبل إلى الفرعونية أو الفينيقية، والذين كانوا يجانبون الإسلام ويجاهرونَ بعدائه، والدور التي كانت بمجلاتها الداعرة الفاجرة تعمل على محاربةِ الإسلام حرباً خَفِيَّة منظَّمة بالصور والأخبار والسموم، صارت هي أيضاً تنشر الكتبَ الإسلامية، وتهديها إلى قُرَّائها، لا لأنَّ الله هداها بعد ضلال وأراها الحق بعد طول العَمَى، بل لأنَّ التاجر يسوق إلى السوق ما يروج فيه.

لقد صارت لدينا كتب جديدة في التفسير وفي الحديث، وفي الأصول وفي الفروع، وفي الأدب، ولا بدّ لي من أن أسجل في هذه المقدمة أسماء من يخطر على بالي الآن أسماؤهم من روّاد هذا المنتجع المبارك، كالخُضَري، والنجار، والرافعي، ومحب الدين الخطيب، وشكيب أرسلان، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وعبد الوهاب خَلاف، وأبو زهرة، وعلي الخفيف، ومصطفى الزرقا، والمحمصاني، وسيد قطب والمودودي (فك الله إِسارهما، ورفع أيدي الظالمين عنهما وعن سائر الإخوان)، والندوي، وأنْ أخصّ بالذكر مجلات كان لها العمل على تنبيه الأذهان، وتنشيط الأفكار والإقبال على علوم الإسلام، كالمنار، والفتح، ومجلة الأزهر، والشهاب، والمسلمون.

و (المسلمون) هي المجلة التي أنشأها صاحب هذه الخواطر التي يقدمها اليوم إلى القراء، الأستاذ سعيد رمضان، والتي كنت أجدها في كل مكان فيه مسلمون، في باكستان، والهند، وأندونيسيا، وسنغافورة،

وسيام، وبورما، ولقد حدثني عنها ولخص لي مباحثها رجال من هذه البلاد كلها ما كنت أظن أنهم يقرؤون كتاباً عربياً. . ولا بد لي من كلمتين موجزتين إيجاز تلك المتون، كلمة في الخواطر وكلمة في صاحبها.

أما هذه الخواطر، فهي ديوان الكلمات التي كان ينشرها الأستاذ سعيد في المسلمون، ويترجم لها[1] بعنوان (خاطرة) ولا يجاوز فيها على الغالب الصفحة من صفحات المجلة. وهي كلمات فيها على اختصارها أفكار عميقة واضحة، مكتوبة بأسلوب صحيح، وإن خلا من زخارف البيان، تنبع كلها من معين الدعوة الإسلامية، وأنا أرجو أن يستفيد منها الشباب فائدتين، يأخذون أولاً ما فيها من العلم ويعملون به، ويحاولون ثانياً أن يقتبسوا منها أسلوب تقييد الخواطر التي تخطر لهم. فإن كل متعلم تخطر على ذهنه إذا قرأ كتاباً، أو سمع حديثاً، أو تأمل في الوجود، خواطر إنْ قَيَّدَها وحبسها بَقِيَت ذكراً له، وذخراً للناس، وإن أهملها لحظة مرَّت كما يمرُّ سرب الطير أمام الصيَّاد، يغفل عنه لمحة فلا يستطيع أن يصل إليه أبداً. ولقد عني العلماء والأدباء قديماً وحديثاً بتقييد هذه الخواطر، ومن أجمل ما قرأتُ للقدماء من ذلك الكتاب العظيم للإمام العظيم، (صيد الخاطر) لابن الجوزي، ومن أجمل ما قرأت للعصريين (شوارد) لعبد الوهاب عزَّام.

وأما صاحب (الخواطر) الأستاذ سعيد رمضان، فهو في الواقع أعرف من أن يُعَرَّف، لأنه استطاع على شبابه أن يترك في كل بقعة من دنيا الإسلام ذكراً. فله في باكستان وأندونيسيا من الاسم والمكانة مثل ما له في مصر والشام، وهو أُعجوبة في نشاطه لا أعرف في الدعاة جميعاً من هو أكثر منه نشاطاً.

---

(١) الترجمة هنا: العنوان.

ولقد كنا معاً في الحج هذا الموسم، فكنت أعجز عن تتبع حركاته فضلاً عن أن أشاركه فيها.

وهو يستطيع أن يلقى مائة فرد أو جماعة في اليوم الواحد، ويكون له معهم مائة حديث، ويستطيع أنْ يصل الفجر بموهن[1] الليلة التي تليه. وهو في حديث دائم وعمل مستمر، وينسى لذلك طعامَه ومنامَه، ولا أدري متى يجد الوقت لإعداد المجلة والتفكير فيها، ومتى يكتب مقالاته ويقيِّد خواطره!

فإذا وجدتم في هذه الخواطر أثر السرعة في الكتابة، ولحظتم أنَّ الأستاذ سعيد كان يقدر أن يجعلها خيراً مما هي، فاعلموا أنَّ سبب ذلك أن الأستاذ سعيد لا يجد الوقت الذي يراجع فيه ما يكتب.

هذه كلمة في تقديم هذه (الخواطر)، لا حاجة إليها، ولا لزوم لها، ولكن هكذا أرادت المسلمون، ولقد كتبتها على عجل في ساعة لا الفكر فيها مساعد، ولا النفس مواتية، وأنا أرجو أن يجد لي القراء من العذر فيها ما وجدت للأخ الأستاذ سعيد رمضان.

علي الطنطاوي

---

(١) الموهن: نصف الليل.



إحياء سنن الإسلام وقواعده

للأستاذ

محب الدين الخطيب

« المحرم ١٣٧٤ »

مقدمة

للأستاذ علي الطنطاوي

عضو محكمة التمييز

لو كان الأستاذ محب الدين الخطيب، من هؤلاء الرجال الذين دخلوا ميدان الدعوة منذ أمد قريب، وكان بيني وبينه ما يكون بين المرء ورفيقه الذي لقيه مرّات، فعرف طرفاً من أخباره، وكشف طرفاً من نفسه، لكتبت كلمة طويلة في التعريف به، ولم أجد فيها مشقة ولا حرجاً. ولكن الأستاذ محب الدين أكبر قائد اليوم في الجبهة الإسلامية، ووراء الأستاذ محب الدين ماض في الجهاد طويل، يمتد أكثر من خمسين سنة، كله عمل ونضال ودعوة وتوجيه، وصلتي بالأستاذ محب الدين، صلة الولد بأبيه، والتلميذ بأستاذه، فهو خالي، وهو أستاذي في الحياة، وهو الذي يحتل من نفسي منزلة ليست لأحد غيره، وأنا أعرف عنه ما يملأ كتاباً، لذلك وجدت من المشقة والحرج في كتابة هذه الكلمة مالا أجد مثله لو ألفت ذلك الكتاب.

* * *

وأنا منذ بلغت السن التي يميز فيها الطفل، ويفهم الكلام، كنت أسمع أن لي في مصر خالاً، هو شقيق والدتي رحمها الله، وأبوها بعد أبيها، وكنت ألمس لمس اليد ظاهر حبها إياه وشوقها إليه، فيعديني هذا

الحب، كما أعدى الحسن في قصيدة البحتري... ولما تعلمت الكتابة، كتبت إليه أول رسالة، نسختها من كتاب (الإنشاء العصري)، ولم أزد عليها شيئاً إلا الاسم فقد كان موضعه في الكتاب خالياً، فوضعت فيه اسم خالي، وإلا التاريخ، فتلقيت منه جواباً، بخط لا أجد أحداً يكتب مثله، خط مفرد في بابه، فيه روح أحسست من ذلك اليوم أنها روح جديدة، وفيه معنى كريم شعرت به وإن لم أفهمه، وقد كان لهذه الرسالة التي مر عليها الآن أربعون سنة وبعض السنة (ولا تزال عندي) أكبر الأثر في نفسي.

ثم بدأت أفهم ما لا يفهمه الطفل الصغير، فعلمت أن خالي كان من أقدم من نادى بالدعوة إلى العربية التي أراد الاتحاديون القضاء عليها، إن لم يكن أقدمهم، وأن نشاطه ظهر وهو في مكتب عنبر (وقد بقي إلى أيامنا، وكان الثانوية الوحيدة في دمشق)، وكان يجمع مالم يجمعه قبله أحد: الثقافة الإسلامية التي كان يحتكرها المشايخ، والثقافة الجديدة التي كان يستأثر بها الأفندية وتلاميذ المدارس، وأنه كان يتصل بالشيخ طاهر الجزائري (باعث النهضة الفكرية في الشام)، ويلتقي عنده بالكبار من أصحاب الشيخ، ويحمل إليه ليلتقي به، الصغار من أصحابه هو، فكان واسطة العقد الذي يضم النابهين من الشيب والشبان، ثم انتقل إلى استنبول للدراسة العالية، فاتسعت دائرته، وازداد نشاطه، وتكونت به ومعه عصبة من الشباب صاروا بعدُ أعلام العرب وزعماء الأقطار العربية، منهم من مضى في قافلة الشهداء، ومنهم من بقي في الأحياء. وضاق به الأتراك الحاكمون وضاق بهم، فانتقل إلى أقصى بلاد العربية، إلى اليمن، ومشى إلى العراق. وشارك في الحركات العربية في كل مكان. وأسره الإنكليز أيام الحرب الأولى. وكان مع الملك حسين يحرر (القبلة). وسافر إلى مصر فأسس فيها مكتبة وداراً للنشر، ثم قدم دمشق مع الشريف فيصل سنة ١٩١٨، وهناك لقيت خالي الذي أحببته وتتبعت أخباره قبل أن ألقاه.

ولو أني وجدت مجال القول لقلت لكم ما أيام فيصل في دمشق، وماذا كان أثرها في نفوس الشاميين الذين لقوا من الاتحاديين الألاقي، وحملوا أيام الحرب الشدائد، وماذا كان عمل محب الدين فيها، ولكن لا مجال لتفصيل المقال فحسبكم أن تعلموا أنها كانت أيام ثورة على الأتراك، وفورة في النفوس، وحماسة لهذه الدويلة الناشئة، ولهذا الجيش الوليد، وأن محب الدين كان أنشط شخص في هذه الدولة بلا استثناء، وكان لولب كل حركة شعبية ورسمية، وإن كان رسمياً (مدير المطبوعات) فقط.

ولما كانت نكبة ميسلون حكم عليه الفرنسيون، ففر على الإبل إلى مصر، وهنالك بدأ محب الدين أزهر مرحلة من مراحل حياته، وأنفعها للناس، وأرضاها لله، فقد وجد مصر، ليس فيها من ينادي بالعروبة أو بالإسلام، وأنها كان فيها الأزهر منزوياً منطوياً على نفسه، وفيها صحافة تجانب الدين وأهله فأنشأ جريدة الفتح، وكانت أول صوت ارتفع في مصر، بل وفي بلاد العرب كلها، يدعو إلى الإسلام، وكونت الفتح مدرسة إسلامية، كان تلاميذها منبثين ما بين فاس ومراكش، والهند وجاوه، وكانت مجلة عالية حقاً، وكان يكتب فيها كاتب الإسلام الأكبر الأمير شكيب، وأديب الإسلام الأكبر الرافعي، وكانت لها مواقف تواجه فيها الدول المستعمرة وتقف فيها موقف المحارب ويكتب لها النصر عليها، منها موقفها العظيم يوم الظهير البربري وجهادها في سبيله حتى أبطل، ومواقفها المناصرة لجهاد الأمير عبد الكريم ولسوريا والعراق وتونس والجزائر، ولكل حركة في بلاد الإسلام، وهي التي عرفت العرب بإخوانهم في الهند وفي جاوه (أندونيسيا) وفي الصين.

وفي دار الفتح (المطبعة السلفية) ألفت جمعية الشبان المسلمين، وفي مدرسة الفتح تخرج الإمام حسن البنا، وقد عرفته

في دارها قبل أن يدعو دعوته الخيرة، سنة ١٩٢٧، وقد صرح رحمه الله بما يدل على ذلك في كثير من مقالاته، وفي غير موضع من (مذكراته).

أما قلم محب الدين فهو قلم المترسل البليغ العالم المطلع، المحقق المدقق، وقد ظهرت ثمرات هذا القلم من أكثر من نصف قرن، ولا تزال تتوالى، وقد كتب آلاف الصفحات في الأهرام وفي القبلة وفي المنار وفي الفتح وفي الزهراء، وفي جريدة الإخوان (وقد كان رئيس تحريرها مرة) وفي الأزهر (وهو رئيس تحريرها اليوم)، وحقق عشرات من الكتب وعلق عليها أنفع التعليقات.

وليس محب الدين من الشيوخ الذي يفخرون بسبقهم وحده، وماضيهم فقط، بل هو لا يزال في الطليعة، كما كان دائماً في الطليعة، وقد جاوز (مد الله في عمره) السبعين، ولا يزال شاب الجسم والقلب والحماسة. وهو اليوم أعلم المسلمين بالمسلمين، وهو الحجة في الشؤون الإسلامية، وهو المرجع في تاريخ القضية العربية، ووثائقها الأصلية عنده، في ثلاث خزائن، ولا أدري متى توفق سوريا أو إحدى الدول العربية الأخرى لتكليفه كتابة تاريخ القضية العربية، فليس فيما كتب عنها إلى اليوم ما يعد تاريخاً صحيحاً وافياً. ثم يشتري أحد المجامع العلمية العربية هذه الوثائق ويحفظها للقرون القوادم، ويجزي محب الدين الذي حفظها وأدّاها، ما تجزي به الأمم أمثاله من كبار الرجال.

وهذه المقالة تدل من لا يعرفه (ولا أعرف أنا من لا يعرفه) على نضج تفكيره الإسلامي. أما استقامته وعمله بعلمه وعزوفه وقناعته، وثباته على مبدئه، وشجاعته في الحق، فقد سبق فيها كل سابق، ولولا أن المجال قد ضاق، وأن هذه مقدمة مقالة للرجل، وليست بحثاً عن الرجل، لضربت عليها أروع الأمثلة.

هذا هو محب الدين في كلمة موجزة، أما محب الدين كما هو فلا يكفي للكلام عنه كتاب كبير[1].

مد الله في عمره، وأكثر من أمثاله، وجزاه عن الإسلام وأهله خيراً.

علي الطنطاوي

---

(١) وقد انتقل الأستاذ محب الدين إلى رحمة الله في عام (١٣٨٩ هـ، ١٩٦٩ م)، ودفن في مصر. وقد ترك مكتبة غنية بالمؤلفات والوثائق، وقام على دار النشر التي أسسها باسم (الفتح) ولده الأستاذ الكريم قُصَي الخطيب الذي لحق (من عدة سنوات) بوالده، وخلفه على العمل أولاده (مَجْد).

أبو الحسن علي الحسني الندوي



الطبعة الرابعة

دار القلم
دمشق - بيروت

تقديم

يا أخي الأستاذ أبا الحسن:

تقول العامة عندنا في الشام: (المكتوب يعرف من عنوانه)، ولقد هزني عنوان كتابك قبل أن أفتح الكتاب (الطريق إلى المدينة).

لقد أحسست أنه أعادني ثلاثاً وثلاثين مرحلة في طريق العمر. لقد ردني إلى الوراء ثلث قرن كامل، فرأيتني وأنا في البادية، بادية الحجاز، وقد مرّت عليّ وعلى صحبي فيها خمسون يوماً، تتلظى من فوقنا شمسها، وتتضرّم من تحتنا رمالها، ترفعنا أكمة لتتلقفنا قفرة، يحرقنا العطش ويروعنا الضلال، وقد تجمعت آمالنا كلها وأمانينا في أمل واحد، وأمنية مفردة، هي أن نرى المدينة.

لقد كنا يا أخي تائهين في البوادي في «الطريق إلى المدينة». ذقنا لذع الجوع وحرقة العطش، واجهنا الموت، وتجرعنا من التعب والخوف الصاب والعلقم، حتى أصبحنا يوماً، وكان معنا دليل بدوي، دائم الصمت، معقود اللسان، مربد الوجه، فإذا به ينطلق وجهه ويتحرك لسانه ويقول كلمة. لو أعطيت ألفاً لما كانت الألف أحب إلي منها، كلمة أحسست كأنها أحالت خوفنا أمناً وجوعنا وعطشنا شبعاً ورياً، وتعبنا راحة وهناءً، كلمة هي السحر، إن كان من الكلمات ما هو سحر ـ قال: هذا أحد.

«أحد». تصور العاشق الهائم إذا طال عليه الهجر، وبرّح به الشوق، ثم قيل له: هذا منزل الحبيب.

على أن ذلك حب الجسد، وهذا حب الروح، وذاك حب الرغبة الأرضية التي تزول، وهذا حب العاطفة السماوية التي تبقى ما بقيت الحياة.

إني لا أزال أذكر من وراء ثلث قرن، كيف صبّت هذه الكلمة القوة في أعصابنا صباً، فإذا نحن نحث المطي، أي نستعجل السائقين - فقد كنا في السيارات - وكانت سيارتنا أولى السيارات التي وطئت هذه الصحراء منذ برأها الله، فنشط السائقون، بل أحسسنا مما خالط نفوسنا من هزة الفرحة ونشوة الوصال أن السيارات وهي جماد قد نشطت، فازدادت قوة وسرعة وإقداماً.

ولما درنا من حول «أحد» وبدت لنا القبة الخضراء عجز اللسان يومئذ عن وصف ما أحسسناه، كما يعجز القلم اليوم.

فتكلمنا بلسان العاشقين: بخفقان القلب وتهطال الدموع، وما لنا لا تخفق قلوبنا وتهطل دموعنا وقد بلغنا دار الحبيب، الدار التي كنا نعيش على تصورها ونتغذى بذكرها، نقرأ السيرة فنحس إذ يمر بنا ذكر هذه الأماكن أنها هي مراح أرواحنا، وأنها هي مواطن أفئدتنا، إذا كانت البلاد التي ولدنا فيها مواطن أجسادنا، ومتى كان موطن الجسد أحب إلى المرء من موطن الفؤاد؟

وهل في الأرض مسلم لا يفدي بلد الرسول ببلده إذا حاق البلاء (لا سمح الله) ببلد الرسول، ولا يشتري سلامة بيت الله إن عرض له الأذى ببيته وبيت أهله.

وإذا كان الرجل يشتهي أن يرى الدار التي ولد فيها

الأديب، والبلد الذي عاش فيه الشاعر، فيشد الرحال وينفق الأموال ليصل إليه، فيستحلي في سبيل الوصول إليه مرارة التعب، ويستهين بمشقات السفر، فكيف لا يذوب قلب المسلم شوقاً إلى البلد الذي وطىء أرضه (محمد) حبيب كل مسلم ﷺ، ونشق هواءه وشرب ماءه، يمشي من حيث مشى الحبيب، ويصلّي حيث صلّى، يدخل من حيث دخل يوم هاجر من مكة، ويخرج من حيث خرج يوم ذهب إلى أحد، يشهد مكان المعركة ويقف على أجداث الشهداء، ثم يعود إلى الروضة التي حلّت في هذه الأرض وهي قطعة من جنة الخلد، ثم يقف على الغرفة التي احتوت جسده حياً، ثم أغلقت عليه ميتاً، فلا تفتح إلى يوم القيامة، فيقول: السلام عليك يا سيدي يا رسول الله.

إني لست أنسى ما شعرت به لما وقفت هذا الموقف أول مرة، فما لي الآن لا أحس مثل ذلك الشوق ولا أشعر بمثل تلك الفرحة؟!

مالي أقرأ هذه الأشعار الحجازيات التي كانت تهز قلبي مثل هز الفلاح الشجرة المثمرة، فتساقط من القلب العواطف والخواطر العلوية كالثمار الناضجة.

مالي أقرؤها اليوم فلا تهز من القلب إلا غصوناً قد جردها من ورقها شتاء العمر، فعادت حطباً؟!

أمن طول المقام، أم من غفلة القلب، أم لقد أفسدتني الأيام؟ أم لأننا كنا نأتي في البر نمضي على «طريق المدينة» الأسابيع الطوال، تحدونا الأشواق ويجذبنا الحنين، وتموج في نفوسنا آلاف الخواطر، فصرنا نأتيها في ساعتين أو ثلاث ساعات، نصعد سلم الطيارة في الشام أو مصر، فلا نكاد نفرغ من الطعام ونستريح ساعة إلى المنام، حتى ننزل من سلم الطيارة في جدة.

ربحنا الوقت وخسرنا العواطف والتأملات...

لقد كدت أفقد ثقتي بنفسي، ولكني لما قرأت كتابك يا أخي أبا الحسن «الطريق إلى المدينة» أحسست بالشوق يعود فيعتلج بنفسي، فعلمت أن قلبي ما خلا من جوهر الحب، ولكن هموم العيش وطول الألفة قد غطيا جوهره بالغبار، فأزاح كتابك عن جوهره الغبار.

وكدت أفقد ثقتي بالأدب حين لم أعد أجد عند الأدباء هذه النغمة العلوية التي غنَّى بها الشعراء من لدن الشريف الرضي إلى البُرعي، فلما قرأت كتابك وجدتها، وجدتها في نثر هو الشعر، إلا أنه بغير نظام.

فيا أبا الحسن لك الشكر على أن رددت إليّ ثقتي بنفسي، وثقتي بأدب لغتي. أما المقدمة التي طلبتها فأعفني منها، لأنك لست في حاجة إليها، ولا يحتاج إليها هذا الكتاب.

إن المقدمات في الكتب كالوسيط في التجارة، يطلبه التاجر الجديد لترويج البضاعة المجهولة، فماذا يصنع الوسيط إذا كان المستهلكون يعرفون التاجر أكثر مما يعرفونه هو، ويحرصون على شراء البضاعة أكثر من حرص التاجر على بيعها.

والسلام عليك ورحمة الله

مكة المكرمة ١٢/٢/١٣٨٥ هـ

علي الطنطاوي

أبو الحسن علي الحسني الندوي

مكتبة دار الفتح بدمشق



تقديم الكتاب للأستاذ علي الطنطاوي

ماطلت الناشر بهذه المقدمة ثلاثين يوماً، أبتغي بها ساعة صفاء وإلهام، فلما ضاق الوقت، وبدأ الطبع، كتبتها على عجل في ثلاثين دقيقة.

كنت أريد أن أجعلها صفحات من الفن البارع الأصيل، فجاءت سطوراً من الذهن الخامد الكليل.

وكنت أريد أن أودعها خلاصة ذكرياتي عن الهند وأن أصب فيها كل ما في نفسي لأخي وسميّي أبي الحسن، ولكنها صادفت أيام الانتخابات، التي جاءت بها هذه الثورة، وما تتابع عليَّ من مشاغل ومشاكل، أرهقت جسدي، وأتعبت قلبي، وفرقت المجتمع من فكري، وأثقلت القلم في يدي، فحرن عليَّ وقد كان العهد به أن يجري جريان فرس السباق، وكبا في أول الحلبة، وقد كان (ولا فخر) سباقاً إلى الغاية، فعدت وكأني من العيّ لم أسود به من قبل صحيفة، ولم أخط به سطراً.

فيا أخي أبا الحسن، ويا إخوتي القراء، معذرة.

ويا رب غفراً.

ومثل أبي الحسن لا يحتاج إلى أن يقدم كتابه إلى القراء أحد، إن اسمه عليه يغنيه عن كل تنويه به، ولكنه أراد أن يوليني هذا الشرف، وأن يقرن اسم العليَّيْن معاً باسم المسلمين في الهند، دليلاً من الأدلة

على أن الإسلام يجمع الإخوان، وإن تفرقت بهم البلدان، وإن كان هذا الأمر لا يحتاج إلى دليل.

ولقد كنت أعجب حين أقرأ لأبي الحسن، فأجد لرجل من الهند هذا الأسلوب البليغ، وهذه الأصالة وهذا الطبع، ثم زال العجب لما ظهر السبب، وعلمت أن أبا الحسن عربي صريح صحيح النسب كالأصبهاني مؤلف الأغاني، والأبيوردي الشاعر، وهما قرشيان أمويان، والفيروزأبادي صاحب القاموس، وإن خبر عربيته متواتر مستفيض في الهند، فمن هنا جاء هذا البيان الذي قَلَّ نظيره في هذه الأيام.

وقد يشتغل غير العربي بعلوم العربية، حتى يكون إماماً فيها، في اللغة والنحو والصرف والاشتقاق، وفي سعة الرواية، بل إن أكثر علماء العربية كانوا (في الواقع) من غير العرب، ولكن من النادر أن يكون فيهم من له مثل هذا (الذوق الأدبي) الذي تعرفه لأبي الحسن. فلو لم تثبت عربيته بصحة النسب، لثبتت بأصالة الأدب.

وإذا كان الدليل على ذوق الأديب اختياره، فحسب القراء أن يعلموا أننا عرضنا من أمد قريب كتب المختارات الأدبية، لنتخير واحداً منها نضعه بين أيدي تلاميذ الثانويات الشرعية في الشام، وذهب كل واحد من أعضاء اللجنة، وكلهم من الأدباء، يبحث ويفتش، فعدنا جميعاً وقد وجدنا أن أجود كتب المختارات المدرسية، وأجمعها لفنون القول وألوان البيان، مختارات أبي الحسن.

ولقد كنت أتمنى من قديم أن نخرج بتلاميذنا من هذا السجن الضيق المظلم الذي حشرناهم فيه، إلى فضاء الحرية، وإلى ضياء النهار، فلا نقتصر في الاختيار، على (وصف الكتاب) للجاحظ، وهو جمل مترادفة، لا تؤلف بينها فكرة جامعة، ولا يمدّها روح، ولا تخالطها حياة، وعلى ألاعيب ابن العميد، وغلاظات الصاحب، وهندسات القاضي الفاضل، فننفر التلاميذ من الأدب، ونكرهه إليهم،

وكنا نقول لهم إن البيان الحق عند غير هؤلاء، وأن أبا حيان التوحيدي أكتب من الجاحظ، وإن كان الجاحظ أوسع رواية، وأكثر علماً، وأشد تصرفاً في فنون القول، وأكبر أستاذية، وأن الحسن البصري أبلغ منهما، وأن ابن السماك أبلغ من الحسن البصري[١].

وإن النظر فيما كتب الغزالي في الإحياء، وابن خلدون في المقدمة، وابن الجوزي في الصيد، وابن هشام في السيرة، بل والشافعي في الأم، والسرخسي في المبسوط، أجدى على التلميذ وأنفع له في التأدب، من قراءة حماقات الصاحب، ومَخرَقات الحريري وابن الأثير.

وكتبت في ذلك مراراً، فما التفت إلى ذلك أحد، فيئست منه، حتى وجدت كتاب أبي الحسن، فإذا هو قد نفض كتب الأدب والتاريخ نفضاً، وحرثها حرثاً، فاستخرج جواهرها، فأودعها كتابه.

ولست أقول أني أنا صاحب الفكرة، أو أنه أخذها مني. . لا، ولعله (وهذا ما أرجحه) ما قرأ شيئاً مما كتبت أنا ولا غيري في هذا الموضوع، ولكنه الذوق الأدبي المرهف، والطبع العربي الأصيل.

وأبو الحسن أستاذ في فنون كثيرة، في الكتابة، وفي البحث، وفي التاريخ، وفي الدعوة، وفي الفقه والنزاهة والتخلق بأخلاق العلماء، وهو فرع كرم من أصل كريم، أبوه مؤرخ الإسلام في الهند، وأخوه من صدور الأطباء والعلماء، وأسرته أسرة شرف وعلم، وهو أحد أركان ندوة العلماء، وإليها نسبته. وندوة العلماء، أجلّ من أن نمر بها مرّاً، ولا بد من وقفة عليها، لنعرف بها من لا يعرفها من القراء.

ولقد رحلت من سنوات رحلة قطعت فيها في الذهاب والإياب أكثر من ثلاثين ألف كيل، مشيت فيها من دمشق إلى سورابايا (في آخر

---

(١) قد تبدو هذه الأحكام غريبة على من ألف التقليد في الأدب وعكف عليه، ولكنها حق، كما أن من الحق أن أبا تمام أشعر من المتنبي وأعظم.

جزيرة جاوا) ودخلت فيها كثيراً من المدن الكبار، فما رأيت في ذلك كله موضعاً تمنيت من إعجابي به، أن أقيم فيه، إلا مدرسة الندوة، في لكنو.

وما أدري لِمَ شبهت لكنو بدمشق، وأحسست وأنا فيها كأني في بلدي، أمن أنهرها، وكثرة بساتينها؟ أم لأني أحسست فيها من كرم أبي الحسن كأني في موطني، وبين أهلي؟

ولقد كانت كلكته أول ما زرنا من بلاد الهند، مررنا بها في طريقنا إلى الشرق الأقصى، وفي عودتنا منه، وكلكتا مدينة عظيمة، ربما كانت خامسة مدن الأرض، كثرة سكان، لأن فيها كما قالوا خمسة آلاف ألف، وخمسمئة ألف، ولكنها بلدة كئيبة قديمة، وخرجنا منها فقطعنا عرض الهند إلى بومباي، وبومباي من أجمل بلاد الدنيا وأكبرها، لها ساحل متعرج يدخل فيه البر في البحر، والبحر في البر، فلا ترى إلا رأساً بارزاً أو خليجاً والجاً، أو برزخاً معترضاً، وعلى الساحل جبل قائم، يلبس حلة من غرائب الأشجار، وعلى ذروته حديقة معلقة ومقبرة مغلقة، هي إحدى عجائب الزمان لأنها لقوم من مجوس الفرس، لا يدفنون أمواتهم مثلنا ولا يحرقونهم كالهندوس، بل يعرضونهم للطير والحيوانات تأكل لحومهم حتى تذهب بها كلها.

وفي بومباي العمارات الكبار التي تجمع الجمال والجلال. وقد رجعنا منها إلى دهلي، ودهلي مدينة عظيمة يحس من يدخلها أنه في بلدة إسلامية، من كثرة مساجدها وقبابها، وفيها المسجد الجامع، وهو من أعظم مساجد الأرض اليوم، وأمامه القلعة الحمراء، وهي درة من درر العمران على الأرض، بناها شاهجهان باني (تاج محل) أجمل أبنية الدنيا بلا جدال.

فما أحببت من ذلك كله بلداً، ولا من بلدان جاوا (جنة الأرض)، مثلما أحببت لكنو.

وكنا كلما دخلنا في رحلتنا بلداً، نجد من يستقبلنا فيه ويدلّنا، وكنا نرقب أن نجد في (لكنو) من الرعاية والعناية، ما لم نجده في غيرها، لأنها بلد الصديق أبي الحسن، فنزلنا من الطيارة مطمئنين (وكنا اثنين أنا والأستاذ الجليل بركة العصر الشيخ أمجد الزهاوي شيخ علماء العراق)، فلتفَّتْنا فلم نرَ أحداً، فضاق صدر الشيخ فطمأنته، وكان الركاب قليلاً، فتمت (المعاملات) في نصف ساعة، ورحنا إلى السيارة لتحملنا إلى البلد، وما رأينا أبا الحسن ولا أحداً من جماعته، فغضب الشيخ وحرت أنا ماذا أصنع، لأني لا أعرف (ولا الشيخ يعرف) كيف نخاطبهم، فعمدت إلى الإشارة وهي لسان من ليس له لسان، ولغة الخرس جميعاً في كل عصر، وقرنًا بها الكلمة التي تفهم في كل مكان: كلمة (أوتيل)، ففهموا منا وأشاروا إلى السيارة.

واخترقت السيارة البلدة، ثم خرجت منها، وصرنا بين البساتين، فشككت وأعدت على جاري في السيارة كلمة (الأوتيل) وقلبت كفي إشارة السؤال، فهز رأسه ورطن بما لم أفهم، وأشار إلى قدام، ففهمت أن الفندق أمامي.

ووقفت السيارة في مكتب الشركة وكان في فندق فخم ضخم، من أفخم وأضخم ما رأيت من الفنادق، اسمه فندق كارلتون، وله أجنحة طويلة تظللها بواسق أشجار الهند، تقفز عليها القرود من كل نوع، تلعب وتتقلب وتخطف ما تصل إليه من الطعام، وهم لا يمسونها لأنهم يحرمون قتل الحيوان، تطل غرفه على بحر من الخضرة، فيه الأشجار الكبيرة المزهرة، التي لا نعرف مثلها في بلادنا، وكل غرفة منها بمقدار شقة من دار، فيها الفرش الغالي، والأثاث الثمين، وفي كل غرفة مرافقها كلها، فنزلنا فيه، ولكنا كنا فيه كالمسجونين ظلماً، لا نعرف ماذا نصنع، ولا ندري أين نتوجه، ولا نجد من نسأله عن أبي الحسن.

وهطلت الأمطار، لا كالأمطار التي نعرفها في بلادنا، ولكنها قرب تنصب، وسماء تتفتح، فتضع في دقائق، ما لا تضعه أمطارنا في ساعة،

واستمرت إلى الليل، ثم وصلت الليل بالنهار، والنهار الثاني بالليل، والليل الثاني بالنهار. ولبثنا على ذلك ثلاثة أيام، ونحن محبوسون في قصر أنيق جميل المنظر، بارع البنيان، ولكنه كان علينا سجناً، والسجن لا يُحب مهما كانت حاله، وضاق صدر الشيخ حتى فكر في السفر، ولم أجد بدّاً من أن أذهب تحت هذا المطر، فأبحث عن مخرج..

وركبت سيارة أجرة وجدتها في الفندق. وقلت له: إلى ندوة العلماء، فلم يفهم عني، فقلت بمقدار ما أعرف من اللفظ الإنكليزي: إني أريد مدرسة إسلامية، فلم أفلح في إفهامه، فأشرت إليه أن يمشي، فمشى وجعل يدور في الشوارع والعداد يسجل وهو يلتفت إليَّ فأشير إليه أن يمشي، لعلّي أرى من أتوسم فيه أنه مسلم فأسأله، وقد كان ذاك، فوجدت شاباً وقفت السيارة وسألته، فأجابني، واسترشدته فأرشدني.

وما قلت له: السلام عليكم، وقال وعليكم السلام ورحمة الله، وما علمت أنه مسلم، حتى شعرت بمثل ما يشعر به الغريق، وجد من ينتشله من الماء، والمختنق وجد الهواء، وفرح هو بي فرح الأخ يلقى أخاه بعد طول الغياب، وهذه هي أخوة الإسلام، التي عقدها الله، فلا تقوى على حلها يد بشر. وحدثني أنهم كانوا يتوقعون قدومنا بالقطار، فكانوا يخرجون كل يوم إلى المحطة فإذا لم يجدونا رجعوا، ما توقعوا أن نجيء في الطيارة.

ومشى بي، في شارع رحب، على كتف نهر عظيم، يقابله من هناك شارع آخر، وكانت الأمطار قد انقطعت فجأة كما هطلت فجأة، فنظرت، فإذا على الجانبين منظر من أمتع ما خلق الله، حتى انتهينا إلى أرض منبسطة خضراء، في وسطها بناء جميل، كأنه قصر من قصور الأندلس، ووراءه بُنَى متفرقة، في أرض واسعة، في بقعة هادئة، فيها الأشجار المزهرة والمثمرة، والسواقي الجارية، قال: هذه هي مدرسة ندوة العلماء، وتلك الأبنية تبع لها، وهذه الأرض كلها ملكها.

فدخلت فوجدت الأستاذ أبا الحسن، فلما رآني، وثب هو وتلاميذه إليّ يسلمون عليّ ويكلمونني، وكلهم يحسن العربية كلاماً وقراءة، حتى الصغار منهم، ولقد وجدت طفلاً اسمه عبد المحسن، لا يكاد يحسن النطق بلسان قومه، وهو يحسن مع ذلك لسان القرآن، ولعله قد كبر الآن وغدا من طلبة العلم فبلغوه، وبلغوا الأستاذ أحمد الرابع دليلي في لكنو، سلامي.

وشعرت كأني في مدرسة شرعية من مدارس دمشق، وتيقنت لما رأيت مناهج الدرس، وكتب الطلاب، أن القوم ماشون على الجادة، فليس عندهم تفرنج (جامعة عليكره) التي صارت كواحدة من جامعات أوربة، وليس عندهم جمود (مدرسة ديوبند) وهي أزهر الهند، ولكنهم يأخذون بالنافع من ثقافة الغرب، مع الحفاظ على ثقافة الإسلام، كالدار القائمة على السفح، تترفع عن وخامة السهل، وتنزل عن وعورة الجبل، وخير الأمور الوسط.

وكنت أقرأ أسماء هؤلاء الأعلام، سليمان الندوي أعلم علماء السيرة في هذا العصر، وأحد أعاظم المؤلفين فيها على مدى العصور، ومسعود الندوي رحمه الله، وأبي الحسن الندوي، وتلاميذه، محمد الندوي، واجتباء الندوي، فكنت أظن أنهم أبناء أسرة واحدة، ثم علمت أنهم إنما ينتسبون إلى الندوة، وإنها هي أسرتهم وأن صلة العلم والأدب أقرب فيهم من صلة القرابة والنسب.

* * *

عشت في الندوة أياماً، ذقت فيها متعة النظر، بمنظر نهرها وبساتينها، وراحة الأعصاب، بهدوئها وسكونها، ولذة التفكير، بالرجوع إلى مكتبتها، وعَبَبْتُ السعادة عباً بصحبة هؤلاء الأخوة الكرام، المسلمين حقاً، الطيبين المخلصين، الذين أحسست وأنا معهم كأني رجعت إلى التاريخ، فعشت مع المسلمين في الصدر الأول: أساتذة الدار وطلابها.

وقلت، هاهنا المقيل، فيا ليتني أحطُّ هاهنا الرحال، ويا ليتني أعيش هنا، وماذا أبتغي فوق ما أجد فيها؟ وهل بعد هذا المنظر الجميل، وهذه المكتبة الحافلة، وهؤلاء الصحب الأخيار، وهل بعد جوار أبي الحسن في بلده، متعة تبتغى أو نعمة تطلب؟

إن في الندوة لذات الدنيا، وحسن ثواب الآخرة إن شاء الله، والذين يعرفون أبا الحسن كثيرون، ولكنهم رأوه في سياحاته، فعرفوه من أدبه وكتبه ومحاضراته، أما أنا فعرفته في بلده فعرفت كيف يكون برّ الصديق، وعطف الأخ، وكرم المضيف.

* * *

وأنا أكتب هذه المقدمة وأدفعها إلى المطبعة وما يعلم أبو الحسن ماذا أقول فيها، ولو اطلع عليها قبل نشرها، لما تركني أمدحه صادقاً بما هو فيه، لأن ما في طبعه من الحياء، يمنعه من قبول الثناء.

* * *

وبعد فأنا أكرر الاعتذار، فما هذا الذي كنت أنوي أن أقوله ولكن هذه المقدمة جاءت كما قلت في أزمة شتتت فكري، فلم أقدر على أكثر من هذا الكلام المشتت.

ولا يضر أبا الحسن ألاّ تكون مقدمة كتابه العظيم، عظيمة مثله، وما ينفعه وجودها، ولا يضره عدمها، ولكنه طلب فلم أملك إلاّ الإجابة.

ومن فاته أن يستمتع وينتفع بما كتبت هنا، فسيجد المتعة كلها والنفع كله فيما كتب المؤلف في الكتاب.

دمشق، رجب سنة ١٣٨١

علي الطنطاوي



أبو الحسن علي الحسني النَّدْويّ



دار القلم
دمشق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم الكتاب
بقلم أديب العربية الكبير الشيخ علي الطنطاوي

«في مسيرة الحياة» كتاب قيِّم، لداعية من أكابر الدعاة إلى الله في هذا العصر، وصديق من أكرم الأصدقاء، ومؤلف مُكْثِرٍ له كتب يعرفها الناس، ولكن لهذا الكتاب فضلاً عليها، لأنه يسرد سيرة المؤلف الأستاذ السيد أبي الحسن النَّدْوي، ومعه رسالة منه يشرِّفني فيها فيكلفني بأن أكتب له مقدمة الكتاب.

* * *

أنا لم أكن يوماً في موضع القيادة في الدعوة الإسلامية، ولكنني أمشي معها من يوم كنت أدرس في مصر سنة ١٣٤٧ هـ، فشهدت بداية الدعوة النظامية بإنشاء «جمعية الشبان المسلمين»، وعرفت رجالاً من أعيان الدعاة إلى الله ومن أكابرهم. عرفت أبا الحسن، وعرفت الشيخ البنّا قبل أن تظهر جماعة «الإخوان المسلمين»، وكنت في فصل واحد في دار العلوم مع سيد قطب، وعرفت الشيخ البشير الإبراهيمي في مصر وفي دمشق وفي بغداد وفي القدس، وعرفت المودودي، ومحب الدين الخطيب خالي وأستاذي، والسيد الخضر الحسين شيخي وشيخ مشايخي، والشيخ محمد محمود الصوّاف أخي وصديقي، وعرفت

بالسماع لا باللقاء النورسي في تركيا، وممَّن لقيت الأستاذ علاّل الفاسي، ولبثت معه أياماً في القدس وفي دمشق. والدعاة إلى الله كثير، ولكن مَنْ ذكرت من أبرزهم شخصية، ومن أخلصهم إخلاصاً، ومن أسيرهم ذكراً، وأعمقهم أثراً.

* * *

وماذا أقول وقد سدّ عليَّ أخي أبو الحسن مسالك القول، فلم يدع لي مسافة أنملة أوسعها لأدخل منها، فأكتب عنها... لقد قرأت مذكّرات كثير من أدباء العصر ممن سار فيها مع السنين، وجاء بها مرتبة ترتيب الأيام في مجرى الزمان كأحمد أمين، ومن أخذ منها مواقف فصّلها تفصيل الأديب، وعرضها عرض المنشىء البليغ، كطه حسين، ومن أخذ مما رأى وما سمع مشاهد علّق عليها، وإن لم يستوف عناصرها ولم يجمع أطرافها كمحمد كرد علي. أما أخونا الأستاذ أبو الحسن، فقد جمع في سيرته بين الحديث عن أصله ومنبته، وعن بلده وبيته، وعن تحصيله ودراسته، وعن أصحابه وتلامذته، فلم يدع شيئاً إلاّ قاله، فماذا ترونني قائلاً اليوم؟

* * *

لقد كتب عن أسرته، أهل أبيه وأهل أمه، وإذا هو المُعِمُ المُخْوِل[1]، كما كانت تقول العرب، وإذا هو عالم من نسل علماء. ولقد عرفت من مطالعتي أسراً توارث أبناؤها العلم، فكانوا وكان نساؤهم من العلماء، كأسرة آل قدامة الذين كان منهم مؤلف «المغني» أعظم كتب الفقه الإسلامي، وابن أخيه صاحب «الشرح الكبير»، والحافظ عبد الغني المقدسي صاحب «المختارة» التي هي أصح كتب الزوائد على الصحيحين، ولقد أولعت زمناً بتتبع تاريخ هذه الأسرة فحصل معي من نسائها العالمات . فضلاً عن رجالها

---

(١) أي الكريم الأعمام والأخوال.

العلماء . أكثر من إحدى عشرة سيرة[١]!!

ومن هذه الأسر في التاريخ القريب أسرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأنتم تعرفون من نشأ فيها من العلماء. وأسرة ولي الله الدهلوي في الهند، وأسر من أمثالها كثير، أحصيت الكثير من أخبارها. وأسرة المهلّب القائد الذي ظلمناه فلم نضعه في مكانه مع القوّاد العظام في تاريخ المعارك، والذي تسلسلت البطولة في نسله أربعة بطون، فكان منهم رَوْح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب. وأسرة طاهر بن الحسين في القيادة والسيادة. وأسرة قتيبة بن مسلم القائد الذي فتح من الأرض ضعف ما فتح نابليون، فذهب ما فتحه نابليون وعاد إلى أهله، وبقيت فتوح قتيبة للإسلام إلى يوم القيامة، وإن غشيتها غاشية من الكفر والكدر، فستعود إن شاء الله إلى إيمانها وإلى صفائها. وأسرة جرير في الشعر. وأسرة يمكن أن ندعوها بأسرة الوزراء، هي أسرة وَهْب الذي كان وزيراً، وابنه سليمان الذي كان وزيراً، وابن سليمان عبيد الله، والقاسم بن عبيد الله، ومحمد بن القاسم، وكلهم كانوا وزراء.

* * *

ولو عددت من هذه الأسر أسرة أبي الحسن النَّدْوي لما أبعدت، فأبوه عالم طبيب مؤلف[٢]، وأخوه لأبيه عالم طبيب، وأخته مؤلفة ولها ترجمة «رياض الصالحين»[٣]، وأخته الأخرى عالمة وهي أم

(١) للأستاذ الدكتور شاكر مصطفى كتاب جامع ممتع في أخبار هذه الأسرة العلمية، بعنوان: «آل قدامة والصالحية» طبع في كلية الآداب بجامعة الكويت عام ١٤٠٢ - ١٩٨٢ (مَجْد).

(٢) وأمه سيدة فاضلة، كاتبة شاعرة، صاحبة مؤلفات، صدر لكتابها «حسن معاشرة» في تعليم البنات المسلمات، ثلاث عشرة طبعة، حفظت القرآن، وهي من فضليات النساء صلاحاً وتقوى، ودعاءاً وإنابة إلى الله، وشعرها كله دعاء ومناجاة لله، ومدح للنبي ﷺ.

(٣) اسمها: «زاد السفر»، رزقت قبولاً عظيماً، وطبعت مرّات، وقررت في مدارس كثيرة، أذيعت أكثر من مرة من الإذاعة السعودية، ولها ديوان شعر مقبول في الدعاء والابتهال والمدائح النبوية، وأنشأت مجلة «رضوان» للنساء المسلمات.

لِعلماء، كلهم اسمه محمد، عرفت منهم محمداً الرابع الذي كان شاباً يوم زرت الهند، وكان جزاه الله خيراً يمشي معي يدلّني ويأخذ بيدي ويترجم لي[١]، وعرفت أخاه محمداً الخامس[٢]، الذي كان في إذاعة دهلي، وقد دعيت إليها فسجلوا لي أربعة أحاديث، واستقبلوني بالترحيب والإكرام، وودَّعوني بالتحية والسلام، ولكنهم لم يذيعوا شيئاً منها!!

أما والد أبي الحسن فهو مؤرخ الهند حقيقة، ولقد استفدت من كتابه العظيم «نزهة الخواطر»[٣] فوائد كثيرة في تراجم عظماء الهند التي أودعتها كتابي «رجال من التاريخ»، وفي رسالتي عن السيد أحمد بن عرفان العالم المجاهد الصالح المصلح، الذي ذهب شهيداً في المعركة الإسلامية لإعلاء كلمة الله، أصدرت عنه رسالة في سلسلة لي عنوانها: «أعلام التاريخ»، ثم كتب عنه الأستاذ أبو الحسن كتابه الجامع بعد سنين، فكفى ووفى ولم يدع لقائل مجالاً لقول.

* * *

يقول العرب:

إن الفتى من يقول هاأنذا ليس الفتى من يقول كان أبي

فإذا اجتمع العلم والأدب مع الحسب والنسب، فتلك الغاية التي لا غاية بعدها، ولولا أن يظن أني صرت شاعراً مدّاحاً عملي الثناء لقلت إن أبا الحسن جمع الأمرين، وكان الشعراء إنما يمدحون ليأخذوا

---

(١) وهو الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي عميد كلية اللغة العربية وآدابها في جامعة ندوة العلماء، وأمين رابطة الأدب الإسلامي العالمي العام.

(٢) وهو معروف الآن بالأستاذ محمد واضح رشيد الندوي رئيس تحرير صحيفة «الرائد» العربية.

(٣) والكتاب في ثمانية أجزاء كبار، احتوىٰ على أكثر من أربعة آلاف وخمسمئة ترجمة لأعيان الهند.

الجوائز والعطايا، وليس عند أبي الحسن ما يعطيني منه جائزة أو عطية، وليس عندي بحمد الله حاجة إليها، فأنا أقول ما أقول صادقاً لا متزلفاً.

* * *

إن أكثرنا يجهل تاريخنا في الهند، وتاريخ الإسلام في الهند يعدل ربع التاريخ العام، ذلك أننا (كما قلت من قبل) حكمنا هذه القارة الهندية نحواً من ألف سنة، وكانت يوماً لنا وحدنا، وكنا نحن سادتها، ولئن كانت لنا في إسبانيا أندلس أضعناها، فإن لنا هنا أندلساً أكبر، ولئن تركنا في الأندلس تلالاً بقايا من شهدائنا، وسواقي من دماء أبطالنا،فلقد خلّفنا في الهند أضعاف ما تركنا في الأندلس، ولئن كان لنا في الأندلس مسجد قرطبة وقصر الحمراء فإن لنا في كل شبر من هذه القارة دماً زكياً أرقناه، وحضارة خيِّرة، وشيت جنباتها وطرزت حواشيها بالعلم والعدل، والمكرمات والبطولات، وإن لنا فيها معاهد ومدارس، كم أنارت عقولاً، وفتحت للحق قلوباً، ولا تزال تفتح القلوب، وتنير العقول، وإن لنا فيها آثاراً تفوق بجمالها وجلالها الحمراء، وحسبكم (تاج محل) أجمل بناء علا ظهرَ هذه الأرض.

* * *

وقد قرأت الكتابين اللذين وصلا إليّ مما ألّفه والد السيد أبي الحسن: كتاب «نزهة الخواطر» الذي جمع فيه من سِيَر أعلام الهند، ومن نشأ فيها، ما لم يجمعه كتاب غيره، فهو يغني في هذا الباب عن كل كتاب، ولا يغني عنه كتاب.

وكتابه الآخر الذي نشره «المجمع العلمي» في دمشق وسماه: «الثقافة الإسلامية في الهند»، والذي أودعه المؤلف مالا يستطيع مثلي أن

يجده في خزانة كاملة، يكب عليها، يطالع ما فيها[١].

لقد تعلمت من هذين الكتابين، ومن زيارة الهند منذ ثلاثين سنة أننا بجهلنا تاريخ الإسلام في الهند إنما نجهل ربع تاريخنا.

* * *

كتاب الأستاذ أبي الحسن ليس سرداً لأحداث حياته، ولكنه كتاب تاريخ، وكتاب أدب فيه وصف للأمكنة كأنك تراها، وكتاب علم فيه ذكر العلماء ومجالس العلم، وسجلٌ اجتماعي فيه وصف عادات الناس وأوضاعهم في الهند، وكان مما قرأت عن المكان الذي نشأ فيه أنه بُني على طراز الكعبة بطولها وعرضها، إلاّ أنه نقص من ارتفاعها عدة أنامل تأدباً معها واحتراماً لها، وسقيت قواعده بماء زمزم.

ولم يقل ماذا أرادوا بذلك، ولم يدّع أنه قربة إلى الله، أو أنه عمل مشروع، لذلك لا أقول فيه شيئاً، لا أقره ولا أنكره، وإنما أرويه وأذكره.

وكان هذا البناء مسجداً ورباطاً، ومدرسة ومركز دعوة إلى الله، ودار تدريب على الجهاد، ولم يجعلوا له (كما يقول) قبة ولا منارات.

ووصف النهر الذي يجري تحته، فإذا هو يصف (أو كأنه يصف) نهر بردى، في قلة مائه في الصيف، وأنه إذا هطل المطر وكانت السيول هدر وزمجر، وربما طغى ودمَّر، ويصف فيضانه العظيم سنة ١٩١٥ م وكان عقب ولادة الشيخ، يصفه وصفاً حياً كأنك تراه ذكّرني ببردى لما فاض مثل ذلك الفيضان سنة ١٩١٨ م، فملأت مياهه مدرستنا، وصارت

---

(١) ولمؤلف «نزهة الخواطر» و «الثقافة الإسلامية في الهند» كتاب ثالث مهم، وهو «الهند في العهد الإسلامي» في خطط الهند، وآثارها، وتاريخ الحكومات الإسلامية، ونظمها، والأمور الخيرية والمؤسسات التي أنشأها المسلمون في القارة الهندية.

مقاعدنا كالزوارق طافية على وجه الماء، ونحن نتعلق بها، وكان يوماً من أجمل أيام حياتي في الصغر، وكنت في آخر الدراسة الابتدائية، وأنا قد سبقت الشيخ أبا الحسن في رؤية هذه الدنيا، إذ ولدت قبله بست سنين أو سبع، ولكنه سبقني في بلوغ ذرى الفضائل فيها.

* * *

لقد كانت أول معرفتي بأبي الحسن من كتابه: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين». لما رأيت هذا الكتاب لم أكن أعرف مؤلفه، فقلت: مَنْ هذا الباحث الهندي الذي يكتب بمثل هذا الأسلوب العربي النقي، ويحيط بأحوال المسلمين هذه الإحاطة؟ ثم علمت أنه هندي المولد ولكنه عربي الأرومة، وكثير هم العرب الأقحاح الذين عرفوا بألقاب فارسية أو أعجمية، ولو أن أحدكم وضع مخطّط بلاد فارس وقرأ أسماءها لم يجد بلداً إلاّ ومنه علماء وأدباء كثر، ملأت أسماؤهم كتبنا واستقرت في أذهاننا: التبريزي، والشيرازي، والقزويني، والجرجاني، والهمداني، والرازي (نسبة إلى الريّ وهي قرب طهران)، والطبري (نسبة إلى طبرستان، أما النسبة إلى طبريا فطبراني)، والشهرستاني، والنيسابوري، والإسفراييني، ومَنْ لست أحصيهم عدداً، وحسبكم بمؤلف «الأغاني» الذي يُدعى الأصفهاني، وهو أموي مرواني صريح النسب، من خلاصة العرب، ولقد جمعت أسماء هؤلاء لأضعها في كتاب، ثم علمت أن أحد الأدباء[1] قد ألّف كتاباً في العرب الذين لقّبوا بألقاب العجم[2]،

---

(١) هو العلامة الدكتور ناجي معروف أستاذ الحضارة العربية في الدراسات العليا بجامعة بغداد، وعضو المجمع العلمي العراقي، وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق (مَجْد).

(٢) واسم الكتاب: «عروبة العلماء المنسوبين إلى البلدان الأعجمية في المشرق الإسلامي» صدرت الطبعة الأولى عام ١٣٩٤ ـ ١٩٧٤ من منشورات وزارة الأعلام في العراق (مَجْد).

ولم أرَ الكتاب ولم أعرف مؤلفه، فمن كان عنده علم به فليتفضل وليخبرني[1].

* * *

وكنت أحسب أن «النَّدْوي» لقب أسرة يجمع بين أفرادها النسب، وكنت أسأل ما قرابة السيد سليمان الندوي الذي كان من أعاظم مَنْ كتب في السيرة، والسيد مسعود الندوي محرّر مجلة «الضياء»، إحدى المجلات الإسلامية العربية الواعية، والسيد أبي الحسن؟ ثم علمت أنهم لا يجمع بينهم النسب، وإنما يجمع بينهم العلم والأدب، وهذا المعهد الذي ينتسبون إليه.

* * *

وأنا لا أعرف أهل معهد أو مدرسة لهم تعلُّق بمعهدهم أو مدرستهم كتعلق النَّدْويين بندوتهم، ينتسبون إذا انتسبوا إليها لا إلى آبائهم، ويجتمعون عليها أكثر مما يجتمع أفراد الأسرة على أنسابهم، فكل من دخلها حمل لقب «الندوي» فعرف به، لا بلقب أهله.

لا أعرف مثل ذلك إلاّ للأزهر الذي انتسب إليه من طلبة العلم فيه جماعة، فصاروا يعرفون في بلادهم، ويعرف بنوهم من بعدهم بـ «آل الأزهري».

---

(١) الكتاب من جزئين: الجزء الأول ذكر فيه ثلة من العلماء العرب المنسوبين إلى البلدان الأعجمية في المشرق الإسلامي الذين نسبوا إلى الربعين الأولين من أرباع خراسان (نيسابور ومرو)، من المحدثين والمفسِّرين والفقهاء واللغويين والأطباء... رتَّبهم حسب سنيّ وفياتهم فبلغوا أكثر من ٣٠٠ عالم.

أما الجزء الثاني فقد ترجم لعدد آخر من العلماء العرب الذين نسبوا إلى الربعين الثالث والرابع من أرباع خراسان وهما (هراة وبلخ) ورتَّبهم أيضاً بحسب سني وفياتهم. والجزء الثاني طبع سنة ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧، وأكد في كتابه على صحة النظرية التاريخية: «أن حملة العلم في الإسلام جلهم من العرب لا العجم» (مَجْد).

و «الندوة» مثل الشاب الناشيء في طاعة الله، ما لها قدم الأزهر، ولا لها مثل أمجاده، ولكنها أسست من أول يوم على التقوى، رسم لها الطريق السوي فمشت فيه، لا الطريقُ انحرف بها عن الغاية، ولا هي قد تنكّبت الطريق، كان طريقاً وسطاً بين «الأزهر» بعدما شاخ وتخلّف شيئاً قليلاً عن الركب، ومعهد «ديوبند» في الهند الذي أقيم على غراره، ومشى يتبعه في مساره، وبين جامعة «عليكراه»[١] التي أنشأها السَر سيّد أحمد خان، لتساير الزمان، فلم تجمد الندوة جمود ديوبند والأزهر القديم، ولم تَسِلْ وتمع ميعان عليكراه، بل أخذت من طرفي الأمور بأحسنها، وكانت تجربة كتب الله لها النجاح.

* * *

وكان المثل الأكمل لهذه الطريقة هو أبو الحسن، أمسك الخيرين باليدين، فما أضاع القديم ولا أهمل الانتفاع بالجديد، وإذا كان أول ما يؤخذ على أكثر علمائنا ومشايخنا[٢] والدعاة إلى الله منا، أن جمهورهم لا يحسن لغة أجنبية، فأبو الحسن يتقن ثلاث لغات إتقاناً كاملاً، الثلاث التي هي أكثر ألسن الأرض ناطقين بها: العربية، والأوردية، والإنجليزية، ويعرف فوقها الفارسية، وإذا كان الشاعر القديم صادقاً حين قال: «فكل لسان في الحقيقة إنسان» فأبو الحسن ثلاثة في واحد، لا أقول إنه كتثليث النصارى، تعالى الله لا إله إلاّ هو الرب الواحد، بل أقول إنه جمع الفضل مثلّثاً.

وأنا أقول هذا هنا لأن أخانا أبا الحسن . فوق عنايته بالدعوة إلى الله، وأنه ركن من أركانها، وعضو ظاهر من أعضائها . يهتم بالأدب الإسلامي، وقد أنشأ له هو وأخونا الأستاذ عبد الرحمن رأفت الباشا

---

(١) وهي المشهورة الآن بجامعة عليكراه الإسلامية (Muslim university Aligarh) وهي كبرى جامعات شبه القارة الهندية التي يديرها المسلمون.

(٢) ولا تقل مشائخ لأن الياء فيها أصلية.

رحمة الله عليه وآخرون، رابطة تربط أهله، تجمعهم وتشدُّ من أزرهم، وتعينهم في أمرهم.

ولا يزال في الناس من يختلط عليه أمر تعريف الأدب الإسلامي، ويدخل فيه كتابات إسلامية ليست أدباً، وكتابات أدبية ليست موافقة للإسلام، والذي أفهمه أنا بذهني الكليل، وفهمي القليل، أن الأدب الإسلامي هو ما كان أدباً مستكملاً شرائطه، جامعاً عناصره، سواء في ذلك القصيدة والقصة والمسرحية والرواية، فالشرط فيها أن تكون بالميزان الأدبي راجحة لا مرجوحة، وأن يكون الأثر الذي تتركه في نفس قارئها إذا انتهى منها، مرغباً له في الإسلام، دافعاً له إلى الاقتراب منه، لا أن تكون بحثاً فقهياً ولا تاريخياً، ولا شرح حديث ولا تفسير آية، فهذا كله ليس أدباً، وإن كان شيئاً أغلى وأعلى وأثمن من الأدب.

* * *

ولقد كنت ممَّن دعا الأستاذ أبا الحسن إلى تأليف كتاب «روائع إقبال». ذلك أننا ما زلنا نسمع بإقبال، وبأن له شعراً، علا فيه حتى وصل إلى طبقة قَلَّ من الشعراء من يصل إليها، أو يحلِّق فيها، ثم نقرأ ما ترجم منه فلا نجد فيه مصداق ما سمعنا، ورأيت أن أقدر من يستطيع أن ينقله إلينا أبو الحسن، لأنه متمكن من اللسانين، أديب في اللغتين: في العربية وفي الأوردية، وصدر الكتاب وإذا هو لم يترجم قصائد إقبال، ولكن لخصها، ولولا أن أغضب أبا الحسن ـ وأنا واثق أن الحق لا يغضبه إن شاء الله ـ لقلت إننا لا نزال في حيرتنا نردد سؤالنا وننتظر من ينقل شعر إقبال إلينا.

* * *

كنت مرة في مقابلة إذاعية في الرائي (التلفزيون)، فسألني المحدِّث ـ وأحسبه كان الأستاذ ماجد الشبل ـ عن المكان الذي أتمنّى أن أقضي فيه بقية أيامي، قلت: إنْ لم أستطع أن أعود إلى بلدي ـ وبلدي

دمشق. ولم أقدر أن أبقى بجوار بيت الله هنا في مكة، فإن أحبَّ مكان إليّ هو (لكهنؤ)، وأن أقيم في معهد ندوة العلماء، فأجمع فيها بين الظل والماء وصحبة العلماء.

ولقد كنت أذكر اسم لكهنؤ مرة أمام جماعة من أهل الفضل فما عرفها منهم أحد، فقلت لهم: إنها مدينة أبي الحسن الندوي، فعرفوها، فكيف تريدون مني أن أعرِّف القراء في هذه المقدمة برجل هو أشهر من بلده، حتى إنها لتعرف به قبل أن يعرف بها؟.

ولم يرغبني في دار الندوة جمال منظرها وحده، ففي الأرض مناظر كثيرة فيها ما ليس في (لكهنؤ) من ألوان الجمال، بل لأن المُثُل العليا التي يطمح البشر للوصول إليها والدنو منها من قديم الأزمان إلى الآن هي الحق والخير والجمال، والثلاثة فيها، الجمال في موقعها، والخير في أهلها، والحق في الغاية التي تعمل لها وتسعى إليها.

* * *

إن الإسلام للحياة كلها، يصلحها ويسدّد خطاها، والحياة مادة (وشيء وراء المادة)، والإسلام للناس جميعاً، والناس مؤلفون من جسم ونفس وروح، والدعوة الصحيحة إلى الإسلام هي التي تجمع الحسنيين، على أن يكون هذا المزج بين مطالب الروح وحاجات الجسد مزجاً شرعياً، والله جعل كل شيء بقَدَر، فكما تتحد العناصر بِنِسَب معينة فلا تأتلف ذرة الأوكسجين إلاَّ مع ذرتين من الإيدروجين، كذلك جعل توازناً دقيقاً محكماً بين الروحيات والماديات. ومن الناس من يميل ميزانه إلى إحدى الكفتين. والدعوة الصحيحة هي التي تكون للعقل من غير استغراق في المادية، للقلب من غير انحراف مع الصوفية، وأن نلزم طريق الكتاب والسنة، وفي الكتاب والسنة غناء.

وهذا ما عليه جماعة الندوة، اشتغال بالعلم مع تثبيت الإيمان،

وإصلاح القلب، وترفُّع عن المعارك السياسية التي لا غاية لها إلاّ الوصول إلى كراسي الحكم، يسلك أصحابها إلى ذلك كل طريق، المستقيم منه والملتوي، ويتخذون كل ذريعة، الطيبة والخبيثة، والإسلام يريد أن تكون الغاية حسنة وأن يكون الطريق إليها مستقيماً آمناً، وأن يكون أسلوب الدعوة بعيداً عن أساليب الأحزاب السياسية التي لا تبتغي إلا المناصب والألقاب، عملها التزاحم عليها والتسابق إليها.

ولأبي الحسن والنَّدْويين عناية بالأدب، والدعوة لا تكون إلاّ باللسان والقلم، وقوام اللسان والقلم الأدب، وإذا كان من الأدباء الذين يعرفون اليوم بالإسلاميين من يكتب ويقول غير ما يعمل، ومنهم من لا يؤدي الفرائض ولا يدع المحرمات، ولا يلتزم بالسلوك الإسلامي، ومنهم من كتب في الإسلام لما رأى سوق الكتب الإسلامية مقصودة وبضاعتها رائجة، فجعل يسوق ما يعجب السوق، فإن أبا الحسن وجماعته ملتزمون بالإسلام قولاً وعملاً، كتابةً وسلوكاً، يعمل ما يعمل ابتغاء رضا الله لا رضا الناس، والرسول عليه الصلاة والسلام كره التكلُّف، وأنا لم أرَ فيمن عرفت من الناس من هو أبعد عن التكلُّف وأقرب إلى البساطة (بالمعنى المتعارف لا بالمعنى اللغوي) من أبي الحسن، فهو في لباسه كما وصف الشاعر إقبال يلبس أيسر لباس، وأرخصه، وأبعده عن الزهو والتعالي، قميص طويل تحته سراويل واسعة، وهو لباس أكثر من عرفت من علماء الهند.

قرأت له أولاً، ثم عرفته واتصل حبلي بحبله في لكهنؤ سنة ١٩٥٤، وفي موسم حج سنة ١٣٨١ هـ، وكان من قبل قدم دمشق أستاذاً زائراً في جامعتها، وما كُتِبَ لي أن ألقاه، لأنني معتزل، بعيد عن مجامع الناس، أمضيت شبابي في ذلك، وامتدَّ معي إلى شيخوختي، فأنا لا أكاد أخرج من داري، ولا ألقى إلاّ نفراً من إخواني ومن أصحابي، فلما عرفت أبا الحسن من قرب، صار أحد الذين اصطفيتهم وأحببتهم واحترمتهم.

والناس عندي أصناف ثلاثة: منهم من أحبه وأحترمه، ومنهم من أحترمه لعلمه وفضله، ولكني قد لا أحبه لغلظته وثقل ظله، ومنهم من أحبه ولكني لا أحترمه، فكان أبو الحسن من النفر القليل الذين أوليتهم حبي واحترامي، والذين أنطلق حين أكون معهم على سجيتي، أظهر ما أخفيه، وما أكتمه عن الناس أبديه، أقول ما يخطر على بالي، أكون معهم آمناً مطمئناً إليهم، واثقاً بهم.

جمعني الحج سنة ١٣٨١ هـ بأبي الحسن، وبالشيخ المعمَّر الصالح الشيخ حسنين مخلوف مفتي مصر الأسبق، والشيخ القلقيلي، الذي كان مفتي الأردن، وكان صديقاً عزيزاً، فدعينا إلى القصر الملكي في الأبطح، أي في (المعابدة)، فاعتذرت على عادتي، ولكن المُفْتِيَيْن وأخي وصديقي الأستاذ الصوّاف ألزموني الحضور، وكانت جلسة مباركة حضر أولها الملك سعود رحمة الله عليه، ثم تولى رياستها المفتي الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمة الله عليه، فولّى إدارتها عنه أخانا أبا الحسن، فبدا لي في ذلك المجلس جانب جديد من عبقريته المتعددة الجنبات لم أكن أعرفه من قبل، وهو أسلوبه في الإدارة، وهو أسلوب (زياد)، تشبه فيه بالرجل الذي دعاه رسول الله بالعبقري، ولم يدع بذلك غير عمر بن الخطاب، شدة من غير عنف، ولين من غير ضعف، وأنا أقول من قديم: إن القوة قد تكون مع اللين أكثر مما تكون مع الخشونة، فالفأس على لينها ونعومتها تقطع الحطبة على خشونتها. وكانت هذه الجلسة نواة «رابطة العالم الإسلامي»، وكان هؤلاء الأعضاء هم المؤسسين الأولين لها، وكنت واحداً منهم، ولكنني لعلمي أنني لا أصلح لها اعتذرت عنها. واجتمعت به في تلك السنة في المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية في المدينة المنوّرة، وخرجت منه أيضاً، وإن بقيتُ فيه وفي الرابطة وفي كل عمل إسلامي جندياً يعاون على كل ما ينفع المسلمين، لكنني لا أربط نفسي بأحد، فأنا أمشي في طريقي لا أبدِّله، فمن وجدته يمشي فيه رافقته وأعنته على ضعفي وعجزي على ما يريد من الخير، وإن انحرف عنه أو سلك غيره لم أمشِ معه.

عرفت أبا الحسن من قريب في مكة وفي المدينة وفي دمشق، وعرفته قبل ذلك في الهند، فوجدته في الأحوال كلها مستقيماً على الحق، عاملاً لله، متواضعاً زاهداً زهداً حقيقياً، لا زهد المغفَّلين الذين يعيشون وراء أسوار الحياة، لا يدرون ما الدنيا ولا يعرفون ماذا فيها، بل زهد العالم العارف بالدنيا وأهلها، فقد رأى الشرق والغرب، وزار الحواضر والأمصار، ولقي الكبار والصغار، وعاش صدر حياته في قصر الأمير نور الحسن ابن الأمير السيد صدِّيق حسن خان العالم السلفي والأمير الكبير، أسكنوه فيه بعد موت أبيه، فذاق حياة الترف والنعيم، ولكنه زهد فيها، فزهده ليس زهد الحرمان، ليس زهد الجائع الذي لم يجد الطعام، فوطَّن نفسه على فقده، بل زهد الذي فقد شهوة الأكل والأكل أمامه، يحضر المؤتمرات، ولكنه يجتنب الفنادق الكبار، التي ينزلون فيها الوفود، وينزل في بيوت تلاميذه، وما أكثر هؤلاء التلاميذ.

وإذا كان من بنى حصناً أو قاد جيشاً عدّ من العظماء، فأبو الحسن بنى للإسلام من نفوس تلاميذه حصوناً أقوى وأمتن من حصون الحجر، بنى أمة صغيرة من العلماء الصالحين والدعاة المخلصين.

* * *

وجدت أبا الحسن قد أكرمه الله فاستمكل مزايا الداعية الإسلامي الذي نطلبه ونفتش عنه، وتحت يدي وأنا أكتب هذه المقدمة محاضرة لي ألقيتها في مكة في موسم حج سنة ١٣٧٣ هـ، وأنا في العادة لا أكتب محاضراتي لذلك تضيع عند الناس، وأسأل الله أن لا تضيع عنده، لكن هذه المحاضرة كتبها إخوان ودونوها، فبقيت لديَّ، كان موضوعها «طريق الدعوة إلى الله»، ركزت ذهني فيها على ما أعرف من طرق الدعاة، من السرهندي[1] الذي دُعي مجدّد الألف الثاني، لأنه عمد إلى

---

(١) هو الإمام المصلح الكبير الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي (ت ١٠٣٤ هـ).

صرح الكفر الذي شاده الأمبراطور أكبر في الهند، فجاءه من القواعد بلين وهدوء كهدوء الماء ولينه، إذ يتسرب إلى أساس البناء، حتى إذا تشرَّبه ألانه، ثم جرفه فهدَّه. لقد هوى بناء الكفر، وقام من أحفاده الأمبراطور الذي قبس من نور الشيخ بل من ضياء الإسلام، فسار على هذا الطريق وهو أورنك زيب، فأقام صرح الإيمان. والإيمان معه دائماً العز والنصر، وله الدوام إلى آخر الدهر، ولو قامت في سبيله العقبات واعترضته الموانع فإن النصر له والعاقبة للمتقين.

ثم تكلمت عن طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي كان من نتيجتها ومن تحالفه مع الإمام محمد بن سعود أن وحَّد الله الجزيرة ونقلها من حال إلى حال، فصار تحولها مضرب الأمثال.

ومن كان أسلوبه في الدعوة بثُّ الأفكار، وتنبيه الناس، ومن عمد إلى الصحف والمجلات يدعو فيها إلى الإسلام.

وقد وجدت عند أبي الحسن وندوة العلماء النافع من هذه الطرق كلها، فهم يتخذون وسيلة التعليم وهي أصدق الوسائل التي يتوصل بها الدعاة، وإن كان ثمرها قد يتأخر في الظهور ولكنه مضمون، وما قيمة عشر سنين في تاريخ الأمم التي تمتد أجيالاً وأجيالاً، فأولى ما يقوم به الدعاة إلى الله هو أن يُعْنَوا بالتعليم لإعداد الجنود لمعركة الكفر والإيمان، ولو بعد موعدها، فلقد أضعنا عشرات وعشرات من السنين.

أنا شهدت في حياتي ست عشرات من يوم كنت شاباً وأدركت ما حولي، ضاعت علينا، ولو أننا سلكنا فيها هذا الطريق الواضح لوصلنا، أليس هذا هو طريق رسول الله عليه الصلاة والسلام؟، ألم تنتقل الدعوة الإسلامية من واحد إلى واحد؟ لقد دعا الرسول عليه الصلاة والسلام إلى ما يشبه المحاضرة مرة واحدة لما جمع الناس عند الصفا، فانبرى له أبو لهب بتلك الكلمة الفاجرة، فلم يَدْعُ الناس بعد إلى مثلها، بل كان إذا دهم المسلمين أمر دعاهم وحدهم إلى الصلاة الجامعة في المسجد.

* * *

فيا أخي أبا الحسن أُثبُت أنت وجماعتك على ما أنتم عليه، فإنني لا أعرف اليوم في أساليب الدعاة من هو أصح منكم أسلوباً، واعذرني إذا لم أكتب المقدمة التي أمرتني بها.

إن المقدمات إنما تكون للتعريف بمؤلف مجهول، وأنت أعرف مني، ومثلك لا يحتاج إلى من يقدمه للناس.

ومع ذلك، يا أخي أبا الحسن: لقد امتثلت أمرك، وكتبت، ولكن هذا الذي كتبته كله لا حاجة إليه، ولا محل له من الإعراب، فعمَّ أعرب وأنت مستغن بمعرفة الناس إياك وبما احتواه كتابك، عمن يعرفك؟ فاقبل معذرتي، واسأل الله أن يشدّ من أزرك وأزري، وأن يوفقك ويوفقني، وأن ينفع الناس بعلمك وفضلك وجهادك، والسلام عليك ورحمة الله.

علي الطنطاوي




محمد محمود الصوّاف
يقدّم
المخطّطات الاستعماريّة
لمكافحة
الإسلام

مقدمة

بقلم
الأستاذ الكبير الشيخ علي الطنطاوي

عرفت أخي الصواف في مصر سنة١٩٤٥ م. وكنت قد ذهبت إليها بعد غيبة عنها امتدت سبع عشرة سنة. وحضرت (حفلة) أقامها لي ولمن جاء معي، الأستاذ الشيخ حسن البنا رحمه الله، المرشد العام للإخوان المسلمين ومجدِّدُ الإسلام في هذا العصر، وكانت قد جمعتنا (دار العلوم) سنة ١٩٢٧، فما نسي وهو في أوج مجده رفيق صباه، وتفضل فأقام له هذه الحفلة.

وكان ممن خطب فيها شاب جسيم وسيم، بعمامة شامية لا تشبه عمائم المشايخ في مصر. وكان يهدر في خطبته ويقذف بكلماتها متدافعة متلاطمة، كأنها النهر المزبد الجياش، وقد تورد من فرط الحماسة وجهه، وتقاطر عرقه، فسألت عنه فوصفوه لي بإعجاب، وعرفوه بفخر، وإذا هو طالب موصلي يدرس في الأزهر اسمه محمد محمود الصواف، وتقصَّيت خبره فعلمت أنه أعدى بحماسته من كان حوله في الأزهر، من مدرسين وطلاب، وبثَّ فيهم من شبابه روح الشباب، ثم اتصل بالشيخ المرشد العام رحمة الله عليه فكان من أوثق الشبان صلة به وأدناهم منزلة من قلبه.

ورجعت من تلك السفرة إلى الشام وسمعت أنه أكمل دراسته

ورجع إلى العراق، ولكن لم ألقه في تلك السنوات إلا في زيارته لسورية، فكنت أسمع منه من أخبار النهضة الإسلامية التي أحدثها في العراق، مثل الذي كنت أسمعه عنه، إلى أن كان المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في القدس سنة **١٩٥٣** م.

وكانت الدعوة إلى هذا المؤتمر من جمعية إنقاذ فلسطين في بغداد، وبطاقاتها مذيلة باسم (أمجد الزهاوي) و (محمد محمود الصواف)، ونفقات المؤتمر على هذه الجمعية، وعلمت أن هذه الجمعية ثمرة من ثمرات نشاط الصواف، وأنها قد أمدت مجاهدي فلسطين بالمال وبالسلاح، وبعثت إليهم بالمجاهدين الذين دربتهم على القتال، وأعدتهم له.

والشيخ أمجد الزهاوي عالم العراق، وهو بركة العصر. ما أعرف مثله في اهتمامه بأمور المسلمين، وحمله المشاق في سبيل القضية الإسلامية، على علو سنه وكثرة ماله. وكان يستطيع لو شاء أن يقضي شيخوخته في راحة ودعة، ولكنه آثر الجهاد على القعود، وإنفاق المال على الدعوة على إنفاقه في المتعة والرفاهية.

ومن الحق أن أقرر أن للأخ الصواف عملاً كبيراً في نشاط الشيخ وجهاده، فلقد كان ـ مدَّ الله في عمره[١] معتزلاً . منصرفاً إلى العلم والتعليم، أمضى في ذلك شبابه، فلما اتصل به الصواف، كان للشيخ من شيخوخته شباب يعجز عن مجاراته فيه أقوياء الشبان.

وانعقد المؤتمر، وكان الصواف لولبه ومحركه، لا يفتر ولا يستريح، ثم كان من ثمراته أن أوفد وفداً يطوف العالم الإسلامي، يؤسس المكاتب لنصرة فلسطين ومساعدتها وإمدادها بالمال، وكان الوفد مؤلفاً من الشيخ أمجد والصواف وأنا، وقد اضطرت الصواف ظروف الدعوة أن يعود من كراتشي إلى بغداد، ومشينا نحن إلى الهند والملايا

---

(١) توفي العلامة الكبير بركة العصر الشيخ أمجد الزهاوي عصر يوم الجمعة ١٤ شعبان ١٣٨٧ عن ٨٧ عاماً، ودفن في مقبرة الإمام أبي حنيفة ببغداد (مَجْد).

وأندونيسيا، ومن أحب أن يعرف طرفاً مما صنعنا فليقرأ مقدمة كتابي (في أندونيسيا)، وقد صنعنا بحمد الله كثيراً لفلسطين، وإن كنا (والحمد لله مرة أخرى) قد قررنا ألا نستلم شيئاً من الأموال، وأن نكتفي بالدعوة إلى الإنفاق، ومن شاء أن ينفق أرسل ما يتبرع به إلى مكتب المؤتمر في القدس.

بدأنا هذه الرحلة بالسفر من الأردن إلى العراق، فوصلنا الرمادي قبيل الفجر، في ليلة باردة ممطرة من ليالي كانون، ذات رياح تلفح الوجوه، وإذا نحن نجد مئات من الشبان قد جفوا فرشهم الدافئة وتركوا بيوتهم المريحة، وذهبوا في الطرق في هذه الليلة الفظيعة، ينتظرون الصواف لما سمعوا بقدومه.

ثم ما كنا ندخل بلداً ونحن في الطريق إلى بغداد إلا وجدنا مئات من أمثالهم. بغداد التي كنت أدرس فيها، والتي أقمت فيها من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٩، فما كنت أجد فيها من المتدينين إلا طائفة من المشايخ، وما كان فيها من الجمعيات إلا جمعية الشبان المسلمين، ومالها من عمل إلا أنها تقيم كل سنة مهرجاناً للمولد، ثم إذا انقضى نامت إلى المولد القادم، وجمعية الهداية الإسلامية التي كان يقوم عليها الشيخ الطائي. وأشهد أن الطائي كان يتحرق ألماً لحال المسلمين في بغداد يومئذ، ويعمل كل ما يستطيع. تعطل الحكومة مجلة (الهداية الإسلامية) فيخرجها باسم (الصراط المستقيم)، وكنت أكتب فيها أحياناً، ونجتمع فنتشاكى ونتباكى ولكن لا نقدر على شيء.

فلما عدت مع الصواف، ودخلت دار جمعية الأخوة الإسلامية، ووجدت الآلاف من الشبان في دار (الأخوة)، وتذكرت الآلاف التي رأيناها في القرى والمدن على الطريق، لم أصدق أنني في بغداد، وعرفت مبلغ التوفيق الذي كتبه الله للصواف، حين حقق هذا كله على يديه.

وللأخ الصواف أثر في كل بلد إسلامي، وما بلد إلا ويعرف من رجال الدعوة فيه، والعاملين من علمائه، أكثر مما يعرف أبناؤه. وأشهد أنه طالما عرفني بناس من الدمشقيين في دمشق، أعيش معهم من نصف قرن، فما عرفتهم حتى جاء هذا (الموصلي) فعرفني بهم.

ولقد جلت معه في كثير من بلاد المسلمين، فما يكاد يلقى أحداً حتى يخاطبه باسمه ويخوض معه في خاصة أمره، ولا أعرف من أوتي مثل هذه الحافظة للأسماء إلا الشيخ البنا رحمه الله والأستاذ سعيد رمضان. أما أنا فأعرف الرجل اليوم باسمه، فإذا لقيته بعد يومين نسيت اسمه وتذكرت وجهه. وأما أستاذنا الزهاوي حفظه الله، فينسى الرجل واسمه بعد ساعة واحدة، وإن كانت له مزايا أخرى، مزايا أجل وأكبر، لا يتعلق بها واحد منا.

ولما أشيع أن الشيوعيين على عهد قاسم في العراق قتلوا الصواف، أذعت رثاءه من إذاعة دمشق، فلما جئت أقول (رحمه الله) ما طاوعني لساني، وغلبني البكاء فبكيت وأبكيت الملايين من السامعين، لما للصواف في قلوبهم من الحب، الحب لله لا للدنيا، وما لأكثرهم صلة به وما عرفوا وجهه، وبلغ من ذلك أن زوجتي لما سمعت أن الخبر قد يكون مكذوباً، نذرت أن تذبح لله كبشاً إن تحقق كذبه، وقد وفت بهذا النذر.

وبعد فإن هذا الكتاب لا يحتاج إلى مقدمة، والصواف لا يعوزه تعريف ولكنه أحب أن يشرفني فيجعل لي كلمة في أول هذا الكتاب.

وليست هذه الكلمة مقدمة، وليست ترجمة للمؤلف استقصي فيها أخباره، فأخباره أكبر من أن تتسع لها كلمة، ولعل الله يحقق من الخير على يديه فيما يأتي من الأيام أكثر مما حقق على يديه فيما مضى، وأن يجعله ويجعلنا ممن يبتغي بعمله وجهه، وأن يكثر في الناس من أنصار الحق ـ وأن يرزقهم النصر على الباطل وأهله.

مكة المكرمة، غرة رجب ١٣٨٤.

علي الطنطاوي



محمد محمود الصواف



توزيع
الدار السعودية للنشر
جدة

رسالة
من فضيلة الأخ الأستاذ الكبير
الشيخ علي الطنطاوي

أخي الأستاذ الصواف:

رحبت بما سمعت عن عزمك على طبع ما كتبته في موضوع (دوران الأرض). لا لأن فيه رداً على مقال الشيخ الجليل ابن باز، بل لأن أعداء الإسلام استغلوا ذلك المقال وعلقوا عليه تعليقات، ملأت الصحف الأوربية والأميركية، نالوا فيها من الإسلام بالباطل، فوجب الدفاع عن الإسلام بالحق، وبيان أن الذي كتبه الشيخ ابن باز رأي له، قد يكون له قبول عند بعض العلماء، ولكنه ليس حكم الإسلام القطعي في هذه المسألة، وجمهرة علماء المسلمين في جميع أقطار الإسلام على خلافه.

والشيخ ابن باز عالم جليل، ولكنه لم يدع لنفسه ولا ادعى أحد له العصمة من الخطأ، وما من العلماء إلا من ردّ ورُدّ عليه.

ثم إن المسألة أكبر من المجاملة، وأجل من أن تدخل في تقدير الأمور الشخصية. ولو أن الشيخ ابن باز حفظه الله، رأى مقالة لأقرب صديق إليه، وأجلّ عالم عنده، وتيقن أن فيها ما يجانب الحق، لما منعته صداقته له ولا إجلاله إياه، من أن يردَّ عليه. وأظنه لا يحرم غيره حقاً يراه هو لنفسه.

وبعد. فالذي أعرفه أن الإسلام ليس فيه نصٌ قطعي من كتاب أو سنة، ولا دليل من إجماع أو قياس، على دوران الأرض، ولا على سكونها. وأن الله لم يكلفنا اعتقاد شيء من ذلك، ولا يسألنا عنه يوم القيامة.

ومن المبادىء المسلّمة أن الأمر الذي قضى فيه الشرع بوجود أو عدم، أو حلّ أو حرمة، أو استحسان أو استقباح، قضاء قطعياً، لا خيرة لنا فيه، ولا بد من الوقوف فيه عند حدِّ الشرع ظاهراً وباطناً، علماً وعملاً.

وما لم يقض فيه الشرع بشيء، رجعنا فيه إلى الحسّ وإلى العقل. فما صح عندنا أثبتناه، وما لم يصح تركناه. ولا يؤاخذنا الله بإثبات ولا ترك، مادام الشرع قد ترك الأمر لنا.

ودوران الأرض أمر مشاهد، مقطوع به، كان معلوماً (علماً نظرياً) بالأدلة العقلية، فصار معلوماً (علماً ضرورياً) بالحس ومشاهدة الأرض من المركبات الفضائية، وعرض الصور التي التقطت لها في الرائي (أي التلفزيون) وفي الخيالة (أي السينما). وصار القول بدوران الأرض من البديهيات التي لا ينازع فيها اليوم أحد.

أما الآيات التي يرى فيها منكرو الدوران دليلاً لهم، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾. فليس فيها دليل. لأن (ماد) عند العرب بمعنى (مال) هو باب معروف. والميلان حركة اضطرابية، والسير حركة انتقالية. فإذا نفى الله عنها الميلان فلا يفهم منه نفي الحركة الانتقالية.

بل ربما كان في الآية (إشارة) إلى مسيرها. لأن الآية دلّت على أن الجبال مثل الثقل للأرض لئلا تميد، أي تضطرب في سيرها. كالزورق إذا كان فارغاً، وضعوا فيه الحجارة أو أكياس الرمل، لئلا يضربه الموج فيضطرب.

أقول في الآية (إشارة) فقط، وإلا فالصحيح ما قلته أولاً عن الإسلام، إذ ليس فيه دليل قطعي لا على حركة الأرض ولا على نفي الحركة عنها، وعلى مدّعي عكس هذا أن يأتي بالدليل، وما ساقه الشيخ الجليل ابن باز ليس فيه ما يعتبر نصاً في المسألة، أو دليلاً أصولياً على دعواه.

هذا ولا يزال في العالم الإسلامي علماء بحمد الله، وقد اتصلت منذ نشر مقال الشيخ ابن باز الأول بعدد عديد من علماء الأقطار الإسلامية، في رحلتي في الصيف، وفي مكة عند اجتماع مجلس الرابطة، وذكرت لهم موضوع المقال، فلم أجد واحداً منهم يؤيد ما فيه، إلا صديقنا الشيخ محمد الحامد من حماه، في الكتاب الذي أصدره أخيراً[1]. وله وللشيخ ابن باز أجر، ولك ـ أخي الصواف ـ ولمن يقول بقولك أجران. ولست أوزع الأجور، ولكن أشير إلى الحديث.

وجزاك الله خيراً، على قصدك الحسن في الدفاع عن الإسلام. وأنا أرى أن تعمد بعد طبع ما كتبت بالعربية، إلى ترجمته إلى المشهور من أَلْسِنَةِ القوم، وإرساله لينشر في الجرائد التي اتخذت من مقال الشيخ طعناً على الإسلام وأهله، ليروا أن في علماء المسلمين من لا ينكر الأمور الحسية والمسلمات البديهية، من غير استدلال بدليل قطعي من الدين. ومن قبل قال شيخ الإسلام ابن تيمية، إنه ليس في الدين أمر ثابت يناقض أو ينافي أمراً ثابتاً في العقل أو الحسّ وما قاله هو الحق.

مكة المكرمة

علي الطنطاوي

---

(١) وهو كتاب «ردود على أباطيل وتمحيصات لحقائق دينية» ذهب فيه إلى القول بثبات الأرض، تحت عنوان: (القرآن الكريم لم ينزل لنستنتج منه النظريات العلمية)، (موقف المسلمين من النظريات العلمية) ص٥٧٩ ـ ٥٨٨ من طبعة قطر (مَجْد).



عني بجمعه وتفصيله

محمد فارس بركات

كلمة الأستاذ علي الطنطاوي

مستشار محكمة النقض

لما كلفني الأستاذ فارس بركات بكتابة هذه الكلمة، رجعت بي الذكريات خمساً وأربعين سنة في طريق العمر، رجعت بي إلى سنة ١٩١٤ وكان أول عهدي بالمدرسة، وكنت في المدرسة التجارية القديمة لما كانت في دار مردم بك، فكان الشيخ المكلف بتعليمنا يحبسنا نحن الصغار في قاعة الدار فلا نخرج حتى نكتب الدرس أربعاً وعشرين مرة، وما كنا نعرف ما الدرس وما الكتابة، فكنا نقعد على الأرض، مصطفين من حول الشيخ، ننظر من النوافذ إلى صحن الدار حيث يلعب التلاميذ ويمرحون كما ينظر السجين إلى الدنيا الحرة من نافذة السجن، وكنت أحس بغصة في نفسي بلغ من هولها أني لا أزال إلى الآن (بعد خمس وأربعين سنة) أجد آثارها فيها كلما ذكرتها، وأحسب أني لو بقيت عند هذا الشيخ والشيخ الآخر، الذي كان (كتّابه) في المدرسة الآجرية، ولو لم يتداركني الله بمعلمين: شاب وشيخ، لانقطعت عن العلم، ولكنت عامياً جاهلاً.

ذهب هذا الشيخ يوماً بعدما جرعنا بأسلوب تعليمه الصاب والحنظل، وأرانا أفظع هموم الحياة ونحن لم نكد ندخل باب الحياة، وجاءنا شاب صغير لولا أنهم قدموه لنا معلماً لظننته تلميذاً كبيراً من تلاميذ المدرسة، ولعله كان كذلك، فكان لنا معلماً وكان رفيقاً وكان مؤنساً ومسعداً، وبفضله بدأت أذوق حلاوة التعلم، ثم انتقلنا إلى فصل الشيخ الذي أكمل بلطفه وبعطفه ما شرع به الشاب.

أما الشيخ فهو الشيخ كامل البغال مد الله في عمره، وأما الشاب فهو مؤلف هذا الكتاب.

وضرب الدهر بيني وبينه، ولم أعد أعرف عنه شيئاً، حتى أيفعت وبلغت حد الشباب، فإذا الأستاذ فارس صاحب مكتبة في المسكية، وإذا هو لم يسلك طريق الشهادات والوظائف، ولكنه سلك طريق العلم الصحيح والعمل الحر، فبارك الله له في علمه وفي عمله، وأفاض عليه منهما الخير لنفسه وللناس.

وكان أكثر انشغاله بكتاب الله، يتدارسه مع الرجل النابغة العبقري الشيخ عارف القلطقجي الذي صحبته حيناً، لما كان مدرساً في مدرسة الشيخ شريف الخطيب رحمة الله عليهما، فوجدته أعجوبة، ولو أحصيت نوابغ المكفوفين لوجدته في الطليعة منهم، فقد كان حافظاً لكتاب الله، راوياً لمئات ومئات من المقطوعات والقصائد من الشعر القديم والحديث، عارفاً بالعربية ملماً بالفقه والحديث إخبارياً محدثاً، وكان موسيقياً عارفاً بالأنغام عازفاً ممتازاً، وكان ملحناً مشهوداً له، وكان يشتغل بنظم الخرز فيصنع منه صوراً منقوشة ملونة، يعمل ذلك بيديه وهو يتحدث أو يناقش، وكان في ذكائه ودقة حسه، وسرعة جوابه، وقوة بديهته، وارتجاله الشعر، من نوادر الزمان[1].

وكان للأستاذ فارس الفضل بأنه كان هو الذي يقرأ له، ويناقشه فيما يقرأ، واستمر على ذلك عشرات من السنين لا عشراً ولا عشرين، فأفاده واستفاد منه، وقرأ كتباً لو امتدت الحياة الجامعية أضعافاً، لما قرأ فيها بعض هذه الكتب. وللأستاذ فارس مع هذا العلم وهذا الجد (الذي رأى الناس آثاره في كتابه المرشد وسيرونها في هذا الكتاب)، له مع

---

(١) ولد الأستاذ عارف القلطقجي سنة ١٣٠٥ وتوفي سنة ١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م رحمه الله تعالى. له ترجمة في «تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري» ٢: ٦٤٨ ـ ٦٤٩ أكثرها مستفاد من مقدمة الشيخ الطنطاوي لكتاب «الجامع» (م).

ذلك خلق ندر مثله في الناس، فهو من أهل الصدق في القول وفي العمل، في زمان قل فيه الصادقون.

وبعد فما أردت أن أكتب مقدمة للكتاب، وما يحتاج إلى مقدمة، فهو فهرس كتاب الله، ولكنها كلمة كتبتها امتثالاً لأمر (أستاذي) القديم، وفرصة افترصتها لأذكر له فضله وأشكر له يده التي لا يعرفها هو[1].

بقي عليّ أن أشير إلى أن ترتيب الآيات في السور، والسور في القرآن، توقيفي، ولو شاء الله لأنزله على الموضوعات، ولكن حكمة الله فيما أمر به على لسان رسوله ﷺ وهذا الكتاب ليس فيه تبديل لما كان بأمر الله، ولكن فيه (فهرساً) لكتاب الله، يعين الباحث، ويفيد المجتهد، ويوفر على العالم والمتعلم وقتاً طويلاً، وجهداً كبيراً، وما جاز في الفهرس اللفظي (الذي كان في المرشد والكتب التي قبله) يجوز مثله في هذا الفهرس العلمي. ولم يفعله السلف، لأنهم كانوا يجدون من كثرة الحفاظ، وانتشار الحفظ، مالا يحتاجون معه إلى فهارس.

وجزى الله المؤلف والناشر أحسن جزاء.

ووفق المطبعة الهاشمية إلى طبع المصحف بالرسم المعروف، وقد سمعنا أنها تنوي ذلك، فتدفع عن الناشئة والطلاب ما يقعون به من الخطأ في التلاوة في مصحف فؤاد، الذي التزم فيه الرسم العثماني القديم.

وأسأله تعالى أن يوفقنا جميعاً إلى ما فيه رضاه.

علي الطنطاوي

---

(١) توفي الأستاذ محمد فارس بركات سنة ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م.

وللأستاذ فارس بركات: «المرشد إلى آيات القرآن الكريم وكلماته» وهو من أشهر الفهارس للكشف عن آيات القرآن وكلماته، قدَّم له العلامة محمد بهجة البيطار، وصدرت طبعته الأولى في المكتبة الهاشمية سنة ١٣٥٨هـ = ١٩٣٩م.
أما (الجامع) الذي قدم له الأستاذ الطنطاوي فقد صدرت طبعته الأولى في المكتبة الهاشمية أيضاً سنة ١٣٧٩هـ = ١٩٥٩م (مَجد).

لمحات

في علوم القرآن

واتجاهات التفسير

تأليف
الدكتور محمد بن لطفي الصباغ

المكتب الإسلامي

مقدمة

بقلم الأستاذ الكبير

الشيخ علي الطنطاوي

كانت العناية، على عهدنا بالطلب، بالفقه وبالنحو. يرون أن الفقه ثمرة علوم الدين، لأنه يبين الحلال من الحرام، والنحو خلاصة علوم العربية، لأنه يعصم الإنسان من الخطأ في الكلام.

وكان الفقه يلقى علينا أحكاماً بلا دليل كمواد القانون، والنحو قواعد بلا شواهد، وكان ذلك هو القاعدة في مناهج المدارس، وفي طرق القراءة على المشايخ، وهما أسلوبان كنت أنا أول ـ أو من أوائل ـ من جمع بينهما في الشام، ثم إذا تقدم الطالب قرأ مع النحو البلاغة، ومع الفقه الأصول، وربما قرأ رسالة في المصطلح، وكانوا في ذلك كله يفضلون (لاسيما في الدراسة على المشايخ على الطريقة الأزهرية) يفضلون الأراجيز كالألفية، والزبد، والجوهرة، يحفظها الطالب غالباً بلا فهم.

أما علوم القرآن فلم يكن لها ساعة مخصوصة، ولا كتاب معين نقرؤه، وإنما هي أشتات من المسائل، تأتي عرضاً في درس التجويد أو الحديث، وأكثر ما استفدته منها كان من المشايخ الذين جودت عليهم تلاوتي، ولا أقول: إنني صرت من المجودين أو إنني ممن جمع القراءات، وإنما وصلت بحمد الله إلى أن أقرأ قراءة صحيحة.

كان منهم شيخ القراء الجامع على الشاطبية وهو الشيخ محمد

الحلواني، وكان في جامع التوبة، في حيّنا في العقيبة، والشيخ عبد الله المنجد الجامع على الطيّبة، والشيخ عبد الرحيم دبس وزيت، وولده تلميذ أبي وشيخي الشيخ عبد الوهاب. وممن استفدت منهم أيضاً: الشيخ صالح التونسي في دروسه العامة في الجامع الأموي، وحينما كان يعلمنا في المدرسة الجقمقية عند الشيخ عيد السفرجلاني معلم الشام نحو سنة ١٣٣٧.

وأول كتاب في علوم القرآن وقعت يدي عليه، هو كتاب «التبيان»[١] لشيخ مشايخنا الشيخ طاهر الجزائري مربي الطبقة التي سبقتنا من أساتذتنا، والذي كان من تلاميذه المقربين محمد كرد علي، ومحب الدين الخطيب، والشيخ سعيد الباني.

وكان من ثمرات جهده وإخلاصه في عمله: المكتبة الظاهرية، والمدارس الابتدائية الرسمية، وعلى يده وبمسعاه تم فتح مدارس البنات في الشام، ومن أوائل من تعلم في هذه المدارس وأخذت منها شهادتها عمتي، وكانت شهادتها عندي وتاريخها سنة ١٣٠٠ هـ في مطلع القرن الماضي، وكان مما تدرسه البنات رسالة صغيرة كانوا يدعونها (علم حال) كما سماها الأتراك، وهي لمفتي الشام الشيخ محمود الحمزاوي، أو محمود أفندي الحمزاوي، كما كنا نلقب من يلي القضاء أو ينصب للإفتاء. وبقيت عمتي رحمها الله إلى آخر عمرها تحفظ هذه الرسالة غيباً، فإذا سألتها ما الفرض؟ قالت: الفرض ما ثبت بدليل قطعي متناً وسنداً، والواجب... تكرُّها كراً.

وفي هذه الرسالة مسائل من الأصول قليلة، ومسائل كثيرة من الفقه على المذهب الحنفي الذي كان المذهب الرسمي للدولة العثمانية.

---

(١) صدرت الطبعة الأولى بمطبعة المنار في القاهرة سنة ١٣٣٤ وطبع أخيراً بعناية الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة سنة ١٤١١ ببيروت (مَجْد).

ثم رجعت إلى الأصل الذي استمد منه الشيخ طاهر وكل من ألّف في هذا الموضوع من بعده، وهو «الإتقان» للسيوطي.

و «الإتقان» ليس معرضاً فيه سلع مرتبة مصفوفة، مصنفة يمتاز جيدها من رديئها، ولكنه مستودع فيه البضائع مركومة ركماً من كل نوع وكل صنف.

وتلك كانت سنة التأليف على عهد السيوطي. فقد بدأت العلوم كما يبدأ كل شيء، صغيراً: مسائل تضم إلى مسائل، كالسواقي التي تأتي من الينابيع، ثم تكون جدولاً، ثم تصير الجداول نهراً، ثم يتجمع ماء النهر في بحيرة كبيرة.

تألفت من هذه المسائل فصول، ومن الفصول كتب، ولو صنعنا صنيع الرياضيين، فصورنا ذلك بخط بياني، لرأيناه يصعد ويصعد حتى إذا كان القرن الرابع والخامس كان قد بلغ غاية صعوده، ثم مشى مستقيماً لا يرتفع ولا ينخفض، ثم بدأ النزول والانخفاض.

ولكن الله قيض لهذه العلوم قبل أن تبدأ بالانحطاط من يجمع متفرقها ويحشد مسائلها، في كتب شاملة، فكان عصر ما يسمى بـ (دوائر المعارف) أو (المعلمات). وأنا أقول لدائرة المعارف (Encyclopedea): معلم على وزن معجم، وأراه أفضل من قولنا معلمة ومعلمات.

فكان منها «الإتقان في علوم القرآن»، و «المزهر في علوم اللغة»، و «نهاية الأرب» و «صبح الأعشى» وأمثالُها. كتب كبيرة يختار منها، ولا تؤخذ كلها، كمعرض للثياب فيه الأزياء العربية والإفرنجية، وملابس البدو والحضر، والرجال والنساء. في هذه الكتب الرأي ونقيضه، همُّ مؤلفيها الجمع لا التحقيق والتمييز والتصنيف، واستمرت الحال كذلك حتى انقضى ما يسمونه بعصور الانحطاط، وبدأ عصر النهضة الجديدة، فرأينا في الشام من يؤلف الكتب الكثيرة، لكن على

طريقة «الإتقان» و «المزهر»، ككتب شيخ مشايخنا الشيخ جمال الدين القاسمي.

ومن قرأ كتابه «قواعد التحديث» مثلاً، أو رجع إلى مقدمة تفسيره، وجد نقولاً نادرة قيد أوابدها، وجمع شواردها، لكن لم يؤلف بينها ولم يتخير أرجحها وأقواها، فكأنَّ عصره امتداد لعصر السيوطي، وأسلوبه في التصنيف استمرار لأسلوبه، وهو جمع المعلومات في كتاب واحد، كما يجمع التاجر في المستودع أكبر قدر من السلع والبضائع.

ومن المؤلفين طبقة أعلى من هذه الطبقة، جمع أصحابها قدراً أقل من المعلومات، فرتبوها وصنفوها وميزوا الأصيل منها من المقلد، وفرقوا بين المؤتلف والمختلف.

ودرجة أعلى من المصنفين، هم الذين يأخذون هذه المعلومات وهذه الأخبار والمرويات، فيدخلها أحدهم ذهنه كما تدخل أبّالات القطن (البالات) إلى مصنع النسيج فتخرج منه قماشاً عليه شارة المصنع، وذلك مثل الغزالي.

وإن كان الغزالي في «الإحياء» قد خلط الصوفية التي انتهى إليها بالطريقة الفكرية التي عاش عليها، فكأنَّ الواحد فيه صار اثنين: الغزالي العالم الذي يحكِّم عقله في ترجيح الروايات، وفهم النصوص، وهذا هو عمل العقل فيها، كما قال ابن خلدون، والغزالي الصوفي الذي يدع الحقيقة الشرعية التي يعرفها، ويعتمد مشاعر قلبه، وما تلقفه عمن جعلهم مشايخه من الصوفية، وهو أعلم وأجل منهم. والعجب كما قلت من قديم أن الغزالي كتب هذا الكلام في الإحياء في القرن الذي توالت علينا فيه المصائب من الشرق والغرب، وجاءنا العَدُوّان القويان الهمجيان يفسدان ديننا ويقوِّضان أركان حضارتنا: التتار والمغول الشرقيون، والصليبيون الأوروبيون، يوم كانت أوروبة يعيش أهلها كالذئاب، في

أعماق الغاب. وأتصور أحياناً ماذا يكون حال المسلمين لو أنهم أخذوا بما جاء في «إحياء علوم الدين» فقللوا الأكل حتى أصابهم الهزال، وربما أدى بهم إلى السل، وقصد كلٌّ ركناً مظلماً فعاش فيه عيشة الخمول!! من كان يجاهد في سبيل الله؟ ومن كان يرد هذا العدوان عن دين الله؟[١].

* * *

ولقد كان في عصر الشيخ طاهر من نحا في التأليف منحى الغزالي[٢] وإن لم يجاره ولم يدانه، وهو العالم الذي لا يتنبه إليه ويعرف فضله إلا القليل. كان له كتابان، من قرأهما أدرك صحة ما قلت عن مؤلفهما، هما كتابه «عمدة التحقيق»[٣] وكتابه الذي ألفه عن حكم لبس الحرير[٤]، وهو شيخنا الشيخ سعيد الباني. جاء به الأستاذ محمد كرد علي لما فتحت مدرسة الآداب العليا التي دعيت من بعد كلية الآداب سنة ١٩٣٠ م، جاءنا به بعدما ذهب شبابه وضعفت همته، فلم يجد الطلاب فيه ما كانوا ينتظرونه منه. ولعلكم تعجبون إذا قلت لكم: إنه كان معنا بين الطلاب من هم أساتذتنا، ومن هم في السن مثل آبائنا، كالشيخ زين العابدين التونسي، والأستاذ عبد الغني الباجقني. جاؤوا لا ليحصلوا علماً لا يعلمونه، ولكن ليحملوا شهادة تنفعهم في وظائفهم.

---

(١) ولا يزال الغزالي، لولا هذا، المفكر الإسلامي الأول.

(٢) نحا منحى الغزالي في تفكيره العلمي لا في اتجاهه الصوفي.

(٣) صوّره المكتب الإسلامي مجدداً.

(٤) واسمه: «الكوكب الدري المنير في أحكام الذهب والفضة والحرير» طبع في دمشق سنة ١٣٤٩هـ = ١٩٣١م في ٢٧٨ صفحة.
وللأستاذ الباني: «الفَرْقدان النيِّران في بعض المباحث المتعلقة بالقرآن» و«تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر» و«قلائد الياقوت والزبرجد في سيرة سيدنا محمد ﷺ». وتوفي العلامة محمد سعيد الباني سنة ١٣٥١هـ = ١٩٣٣م رحمه الله تعالى (مَجْد).

والشيخ سعيد لم يتزوج، ولم يخلف ولداً، ولكن له ابن أخ يتمنى كل عالم أن يشرف بأن يكون عمه، ذلكم هو العالم العامل الصالح الأستاذ عبد الرحمن الباني.

* * *

ثم كثرت المصنفات في علوم القرآن، فكان من أجمعها كتاب العالم الذي صحبته في مصر حيناً، الشيخ عبد العظيم الزرقاني[1]، مؤلف «مناهل العرفان في علوم القرآن» وهو كتاب جليل، ولكنه لا يخلو من استطراد وتطويل، وربما اختار في الأمور الخلافية القول المرجوح وترك الراجح، وإن كانت هذه الهنات الهيّنات لا تسلب الكتاب قدره ولا تحط مؤلفه عن منزلته.

والذي يكتب في الأدب يكون حراً في اختيار الموضوع، حراً في أسلوب عرضه، يقول ما يشاء، ويمشي من حيث يشاء، أما الذي يكتب في موضوع ديني، فإنه لا يستطيع أن يخرج فيما يكتب عن الجادة المرسومة، ولا أن يجدد في الموضوع لأنه دين، والتجديد فيه رد على صاحبه، فلم يبق من مجال أمام مؤلفي هذه الكتب إلا التفاوت في جودة الفهم وحسن العرض. وليس ذلك سهلاً، وما كل من فهم مسألة استطاع أن يفهمها، وتبسيط العلم[2] ميزة اختص الله بها قليلاً من العلماء، أعرف منهم في عصرنا صديقنا بل أستاذنا الشيخ عبد الوهاب

---

(١) محمد عبد العظيم الزُّرقاني، نسبة إلى زُرْقان، وهي منطقة تابعة لمحافظة المنوفية، تخرج من كلية أصول الدين سنة ١٩٢٥، ودرس علوم القرآن والحديث بتخصص الدعوة والإرشاد، وله «المنهل الحديث في علوم الحديث» أشار إليه في «المناهل» ٢/ ١٣٧، ١٤٤، وله «البدع وموقف الإسلام منها» فرغ من وضعه ١٣٦٢، وتوفي سنة ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م رحمه الله تعالى (مَجْد).

(٢) أي جعله بسيطاً بالمعنى العامي لا الفصيح، لأن البسيط في اللغة هو الواسع المبسوط.

خلاف[1]، أول من عبّد للطلبة طريق الوصول إلى علم الأصول، وسهله ووضحه، ومنهم صديقنا بل أستاذنا أيضاً الشيخ شلتوت[2]. وإذا أنت رأيت معلماً يلقي المسألة فلا يفهمها التلاميذ، فيستوضحونه فيحاول التوضيح فلا يأتي بأكثر مما قال، فاعلم أنه حفظ المسألة وما فهمها، أو هو (بالتعبير الجديد) ما هضمها.

ومن فهم المسألة حقاً استطاع أن يفهمها الناس جميعاً لأنها تصير ملكاً له يتصرف فيها تصرف المالك بملكه، وألفاظ اللغة بين يديه يختار منها ما شاء بإرادته، فلا يزال يبدل لفظاً بلفظ وعبارة بعبارة، حتى يجد العبارة التي يوصل بها المسألة إلى أفهام التلاميذ. كبائع الثياب يأتيك بالثوب لتقيسه، فإذا وجدته عريضاً جاءك بأضيق منه، وإذا كان طويلاً أتاك بأقصر، حتى تجد الثوب الذي يلائمك ويصلح لك. ومن الأمثلة على هذا الطراز من المدرسين الشيخ الشعراوي في أحاديثه في التفسير وفي الإعجاز. وممن أوتوا هذه القدرة على التوضيح، وعلى حل المعقدات، حتى ليعجب السامع منها كيف انحلت عقدها، منهم في مجال الرياضيات والعلوم رجل إذا أنا ذكرت الحق في الثناء عليه اتهمت وصرت كالذي يمدح نفسه، رجل يدرس الرياضيات في الجامعة من أربعين سنة، يحملون إليه أصعب المسائل في الرياضيات بل وفي العلوم الطبيعية، فيرجعون وقد سهل صعبها وعم فهمها، عنده في ذلك طاقة نادرة، ولكن لا يدري بها إلا قليل، لأنه لا يمشي في ضوء الشهرة، بل يختار الممرات المظلمة والحارات الضيقة، هو أخي الدكتور عبد الغني الطنطاوي، جاء المملكة متعاقداً معه، بعدما أحيل على التقاعد (على

---

(١) أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق، وأحد أعضاء مجمع اللغة العربية، من مؤلفاته التي أشار إليها الأستاذ «علم أصول الفقه» و«تاريخ التشريع الإسلامي»، توفي الأستاذ الخلاف سنة ١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م رحمه الله تعالى (مَجْد).

(٢) محمود شلتوت شيخ الأزهر ١٩٥٨ إلى وفاته، له عدة مؤلفات، ورد عليه بعض أفاضل العلماء، توفي سنة ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م (مَجْد).

المعاش)، يدرس في جامعة مكة، من أربع سنين، ولكنهم لم يأخذوا منه إلا عشرة في المائة مما معه من علم، لا هو يعرض علمه ولا هم يدرون به فيسألونه عنه. وقريب منه في القدرة على الشرح والتوضيح الدكتور محمد الهواري، ومن هذه الزمرة من الأساتذة مؤلف هذا الكتاب الذي أقدم له.

إنه أحد (الفرسان الثلاثة) الذي عرفتهم تلاميذ صغاراً وأراهم اليوم ويراهم الناس أساتذة كباراً، عصام العطار، وزهير الشاويش، ومحمد لطفي الصباغ مؤلف هذا الكتاب، ولم ألقبه بعد بالدكتور لأنه إن كان في (الدكاترة) كثرة أخذوا الشهادة بحق واستغلوها لنصرة الحق وضموا إليها العلم، فإن منهم من شهادته كشهادة الزور في المحكمة، تدرَّج آلياً في مراحل الدراسة حتى وصل إليها، فانتهى عندها واكتفى بها، وصارت له مثل الصحيفة الصفراء، التي تجدون خبرها في الكتاب الخالد، والخلود في الدنيا مجازي لا حقيقي، وهو كتاب (كليلة ودمنة).

إن بدأ كثير من الدكاترة بهذه الورقة، ودخلوا للحصول عليها من الباب، فأخذوها بالحق، ثم جعلوها بداية طريق العلم، فثابروا على المسير فيه والصعود في مدارجه، فإن منهم من دخل في الليل من النافذة لا من الباب، فاستولوا عليها بالباطل.

أما الشيخ محمد الصباغ فقد نالها بعدما حمل من العلم ما يغنيه عنها، درس كما يدرس الطلاب في المدارس إلى آخر الجامعة، وقرأ على المشايخ في الشام، وصحب الفقيه المفكر (الشيخ صالح العقاد)[1]، وكذلك صنع أخونا الدكتور أمين المصري رحمه الله، ذهب يطلبها وهو عالم أزهري، ومدرس ألمعي، فكانت الدكتوراه للمصري

---

(١) العلامة الورع، شيخ الشافعية في عصره محمد صالح العقاد، المولود سنة ١٣١٠هـ والمتوفى سنة ١٣٩٠ هـ = ١٩٧٠م رحمه الله تعالى، ترجم له تلميذه الأستاذ محمد الصبَّاغ في مجلة حضارة الإسلام السنة ١١ (مَجْد).

وللصباغ قطعة حلوى على مائدته، إن وجدت نفعت ولذت، وإن فقدت ما ضرت وما جوعت.

ورب دكتورية (دكتوراه) هي خبز المائدة وإدامها، ليس عليها غيرها.

* * *

علوم القرآن مما ينبغي لكل مسلم متعلم أن يطلع عليها، أو على كبريات مسائلها، والكتب العصرية فيها كثيرة وفيرة، ومؤلفوها إخوان لي أحبهم وأقدرهم، وأشهد مع ذلك للأستاذ الصباغ من غير أن أشهد عليهم، أدل من يسألني على كتابه ولا أسلب تلك الكتب فضلها، ولا أذم أهلها، لأن كتاب الصباغ إن لم يكن خير هذه الكتب فهو من خيرها، إيجازاً في غير إخلال، وتوضيحاً بلا إملال، وفيه الشواهد والأمثال، ومما سرني منه أنه اختار في المسائل الخلافية ما أرى أنا (على قلة علمي) أنه الحق، كالخلاف في مسألة رسم القرآن. فالذي أذهب إليه من القديم، وأدعو إليه، وألح عليه، هو أن يكتب المصحف للطلبة وللعامة بالكتابة المعروفة (أي بالرسم المألوف).

ولا أقول: إنه أخذ ذلك مني، بل أحمد الله على أن رأيه وافق رأيي. ولقد كتبت من قريب فصلاً طويلاً فيما كنت أنشر كل أسبوع في جريدة الشرق الأوسط بعنوان (فتاوى)، وهذا الفصل ستقرؤونه إن شاء الله قريباً، حينما تجمع هذه الفتاوى في كتاب[1]. والعجب من اتفاق العلماء الآن من غير دليل لهم من كتاب ولا سنة، ولا نقل عن معصوم، وإنما هي أقوال لأئمة يخطئون ويصيبون، على التزام هذا الرسم العثماني، وهم يرون الطلاب يخطئون في قراءة القرآن، والله أنزله متلواً لا مكتوباً، وأوجب علينا في بعض الحالات (في الصلاة مثلاً) قراءة شيء منه، ولم يلزمنا أبداً

---

(١) صدر الكتاب سنة ١٤٠٥ وقام بجمعه وترتيبه سبط أستاذنا الطنطاوي: مجاهد ديرانية وفقه الله، واقرأ فتوى رسم المصحف في كتاب «فتاوى علي الطنطاوي» ص٢٩ ـ ٣٣ (مَجْد).

بكتابة شيء، حتى إن أحد الأساتذة الكبار، والمحدثين المشهورين، وقد مر ذكره قبل أسطر معدودة، قال: إن كتابته توقيفية.

وأنا لا أفهم إلى الآن ما معنى هذا الكلام؟ لأن التوقيف هو الوحي، والذين كانوا يكتبون لا يوحى إليهم، والذي كان يوحى إليه ﷺ لا يكتب، فكيف صارت الكتابة توقيفية؟ هذا وفي الفتوى أدلة كثيرة لا مجال الآن لذكرها. على أن الأستاذ الصباغ جزاه الله خيراً وفَّى هذا الموضوع حقه، فأفاض فيه وأفاد.

ومن مزايا هذا الكتاب أن مؤلفه لم يدع غامضاً إلا وضحه، ولا شيئاً يتعسر فهمه على الطلاب إلا شرحه، فكان كتابه مفيداً في اللغة والأدب فوق فائدته القراء في موضوعه الذي ألف له.

ومن مزاياه أنه إن نقل عن كتاب دل القارىء على الجزء والصفحة المنقول منها، فعرفهم بالمراجع، ومعرفة المراجع علم ربما أخصى (أي تخصص) فيه بعض الباحثين.

حقق الأحاديث وبين درجتها، وآفة كثير من الكتب العصرية أنهم يثبتون في كتبهم أحاديث لا يتبينون درجتها، ولا يسمون مخرجها، ولا يتثبتون من صحتها.

وكنت أرجو منه لما تكلم عن الإعجاز أن يشير إلى كتاب الأستاذ الحمصي الذي قدم له شيخنا الشيخ بهجة البيطار، وطبعه المجمع العلمي (مجمع اللغة العربية في دمشق)، إذ لخص في هذا الكتاب مذاهب الأولين في بيان أسباب الإعجاز. وكنت أرجو أن يشير إلى الشيخ الشعراوي وما أعطاه الله من موهبة في الكلام في التفسير وفي وجوه الإعجاز، وأنه يجيء بما لم يسبق إليه ولم يلحق فيه، وإن كانت له كما يكون لكل إنسان زلات، كادعائه أنَّ الهواء جزء من الأرض لقوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولم يقل: (سيروا عليها)، وإن كان في هذا استدلال فالقاعدة أنه لا عبرة بالدلالة في مقابلة النص، والله قد نص في كتابه على: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ومعلوم أن

السحاب في الهواء، فكان ذلك نصاً على أن الهواء ليس من الأرض، على أن أصل الاستدلال غير مسلَّم، فإذا نازعك جارك وادعى أنك تسير على أرضه، قلت له: بل أنا أسير في أرضي، فلا فرق في الاستعمال بين قولي (سرت في الأرض) و (سرت على الأرض) وإلا فهم من قولنا (يسير في الأرض) أنه يحفر فيها جحراً ويدخل في باطنها، كما تدخل الجرذان.

ومما يؤخذ عليه ذهابه إلى أن آزر عم إبراهيم وليس أباه، كما ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين، لتأثير الإسرائيليات عليهم، وهذا قول لا سبيل إلى قبوله بعد أن صرح الله بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾.

ومما كنت أرجوه من الأستاذ المؤلف لما كتب عن مصير المصاحف العثمانية أن يشير إلى ما كتب الكوثري عن مصحف دمشق وغيره، وإذا كان الأستاذ الصباغ والأستاذ الشاويش والأستاذ الشيخ ناصر الدين يخالفون الكوثري في مسائل فلا تمنع هذه المخالفة أن يأخذوا ما عنده من الصواب، لأن الحكمة ضالة المؤمن. أما مصحف الشيخ عبد الحكيم الأفغاني الذي أشار إليه فقد لبثت دهراً من عمري أظن أنه قد نسخه عن المصحف العثماني نسخاً كاملاً، وما زلت أبحث عنه حتى وجدته عند آل الدوجي (وهم فرع من أسرة الصواف) وكانوا يلازمون الشيخ عبد الحكيم ويخدمونه، فوجدته مكتوباً بالخط العادي.

ولما نشرت مجلة العربي استطلاعاً (ريبورتاج) مصوراً عن استامبول[١]، رأينا صوراً لمصحف عثمان الذي كان في جامع دمشق في قبة الخزانة في صحن الجامع من الجهة الغربية، وهي غرفة عالية تحت قبة قائمة على أعمدة ثمانية، ما لها إلا باب صغير، كنا ونحن صغار نسمع أن فيها كنوزاً وأموالاً للجامع الأموي، ثم علمنا أن جمال باشا قد فتح بابها ونقل ما فيها إلى استامبول.

---

(١) والذي سماها إسلامبول أي مدينة الإسلام هو السلطان محمد الفاتح، و (بول): مدينة، فهي بمعنى إسلام أباد التي صارت عاصمة باكستان.

ولصديقنا الذي هو بمنزلة أستاذنا الشيخ راغب الطباخ بحث جيد عن مصير هذه المصاحف العثمانية في كتابه (الثقافة الإسلامية)[1].

وكنت أتمنى على الأستاذ الصباغ لما تكلم عن التفسير والتأويل، وذكر أقوال من سوى بينهما ومن فرق، أن يذكر شيئاً أدركته أنا على ضعفي وعجزي وقلة علمي، هو أن التفسير بيان للمعنى المراد، من فسر بمعنى سفر أي ظهر، وهو باب معروف عند العرب كقولهم يئس وأيس وجذب وجبذ، فإن عدّيت فعل فسر أي ظهر بالتضعيف قلت: فسّرته تفسيراً، أي كشفته وبينته.

والتأويل من آل الأمر إلى كذا أي رجع إليه، فإن عديته قلت: أولته تأويلاً. والتأويل تأويلان:

تأويل حال وتأويل مقال.

والأول أكثر وروداً في القرآن ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي تحقيق الحال الذي يصير إليه.

والثاني ما استقر عليه الاصطلاح حين يفرقون عند الكلام على آيات الصفات بين من يؤوّل، أي ينقل الكلمات عن معناها الأصلي الظاهري إلى معنى آخر، وبين من لا يؤول. نحن نؤمن بما جاء من عند الله، ولكن هناك مواطن لا بد فيها من شيء ربما دعي التأويل على توسع في معنى الكلمة، كقوله تعالى في آية واحدة: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ فالإجماع على أنها ليست معية ذات، تعالى الله عن ذلك، ولكنها معية علم وبصر وسمع، ومثلها: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ فإن إرادة المعنى الأصلي، أي القاموسي، في كلمة ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ مستحيل على الله ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

ولعل منشأ الخلاف أن هذه الكلمات وضعت في لسان العرب قبل

---

(١) ص٤٥ ـ ٥٣ تحت عنوان: أين هذه المصاحف الثمانية سابقاً والآن؟ (مَجْد).

نزول القرآن، وأن القرآن نزل بهذا اللسان، وأنها وضعت لمعان بشرية أرضية، فلا يجوز أن نفهمها بهذه المعاني لأن الله ليس كمثله شيء، ولأن الخالق لا يشبه المخلوق، ولا يجوز أن نخرجها عن معانيها كلها فنجعلها ألفاظاً معطلة لا تدل على شيء، وفي كتابي «تعريف عام بدين الإسلام» بيان لهذا الذي أقول[1].

* * *

وبعد فما كان بي حاجة إلى كتابة هذه المقدمة، لأن المقدمات إنما تكون تعريفاً بكاتب مجهول، أو بحث جديد غير معروف.

والكاتب هنا الأستاذ الصباغ، معروف بفضله الذي يبدو في آثار قلمه، وفي بيانه، الذي يظهر دائماً على لسانه، وفي علمه الذي يشهد به عارفوه، ويستفيد منه تلاميذه، فهو رجل قد جمع سعة الاطلاع، وجودة الإلقاء، وسلامة اللغة، والبعد عن اللحن، وهو محدث موفق في الإذاعة والرائي، ومدرس ناجح في الجامعة وفي الجامع، ظاهر المكان، متميز الرأي في الندوات الإسلامية، عامل دائب في حقل الدعوة إلى الله، قادر على توضيح المسائل وتقريبها إلى الشبان، وهو سليم العقيدة، سلفي المشرب، مثل أخويه عصام وزهير، وفقهم الله جميعاً وقواهم وأكثر من أمثالهم.

علي الطنطاوي

(١) انظر كتاب «تعريف عام بدين الإسلام» ص٧١ ـ ٧٦ تحت عنوان: آيات الصفات. وص٨٠ ـ ٨١ تحت عنوان: جدال في غير طائل (مَجْد).

محمد القاسمي

الإسلام كما فهمت



المقدّمة

للأستاذ الكبير على الطنطاوي

هذه كلمات أقدمها بين يدي هذا الكتاب، ولكنها ليست (مقدمة) للكتاب.

ولقد كتبت مقدّمات عشرات (عشرات حقيقة) من الكتب أولاني مؤلفوها أو ناشروها شرف تقديمها، من يوم كتبت مقدمة كتاب «الظراف والمتماجنين» لابن الجوزي الذي طبع في الشام سنة ١٣٤٧ هـ. و«اللمحة البدرية» للسان الدين ابن الخطيب الذي نشر في مصر في تلك السنة أو التي بعدها ـ أي من أكثر من أربعين سنة ـ.

من هذه المقدمات ما كتبته وأنا مستريح البال، حاضر الذهن، فجاء على ما أريد، أو قريباً مما أريد، كمقدمة (ديوان ظلال الأيام) لأنور العطار، ومقدمة (مكتب عنبر) لظافر القاسمي[(١)]، ومنها ما كتبته وأنا مشتت الفكر مشغول القلب فجاء على غير ما أريد.

ولكني لم أكن يوماً أتعب بالاً، ولا أسوأ حالاً مني في الوقت الذي أكتب فيه هذه الكلمات، في الفندق الذي أنزله في بيروت، وأنا بين تعب القدوم من السفر، وتعب الاستعداد للسفر. ولولا وثيق صلتي بالمؤلف، وقديم ارتباطي بالموضوع، لاعتذرت منها، وفررت منها.

أما صلتي بالموضوع فأنا أَخشى إذا أَفَضْتُ فيها، أن تتحول هذه الكلمات إلى قصيدة في الفخر، قصيدة من الشعر الحديث (أعني الذي

---

(١) والمؤلف: ابن عم أبيه العلامة الجمال القاسمي، ابن عمه لحاً وإن كان ولد بعد وفاته.

يسمى شعراً وليس بشعر)، وأن يقال لي: مادح نفسه يقرئك السلام.

وأثقل الكلام أن يمدح المرء نفسه، فهل أفيض فيها، أم أدع الكلام عنها؟

إني أؤرخ هنا لمرحلة من مراحل الفكر الإسلامي، وأذكر حقائق، إذا تركت ذكرها أضعتها، وإن أفضت فيها أثقلت وأمللت، والخير أن أسلك فيها مسلكاً وسطاً بين الإهمال والإغفال، وبين الإفاضة والإملال. ولولا أن الكلام فيها من موضوع الكتاب ما تكلمت فيها.

لقد كُتِبَ لي أن أكون أول من دعا (فيما أعلم) إلى عرض الإسلام عرضاً شاملاً، في كتاب لا يكون كتاب تفسير ولا حديث ولا فقه ولا أصول، ولكن يكون كتاباً في دين الإسلام، إذا قرأه قارئه فهم من الإسلام ما لا بد منه، ولا غنى عنه، وما يكون به ناجياً عند الله.

وما في هذه الدعوة عجب، فلقد كان الأعرابي يفد على رسول الله ﷺ فيبقى عنده يوماً أو بعض يوم، فيفهم من الإسلام ما يكون به مسلماً كاملاً، ثم يعود إلى قومه داعياً إليه، مبشراً به، معلماً له. فإذا وفد علينا اليوم أجنبي يريد الدخول في الإسلام، أبقيناه سنة كاملة. نقرئه فيها التجويد والتوحيد، والفقه والأصول، والحديث والتفسير. ثم لا يجد في ذهنه بعد هذا كله الصورة المجملة الواضحة للإسلام، التي كان يجدها ذلك الأعرابي.

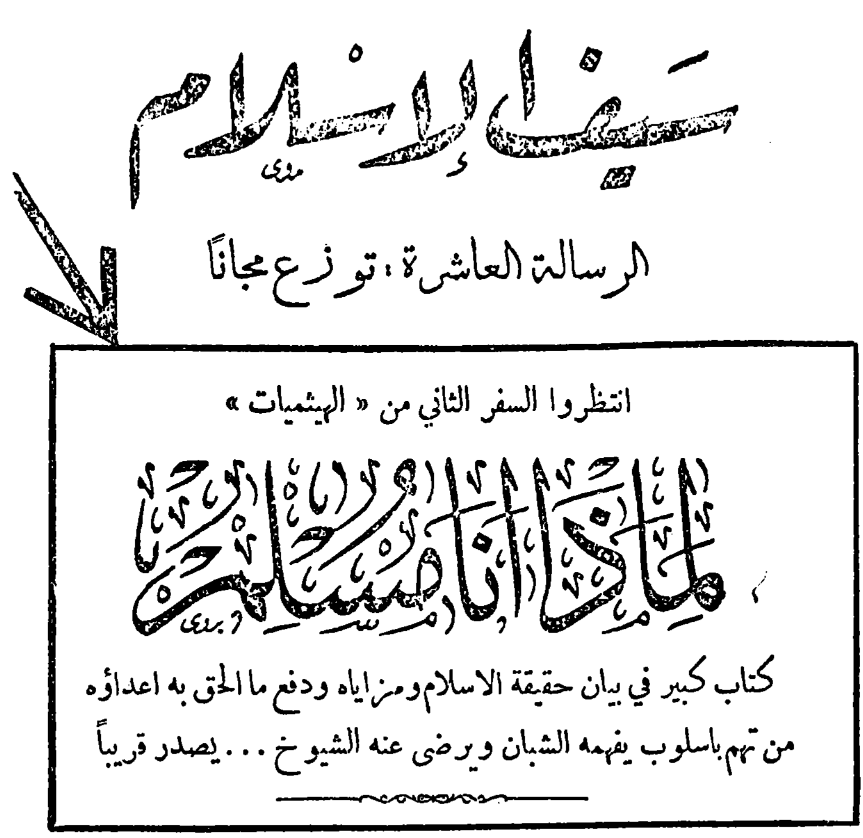
لذلك كان من الواجب على الدعاة في هذا العصر، أن يعيدوا للإسلام بساطته[1] ووضوحه وإيجازه. وأن يؤلفوا، في ذلك، الكتاب الذي يكون موضوعه (الإسلام) الذي يحتاج إلى معرفته كل مسلم، لا (علوم الإسلام) التي لا يحتاج إليها إلا علماء المسلمين.

ولقد باشرت بإعداد هذا الكتاب بعنوان (لماذا أنا مسلم)، وأعلنت

---

(١) البساطة في اللغة: السعة، ولكني أردتها بالمعنى الشائع الآن.

عنه في الرسالة العاشرة من سلسلة رسائل (سيف الإسلام) التي كنت أكتبها، ويوزعها بعض أهل الخير على نفقته، وكان ذلك سنة ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) ولكن الكتاب لم يطبع وضاعت أصوله.



ثم دعيت إلى التدريس في العراق، وشعرت بحاجة الشبان إلى هذا الكتاب، فجددت الدعوة إليه، ووضحتها في مقالات نشرت في مجلة الرسالة نحو سنة ١٩٣٩ وبيّنت الفصول التي ينبغي أن يشتمل عليها الكتاب، والموضوعات التي يحسن أن تطرق فيه.

ثم دعيت إلى الكلية الشرعية في دمشق (وكانت تابعة لمديرية الأوقاف الإسلامية) لتدريس مادة استحدثت في المنهج - لم يعرف من اقترحها ولا من أقرها - ولم يبيّنوا حقيقة مدلولها، ولكن اسمها أعجبهم، ورأوا فيه تجديداً يدفع عنهم ما يتهمون به من جمود المشايخ. وكان اسم هذه المادة (الثقافة الإسلامية).

وقد درسها قبلي شيخ مشتغل بالقراءات[1] كان قد طبع كتاب «النشر في القراءات العشر»، فجعلها درساً في القراءات. ودرّسها بعدي أستاذ سلك فيها مسلك الغمراوي في كتابه (آيات الله في الآفاق)، كلٌّ له اجتهاده، أما أنا فقد بحثت في معنى الثقافة (لغة واصطلاحاً)، وسعة الثقافة الإسلامية، وكان أحسن ما عملته أن جمعت تصنيفات العلوم عند علمائنا، فبلغت (فيما أذكر) أحد عشر تصنيفاً، أذكر منها: تصنيف الغزالي، وابن خلدون، والحفيد، وطا شكبري زاده، وحاجي خليفة، وضاعت كلها مني الآن.

إلى هنا وأنا أتكلم عن نفسي، فمعذرة إلى المؤلف وإلى القراء. وإن كنت أول من دعا إلى هذه النظرة الشاملة للإسلام، فليس الفضل لي فيها، ولكنها كانت نتيجة طبيعية لمقدمات سبقتها.

ذلك أننا بعد أن هجعنا قروناً طوالاً - من القرن التاسع الهجري - وامتد علينا الليل، أحسسنا بالضياء يأتي هذه المرة من جهة الغرب، وما

---

(١) هو العلامة المؤرخ محمد أحمد دهمان المولود سنة ١٣١٧هـ، والمتوفى سنة ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨ رحمه الله تعالى. وكتاب «النشر» لابن الجزري، طبع بعنايته سنة ١٣٤٥هـ (مَجد).

كان ضوء الشمس فالشمس لا تطلع إلا من الشرق، ولكنه ضوء صناعي: مرآة محدثة تردّ (أي تعكس) ضوء الشمس، لها بريق وفيها نور ولكن ليس فيها أصالة، فيها المادة ولكن ليس فيها الروح، فيها ما يصلح الحياة الدنيا ويجعلها أسهل وأمتع وألذّ ولكن ليس فيها (بل لم يخطر على بال أصحابها التفكير) بما يسهل الحياة الأخرى، ويكفل لنا فيها لذة أو متعة.

أيقَظَنا هذا الضوء، فقمنا ننظر في أنفسنا وفيما حولنا، فرأينا أن الناس قد تقدموا وتأخرنا، وقووا وضعفنا، وعزّوا وذللنا، وكنا نحن أهل العزة والقوة والتقدم.

وزعم أعداؤنا أن سبب تأخرنا هو ديننا، فقمنا نرد زعمهم ونثبت لهم أن الدين لا يحارب المدنية، ولا يمنع التقدم، ولا يظلم المرأة، ولا ينافي العلم.

وكانت هذه هي المرحلة الأولى التي ظهرت فيها كتابات الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وفريد وجدي.

أي أن وضع الإسلام فيها، كوضع متهم في قفص المحكمة، ونحن ندافع عنه.

ثم اجتزنا المرحلة الثانية: رأينا عند الغربيين نظاماً للحكم اسمه الديموقراطية أي حكم الشعب (وأصل الكلمة يونانيّ من ديموس أي الشعب)، فقلنا إن الإسلام فيه ديموقراطية. وكتبنا في (ديموقراطية الإسلام).

ثم ظهرت الفاشية والنازية، فقلنا إن الإسلام لا ينافي الحكم الفردي بشرط أن يكون عادلاً. وكتب ناس منا يبينون المشابهة بين نظام الحكم في الإسلام وهذا النظام في الحكم.

ثم جاءت (موضة) الاشتراكية، فلاكتها ألسنة ناس منا، وصرخ شوقي يخاطب رسول الله ﷺ:

الاشتراكيون أنت إمامهم. . .

وظن أنه يمدحه بهذا الكلام الفارغ. وأُلِّفت كتب في (اشتراكية الإسلام).

ثم بلغنا المرحلة الثالثة: مرحلة النضج، مرحلة الوصول إلى الغاية، فعرفنا أن الإسلام نظام كامل، علينا أن نعرضه كما هو، فإن وافق في بعض فروعه وجزئياته شيئاً من المذاهب والأديان، لم يزدنا ذلك إيماناً به ولم يدفعنا إلى أَخذ تلك الأديان والمذاهب، وإن خالفها لم نَرْتَبْ ولم نشك ولم نعدل عن شرع ربنا.

ولئن كنتُ من أوائل من بلغوا هذه المرحلة، فذلك فضل من الله. وقد بلغها اليوم جمهور الدعاة، وأقرت في المناهج الدراسية باسم (نظام الإسلام) أو (الثقافة الإسلامية)، ومن الحق أن نقرر أن ممن يسعى إلى تعميم مادة نظام الإسلام على مدارس الشام، والسودان، والمملكة العربية السعودية، والأزهر، أخانا الأستاذ محمد المبارك.

وقد ألّفت ونشرت في هذه الأيام كتب كثيرة في العقيدة الإسلامية، موضوعها واحد، لأنه موضوع مفروض محدَّد، الخروج عليه والزيادة فيه والنقص منه كفر بهذه العقيدة: هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وما جاء ذكره في القرآن من المغيبات عن الحسّ ـ موضوع لا مجال للتجديد فيه ذاته، وإنما المجال في أسلوب عرضه، لذلك اختلفت أساليب مؤلفي هذه الكتب باختلاف تفكير أصحابها، وكان الكسب للقراء إذ يجدون من المادة الواحدة ألواناً متعددة الشكل والطعم، يختار كل منها ما يعجبه ويطيب له، وإن كان العنصر المغذي موفوراً فيها كلها.

وهذا الكتاب الذي أقدم له من أجودها، لأن مؤلفه أعمل فيه فكره هو، لم يفكر بعقل غيره، وكتب بأسلوبه نفسه لم يستعر أسلوب غيره، ولم يملأه بالنصوص المنقولة عن المؤلفين، كما يفعل بعض الناس،

فتجيء كتبهم كمرقعات أدعياء الزهد: رقعة كتان ورقعة صوف ورقعة بزّ، بل أخذ نصوص الكتاب والسنة الثابتة ففهمها، ثم كتب ما فهمه منها.

وقد خلص كتابه (كما خلص أكثر الكتب الجديدة في العقيدة) من طرائق علماء الكلام، وخلافهم في المسائل التي لا تحتمل الخلاف أو لا ينفع فيها الخلاف، وردّهم على فرق بادت وانقرضت.

فالكتاب نافع جداً، ومن عرف أني أكتب هذه المقدمة ولي كتاب في موضوعه[1] ـ صدرت الطبعة الثانية منه وتطبع الثالثة الآن ـ أدرك قيمة هذه الشهادة، لأنها شهادة من زميل في الصنعة، والأصل بين زملاء الصنعة التزاحم لا التراحم، والتجافي والخصام لا التصافي والوئام.

وأنا أعرف الأستاذ القاسمي من أيام طلبه العلم، وصحبته أو صحبَني (والنتيجة واحدة) أكثر من ربع قرن بعد ذلك، فوجدت فيه من المزايا الخلقية والمزايا الفكرية ما أسجل بعضه في هذه المقدمة.

فهو مؤمن حقاً، يحمل راضياً ما يوجبه عليه إيمانه، وأكثرنا اليوم يفرّ من حمل أعباء الواجبات.

وهو من أوفى الناس لإخوانه وخلانه، صادق اللهجة، متين الخلق، بعيد عما يشين كرام الرجال.

وهو ذو فكر جوال مبتكر، يعرض المسألة المعقدة بأسلوب مفهوم ومثال واقعي، فيفهمها منه العامي، ويرضى عن طريقته في عرضها العالم، وأكثر ما يظهر ذلك منه إذا أثير في المناقشة، أو كان مع الطلاب في الصف.

---

(١) هو كتاب «تعريف عام بدين الإسلام» وقد تم طبع الكتاب أكثر من عشرين طبعة وبأكثر من لغة، وانظر قصة هذا الكتاب في ص ٣٥١ من هذه المقدمات (مجد).

والأستاذ القاسمي داعية موفق، وأستاذ ناجح، يمتلك قلوب طلابه، فتراه في درسه والأنظار متعلقة به والأسماع مائلة إليه، وما كلّ مدرس يمتلك قلوب الطلاب.

يناقشونه فيناقشهم، يسايرهم ويمشي معهم ليجرهم إليه، يلين لهم القول ولكن يشدد عليهم البرهان، ويسدّ عليهم الطريق، فهو كمن يصافح باسماً مسلّماً، ولكن بقبضة تكسر أصابع الخصم المعاند.

ولكني مضطر، مع هذا الثناء عليه بالحق، أن أوجّه إليه بعض النقد بالحق، أقوله ولو ساءه ما أقول، ذلك أنه (كسلان) لا يستعمل هذا الفكر الخصب إلا مضطراً.

ولولا أنه اضطر إلى إملاء هذا الكتاب (مذكرات) على طلبة كلية الشريعة في مكة، لما كتب ولا طبع.

ولو أنه انصرف إلى التفكير، وأقبل على التصنيف، وعمل بدأب وجدّ، لم تشغله توافه الحياة عن هذا العمل، لجاء منه خير كثير، حسبكم مثالاً له ودليلاً عليه هذا الكتاب.

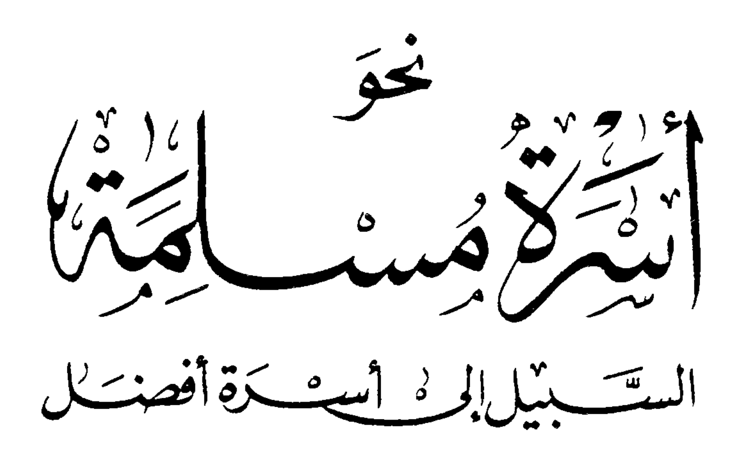
وبعد... فما أردت أَن أكتب مقدمة الكتاب، ولست على حال أصلح معها للكتابة، فالذهن في شغل، وأنا قادم من سفر، وأنا مستعد إلى سفر، فإن وفقت إلى شيء فالحمد لله وإلا فدعوا هذه الأسطر، واقرؤوا الكتاب رأساً.

وهذا هو الكتاب أمامكم، لا يحتاج من يقدمه لكم.

بيروت: أول جمادى الآخرة ١٣٩٠

علي الطنطاوي





بقلم
محمود مهدي الاستانبولي

قدم له
العالم الجليل علي الطنطاوي

المكتب الاسلامي

مقدمة الكتاب

بقلم الكاتب الكبير الأستاذ علي الطنطاوي

أعترف أَني لم أقرأ هذا الكتاب الذي أقدم له قراءة تأن وتدقيق لأكتب عنه كتابة نقد وتحقيق، لأنه غصب مني قبل أن أفرغ من النظر فيه، غصبه مني بناتي، وإنها لتأتيني في كل أسبوع كتب كثيرة، يتفضل أصحابها بإهدائها إلي، فأجد فيها ما ينفع البنات فأحملهن حملاً على قراءته فلا أكاد أنجح، أما هذا الكتاب فقد تزاحمن عليه منذ وقعت أنظارهن على صفحة واحدة منه، وقرأنه وفهمنه، وقرأن منه على أمهن ولخصنه لها، ثم اتخذن من بعض ما جاء فيه أداة للمناقشة معها، وإقامة الحجة عليها، فيما وافق آراءهن من شؤون التربية.

فعجبت وبحثت عن السبب في هذا الإقبال على الكتاب فوجدت لذلك سببين:

أولهما: أن الأستاذ محمود مهدي يصف الواقع كما هو، ويمشي مع قرائه على الأرض، لا يحاول (كما يصنع كثير من المؤلفين) أن يقفز بهم من فوق الأسطحة. ثم إنه يعرض فكرته عرضاً قصصياً سهلاً، لا يلفها بلفائف صفيقة من المباحث العالية... التي لا يصل إليها ذهن القارىء، ويسوقها سوقاً منطقياً واضحاً، لا يسردها سرداً خطابياً هوائياً لا يقوم عليه دليل.

والثاني: أن لغته (على ما فيها من مواطن للنقد) لغة مفهومة، والدليل على ذلك أن بنتي (بيان) وهي في الصف الخامس الابتدائي فهمتها بلا عناء. وهذه الكتب التي تُؤلف لجماهير الناس يجب أن تكون مما يفهم الناس كلهم، ومن الحماقة أن يتكلف فيها ما لا يطابق مقتضى الحال من سمو البيان، وصناعة الألفاظ.

ومن قبل أهدى إليَّ الأستاذ محمود كتابه (نقائص الأطفال)، فكانت حاله مع البنات في الدار كهذه الحال.

والمقدمات في العادة تتحدث عن المؤلف وعن الكتاب. أما المؤلف (الأستاذ محمود مهدي) فهو معروف من أكثر من أربعين سنة، بين المعلمين والمربين، بأنه من أركان التربية بهذا البلد، ومن أسبق الناس إلى العناية بها والكتابة فيها، ولقد كان أول من أخرج مجلة للتربية هي (مجلة المعلمين والمعلمات)، وقام بها وحده زمناً طويلاً، على قلة المال، وفقد الأنصار.

ولو أن هذه الكتب التي ألفها والمباحث التي كتبها، كانت مترجمة عن مسيو فلان، أو مستر علان، لتنافس أساتذة التربية عندنا في الاقتباس منها والرجوع إليها، ولكن عيبها أنها لرجل يعرفونه ناشئاً وشاباً، ويرونه كل يوم، وقديماً قالت العرب: «أزهد الناس في العالم أهله وجيرانه»، وعيب آخر فيها، (أعني في نظر بعض الأساتذة الكبار!!) هو أنها تتحدث عن الدين، وتستفيد من خيراته، وتعتمد على حقائقه، مع أن (التقدمية) تنافي الكلام في الدين! والفكر الحديث لا يعرف الحقيقة بأنها التي تكون الحقيقة في ذاتها، بل التي تكون واردة من الغرب، من الغرب الذي جاءت منه إسرائيل، وجاءت منه قوى الشر إلى بور سعيد وإلى الجزائر!!

أما الكتاب، فمن تحصيل الحاصل أن أُرغب فيه، أو أن أقول أنه يصلح برنامجاً كاملاً للأسرة التي تريد أن تكون سعيدة في هذه الحياة،

ناجية في الحياة الأخرى، وأن على كل أسرة أن تقتنيه وأن تقرأه وأن تحاول العمل بما فيه، أقول أن ذلك من تحصيل الحاصل، بعدما رأيت من إسراع بناتي الصغيرات إليه، وازدحامهن عليه، وسيقرؤه الناس من غير أن أدعوهم إلى قراءته كما قرؤوا كتباً للأستاذ محمود قبله، ما دعاهم إلى قراءتها إلا جودتها، وسينتفعون به إن شاء الله كما انتفعوا بها.

وأنا أتمنى أن يديم الله عليه نشاطه، وأن يجعله أبداً (محمود) الفعال (مهدياً) إلى الصراط المستقيم، وأن يزيده توفيقاً، وأن يجزيه على ما يقدم لهذه الأمة خير الجزاء.

علي الطنطاوي



تأليف

الدكتور سالم الرشيدي

مكتبة الارشاد

جدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تصدير الطبعة الثانية

بقلم: الأستاذ علي الطنطاوي

من أكثر من عشر سنوات، حمل إلي البريد يوماً وأنا في دمشق، كتاباً عنوانه (محمد الفاتح)، لمؤلف لم أسمع باسمه من قبل ـ اسمه (سالم الرشيدي) ـ ففتحته أتصفحه وأنظر ما فيه، فلم أكد أبدأ بقراءته حتى علقت به، فتركت شغلي وعكفت عليه، وحملته معي إلى بيتي، فما فرغت من صلاتي وغدائي حتى رجعت عليه، ثم لم أنم حتى أكملته. . . لقد وجدته كتاباً يستحق أن يقرأ.

وإذا وصفت كتاباً بأنه يستحق أن يقرأ فقد قرّظته، لأن الكتب أكثر عدداً من ساعات العمر، فلو جعلت لكل كتاب ساعة (وما تكفي ساعة) لم تقرأها كلها، ولا قرأت نصفها ولا ربعها. ولا بد لك من أن تتخير وتنتقي، وليس ينتقى إلا الكتاب الذي جدّ موضوعه وجاد عرضه، وخفّ ظله، وجلت فائدته ـ هذا هو الكتاب الذي يستحق أن يقرأ، وهذا ما يوصف به كتاب (محمد الفاتح) للأستاذ سالم الرشيدي.

هو كتاب إن طلبت القصة المفصلة المسلسلة وجدت فيه القصة المسلسة المفصلة، وإن شئت التاريخ المحقق الممحص رأيت فيه التاريخ الممحص المحقق، ففيه المتعة، وفيه المنفعة، وفيه الإنصاف وحسن البيان.

* * *

ولما نظرت فيه أول مرة أحسست كأن عبقاً دافئاً من ريّا الربيع المنصرم، هب علي وأنا في قلب الشتاء، وكأني وجدت وردة باقية من الروض الذي جفت أوراده، واسّاقطت أوراقه، وصوّح نبته. ذلك لأني نشأت (أول ما نشأت في دمشق) في ظل الراية الحمراء، ذات النجم والهلال، راية بني عثمان، ولقنت من الصغر أنها راية الإسلام، وأن أهلها جنده وحماته.

وليس معنى هذا أني أحن إلى عهد الاتحاديين، فيا بئس العهد عهد الاتحاديين، أعداء العربية والدين، ولا إلى أيام الحرب العامة، حرب ١٩١٤ ـ لا أعاد الله تلك الأيام ـ فلقد أيبست في الشام الزرع، وأشحّت الضرع، وحملت المجاعة إلى بلد كان يطعم روما القمح، ويفيض من خيره على الدنيا، حتى كنا نرى الموتى من الجوع مصرّعين على جوانب الدروب، ونحن نسلكها غادين إلى المدرسة، ورائحين منها.

لا. ولكن أحن إلى تاريخ تلك الدولة العظيمة التي كانت لها (لا شك) أخطاء وعيوب ونقائص. لم تكن كدولة الخلفاء الراشدين، ولكنها أعزت (على ذلك كله) الإسلام وحمت رايته، فبلغت بها بقاعاً لم تبلغها من قبل راية الإسلام، وكانت ثالثة الدولتين الكبيرتين: دولة بني أمية بن عبد شمس، ودولة بني العباس بن عبد المطلب.

تسلمت البلاد الإسلامية وهي مزق مرقعة، ورقع ممزقة، في كل بلدة حكومة، وعلى كل أرض راية، وفي كل بقعة دولة أو إمارة، والإسلام لا يعرف إلا دولة واحدة هي دولة الإسلام، ولا يعرف إلا إمارة (جامعة) واحدة هي إمارة المؤمنين ـ فجعلت من ذلك الانقسام وحدة، ومن ذلك الضعف قوة، ومن تلك الإمارات دولة كبيرة، يمتد سلطانها من البحر الأطلنطي إلى الخليج العربي، ومن البلقان إلى اليمن، ومن حدود النمسا إلى حدود إيران، وتخفق رايتها على القارات الثلاث.

أعطاها الله هذا كله لما كان ملوكها مؤمنين، مندفعين لنشر هذا الدين، يحملون رايته ويدعون إلى كتابه، ولقد تداولت حمل هذه الراية أيد كثيرة: اليد العربية التي حملتها أولاً، ثم أيدي القادة من المسلمين من غير العرب، ما ضرّهم اختلاف ألسنتهم، وتباين أصولهم، ما دامت متّحدةً عقائدُهم، تجمعهم كلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

كذلك كان الملوك الأولون من بني عثمان، ومنهم محمد الفاتح الذي تقرؤون سيرته في هذا الكتاب، ثم خلف من بعدهم خلف أساءوا إلى أنفسهم، وإلى شعبهم، وإلينا، وإلى الإسلام، حين آثروا قوانين أوروبة على شريعتنا، وقومية أوروبا على أخوة إيماننا، وأرادوها تركية مفرقة لا إسلامية جامعة، فضاعوا بذلك وأضاعوا.

ضاعوا لما نسوا أن الإسلام هو الذي حوّلهم من رعاة بداة تائهين في صحارى تركستان إلى ملوك أقوياء أثرياء، وملّكهم سيادة القارات الثلاث، ونسوا أنهم هم الذين عزوا بالإسلام حين أعز الله (لما أخلصوا له) الإسلام، وأن الإسلام إلاّ يكن بهم يكن بغيرهم، وأنهم (وأن الترك والعرب والفرس) إلاّ يكونوا بالإسلام لا يكونوا بغيره أبداً، وأن الله حفظ دينه فإن لم ننصره استبدل بنا غيرنا، وأدخل في الإسلام أمة حية تنصره، وبقينا نحن (لا سمح الله) على الهامش، لا دنيا ولا دين.

على أن إخواننا من الترك لم يخرجوا بحمد الله من الإسلام، بل هم لا يزالون كما كانوا أو أشد تمسكاً به مما كانوا، وإن شئت الدليل فهاك واحداً وخمسين ألف دليل، هم حجاج الترك لهذا الموسم (موسم ١٣٨٨)، ورحمة الله على الشيخ المرشد الداعية، بديع الزمان الشيخ النورسي الذي جدد الله به هذه الروح، وبعث به في نفوس شبان الترك هذا الإيمان، ورحمة الله على محمد الفاتح وأولئك الملوك الغزاة الفاتحين الذين نشروا هذا الدين وأعز الله بهم المسلمين.

وشكر الله للمؤلف الفاضل أن جلا للقراء هذه الصفحة من التاريخ، وقد كانت شبه مجهولة لطول ما أبعدت المدارسُ التلاميذَ عن تاريخ العثمانيين، وحملت أوائلهم وزر أواخرهم، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وزادوا حتى سموا الحكم العثماني استعماراً، وقرنوه بالاستعمار الغربي، فقالوا (الاستعمار العثماني) و (الاستعمار الفرنسي) و (الاستعمار الإنكليزي).

إن هذا الكتاب عمل جليل، لأنه نظر إلى الموضوع فأحاط به، وبحث فيه فتعمق في بحثه، وعرضه بالأسلوب المشوق، والبيان المشرق. عمل جليل، وزاده جلالاً أنه عمد إلى موضوع مجهول فعرّف به، وإلى قوم مظلومين فرفع الظلم عنهم، وإلى صفحة من أروع صفحات الجهاد الإسلامي وكانت مطوية فنشرها، وكانت مطموسة فجلاها. ولعل المؤلفين من المؤرخين ينشرون أمثالها من صفحات الجهاد المطويات، ويا ما أكثر تلك الصفحات.

ولعل الشبان من القراء يرون في هذا الكتاب الحقيقة التي طالما عملت على طمسها كتب المؤلفين وأقلام الكتاب.

وجزى الله المؤلف خير الجزاء.

مكة المكرمة

علي الطنطاوي



عبقرية

خالد بن الوليد العسكرية

بقلم القائم مقام أركان حرب

أحمد بك اللحام

قدم له

الأستاذ الكبير علي الطنطاوي

دار المنارة

جدة

مقدمة

بقلم الأستاذ الكبير علي الطنطاوي

اليوم هو ابن الأمس، وأبو الغد، وحاضر الأمة وليدُ ماضيها وهو الذي يلد مستقبلها، والأمم التي ليس لها تاريخ، تخترع لنفسها تاريخاً، لأنه لا بدّ من التاريخ.

هؤلاء هم اليهود، عادوا لينبشوا أمجاداً عاشوها قبل ثلاثةِ آلافِ سنة، أمجاد ما هي من صنعهم، وليس لهم فيها يدان، فإذا اعتزّوا بموسى وسليمان، فإن مجد موسى وسليمان لا يدلّ على عبقريتهم، لأنه مدد من الله.

اخترعوا تاريخاً، لأن الأمةَ لا تعيش بلا تاريخ، وأعداؤنا اصطلحوا على أن يطمسوا صفحةَ تاريخنا من تاريخ الحضارة الإنسانية. ففي كليات العلوم يُقرئون الطلاب تاريخ العلوم من أيام اليونان والرومان ثم يتخطّون ما فعلنا نحن وينتقلون رأساً إلى عهد النهضة الأوروبية، وفي الكليات العسكرية يتخطّون عمداً صفحة أمجادنا مع أنها أروع صفحة في تاريخ الأمجاد العسكرية. وأنا رجلٌ مولع من صغري بالتاريخ. أقرأ كل ما يقع تحت يدي من كتبه، وأستطيع أن أقول: إن المعجزة الكبرى في التاريخ العسكري للأمم كلها هي الفتح الإسلامي، وقد يقول قائل: إن الإسكندر فتح بلاداً ربما بلغت ما فتحه المسلمون، وكذلك صنع جنكيزخان وتيمورلنك ونابليون وهتلر، ولكن الفرق بين هؤلاء جميعاً وبين الفتح الإسلامي: أن فتح هؤلاء القواد فتحٌ عسكريٌ

يقوم على القهر، يبقى فيه غالب ومغلوب، يعيش الغالب يقظاً متحرساً، والمغلوب متربصاً متحفزاً للأخذ بالثأر، أما الفتح الإسلامي فهو عجيب في طبيعته.

لننظر البلدان التي فتحناها، لقد فتحنا سورية، فهل تستطيع أن تميز في سوريا الآن أبناء الفاتحين الغالبين من أبناء أهل البلاد المغلوبين؟ ذلك أنه ما دخلَ الإسلام بلداً إلاّ استقر فيها وبقي... هذه أندونيسيا. لقد دخلها الإسلام من أقلَّ من أربعمئة سنة، دخلها في وقت قريب من دخول الاستعمار إليها؛ أما الاستعمار فقد ذهب إلى غير عودة، وأما الإسلام فقد بقي فيها وسيبقى إن شاء الله إلى يوم القيامة. ذلك لأن الفتح الإسلامي لم يكن فتحاً عسكرياً، وما فتح المسلمون البلاد ليأخذوا منها الغنائم ولا ليحكموا أهلها بل ليشاركوا أهلها في الخير الذي أنزله الله عليهم.

إن العالم اليوم تقوده قوتان كبيرتان، أميركا من هنا، وروسيا من هناك، فلو جاء شخص أميّ لا يقرأ ولا يكتب، ولم يدخل في حياته مدرسة، ولا زار المدن الكبيرة، بل نشأ في قرية بعيدةٍ متواريةٍ خلفَ رمال الصحراء، لو قال هذا الرجل: إن عندي دستوراً جديداً للبشرية، فتعالي يا أمريكا وتعالي يا روسيا، تعالي يا أمم الأرض جميعاً، لألقيه عليكم لتتبعوه وتعملوا به، وأنا أضمن لكم إن اتبعتموه السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة: فماذا يقولون عنه؟ يقولون: إنه مجنون، وقد قالها السفهاء من قريش عن محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام، فما رأيكم إذا لم تمضِ على هذا الشخص وعلى دعوته ثلاثونَ سنة حتى حكم ثلث المسكون من هذه الكرة، وحتى أزاح إحدى الدولتين الكبيرتين وأزالها عن الوجود، وضعضع بنيان الأخرى حتى أخضعها ثم أزالها؟

هذا الذي صنعه محمد وخلفاء محمد ﷺ.

وهذه هي قصة الفتح الإسلامي، الفتح العجيب، المعجزة التي

تحققت على يد الجندي العربي المسلم والقائد العربي المسلم، هذا الجندي، الذي مشى من جزيرة العرب شرقاً إلى العراق وفارس وأفغانستان وإلى الهند، وأوغل فيها حتى بلغ الصين، ومشى من جهةِ المغرب إلى مصر وآخر إفريقية حتى وصل البحر فوقف عليه عقبة بن نافع بفرسه وقال: اللهمّ لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً في سبيلك.

ثم تخطَّوا البحر إلى إسبانيا ثم بلغوا قلب فرنسا، حتى جاء يوم كان فيه هذا البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية.

* * *

قد تقولون: إن الجنود قد يصلون اليوم إلى أبعد من ذلك. الجندي الأمريكي يأتي من أمريكا إلى كوريا. وأنا أقول: هذا صحيح، ولكنهم يأتون بالطيارات ويتنقلون بالسيارات، يأتي الجنديَّ غداؤه ساخناً، ويأكله قاعداً بالشوكة والسكين، أما الجندي العربي المسلم فكان يمشي على رجليه، وإن وجد دابةً تعاقب عليها عددٌ من الجنود: في بدر تعاقب رسول الله عليه الصلاة والسلام وعلي ورجل ثالث على ناقةٍ واحدة، يركب أحدهم ويمشي اثنان. إن في الجيوش اليوم مصلحة تموين ولم يكن في الجيش الإسلامي مصلحة تموين، كانوا يعدّون زادهم بأنفسهم. وما زادهم؟ تمرات يأكلها الجندي في اليوم كله ويعيش كذلك أياماً طوالاً، هذا الجندي الذي كان عَجَباً في صبره وكان عجباً في طاعته، وكان في إيثاره أعجب منه في طاعته وفي صبره، كان يؤلف بين الجنود المحبة والإيثار، ولا ينفع اجتماع الأجسام إذا لم تجتمع القلوب والنفوس.

أذكر لكم حادثة واحدة في معركة اليرموك: ذهبوا بعد المعركة يفتشون عن الجرحى، فوجدوا جريحاً يُحْتَضَر يريد جرعة ماء. وكانت هذه الجرعة أثمن عنده من خزائن الأرض للإنسان الصحيح المعافى، فجاؤوه بها، فرأى زميلاً له جريحاً مثله يريد أن يشرب فأبعدها عن فمه

وقدّمها إليه، وأعطاها الثاني لجريح ثالث؛ ومات الثالث قبل أن يصل إليه الماء، فعادوا للجريح الأول والثاني فوجدوهما قد ماتا وهما عَطِشان.

هذا الإيثار العجيب لا يمكن أن تلقى مثله إلاّ في الجيش المسلم... والأمانة؟ تعلمون أن العرب كانوا يعيشون في فقر وفاقة، وعندما غنموا جواهر تاج كسرى، التي كانت أغلى وأثمن من جواهر التاج البريطاني، لم يمد جنديّ يده إلى جوهرة منها قد تغنيه إلى أحفاد أحفاده. وعندما جاءت هذه الكنوز إلى عمر ونظر إليها، قال: إن قوماً أدّوا هذا لأمناء.

وكيف لا يكونون أمناء وقد رُبّوا في مدرسة محمد؟

قتيبة بن مسلم كان أعظمَ من مئة نابليون. كان عنده رجلٌ أمين يجمع الغنائم ويقسمها، واسمه ابن وَأْل، قال له أحد القادة: سأرسل لك رسولاً ليأخذ حصة فرقتي من الغنائم لأوزعها عليهم، وانتظره ابن وألٍ فتأخر، ومرَّ جنديّ فظنه هو الرسول الذي جاء ليأخذ المال فدفعه إليه وقال خذهُ، وفي اليوم الثاني جاء القائد يطالب بحصة فرقته فقال له ابن وأل: سلمتها لرسولك، فقال: أنا لم أرسل أحداً، فاختلفا، وسمع الجندي بذلك فجاء بها برباطها لم يَفُكَّها، وكان فيها خمسمئة ألف.

خمسَمئة ألف!... الجندي محتاج إلى خمسمئة منها، بل ربما كان محتاجاً إلى خمسين منها فما مدّ يده إليها ولا حلَّ رباطها وأدّاها كما هي.

ذلك لأن الجنود كانوا يعملون لله لا يبتغون جزاءً ولا وساماً.

كان مسلمة بن عبد الملك القائد الأموي يحاصر حصناً، وأعياهم حصاره، فاختار فرقة فدائية لاقتحامه، وتقدم رجل من تلك الفرقة تحت

وابل من السهام والنار المنطلقة من كل جانب من جيوش العدو، معرضاً نفسه للخطر، حتى نقب نقباً (أي ثغر ثغرة) فدخل في هذا النقب الجنود، وفتح الحصن وكان النصر، واختفى ذلك الرجل، وسأل عنه مسلمة فلم يعرفه أحد. فجمع الجند ثم قال: أين صاحب النقب؟ أستحلفه بالله أن يأتي، فتقدم رجل مقنَّع لا تظهر منه إلا عيناه وقال: أنا صاحب النقب، وما جئت إلا لأنك استحلفتني، وأنا أسألك بالله، ألاَّ تسألني عن اسمي، وإذا عرفته فلا تخبر به أحداً لأني عملت ذلك لمن يقدر أن يعطيني أكثر مما تعطيني، فإن كان عندك مال أو جائزة فقد عملت الذي عملته لله الذي يعطي أكثر مما عندك.

* * *

تسمعون بالثغور، وهي على حدود البلاد، يذهب إليها المتطوعون.

وفي أحد هذه الثغور كان قتال بين جيش من المسلمين وآخر من الروم. ودار القتال على طريقة المبارزة وخرج أحد أبطالِ الروم وطلب البراز، فخرج إليه مسلم فقتله الرومي، ثم برز إليه ثانٍ وثالث فقتلهم، ومرّ النهار على ذلك حتى استاء المسلمون، وفي اليوم التالي برز له من المسلمين فارس ملثَّم وما زال به يحاوره ويداوره حتى قتله؛ فهلَّل المسلمون وكبّروا، وبدلاً من أن يتجه الفارس للصف حتى يستقبله الناس هرب من خلفهم وتوارى عن الأنظار، فتبعه أحد الجند وما زال به حتى عرفه، أفتدرون من كان ذلك الرجل؟ من كان ذلك الفارس البطل؟ إنه الإمام، العالم، صاحب أبي حنيفة، المحدِّث، عبد الله بن المبارك، الذي كان يحج سنة ويغزو سنة، وذلك أن علماء المسلمين كانوا يتطوعون ويسابقون الجنود إلى الجهاد.

وأضرب مثلاً لقائد من قواد المسلمين لو أنصَفه التاريخ لاعتبره واحداً من أعظم القواد. . . كان أعظم من هانيبال ومن الإسكندر، هو

خالد بن الوليد، الذي تجلّت عبقريته في الدفاع وفي الهجوم، وعبقريته في الانسحاب لما انسحب من معركة مؤتة بثلاثة آلاف كانوا وسط مئة وخمسين ألفاً من الأعداء، لو أطبقوا عليهم لسحقوهم سحقاً، ولكن هذا القائد العبقري استطاع أن يَسُلَّهم من وسط المعركة سلاً. وإذا كان الحلفاء يفخرون بالانسحاب من دنكرك، هذا الانسحاب الذي طبَّلوا له وزمروا واعتبروه حدثاً عظيماً، فإن انسحاب مؤتة أعظم منه، لأن جيش المسلمين لم يخرج للقتال وإنما كان سرية استطلاع ما فيها إلا ثلاثةُ آلاف رجل، وهل يعقل أن يرسل رسول الله عليه الصلاة والسلام ثلاثة آلاف لمحاربة دولة الروم الشرقية (بيزنطة) ومعها عرب الغساسنة وغيرهم؟ فوجئت هذه السرية بجيش عظيم من الروم ومن العرب المتحالفين مع الروم، وكان عدد هذا الجيش كما يذكر المقلون المعتدلون من المؤرخين مئة ألف، ويقول الآخرون: أنه كان يضم أكثر من مئتي ألف، وتعاقب القادة المسلمون فاستشهدوا كما تعرفون، واستلم خالد القيادة فاستطاع أن ينجو بهم وأن يعيدهم سالمين إلى المدينة.

إن خالداً كان أعظم قواد التاريخ القديم، ومن عبقريات خالد هذه الرحلة التي انتقل فيها من العراق إلى الشام يخترق أرضاً قد انتشرت فيها جيوش الروم، أرضاً قَفْراً، ليس فيها جدول ماء، ولا غَدير تخلَّف عن المطر، ولا نبت أخضر، هذه الرحلة هي التي يتكلم عنها القائد العسكري أحمد اللحام في هذه المحاضرة التي أُقدمها لكم الآن. لقد اخترق فيها بادية الشام وجاء العدو من حيث لا يتصور أن يأتيه، مثل هذه الحركة قرأتها في حرب قرطاجنة (الدولة الفينيقية) مع الروم بقيادة هانيبعل (أنيبال) إذ جاءهم من فوق جبال الألپ، ولم يتوقع الروم أن يأتيهم من ذلك الطريق، وأعاد القصة نفسها نابليون بعد ألفي سنة.

كان القائد المسلم لا تفاجئه مشكلة إلاً أَسْعَفته عبقريته وأمدّه إيمانه بحل لهذه المشكلة فلا يفزع ولا يرتبك. وعندما وصل خالد وجد الروم

يقاتلون على نظام التعبئة، والمسلمون يقاتلون عادة فرادى على طريقة الكرّ والفرّ، فلم يكن يحتاج إلاّ إلى مراقبة الروم في تعبئتهم حتى يستوعبها ويصنع مثلها ويعبىء الجيش الإسلامي تعبئة كانت هي الفاتحة لكل التعبئات التي جاءت بعدها.

ومن جملة المواقف التي فاجأت القادة المسلمين هجوم الفيلة يوم القادسية، الفِيَلة التي لم يعرفها العرب من قبل، ففزعت منها في اليوم الأول خيولهم وهربت، واضطرب الجيش الإسلامي، لكن لم يفقد أعصابه، وأسعفت القادة عبقريتهم، وأمدّهم إيمانهم بخطة معاكسة، فجاؤوا بالجمال وبرقعوها ببراقع لهَا ألوان مختلفة وجعلوا فيها أجراساً، وفاجأوا بها خيل الفرس ففزعت منها كما فزعت بالأمس خيول المسلمين من فيلة الفرس.

وعندما كان هارون الرشيد في حربه مع البيزنطيين بقيادة نكفور، عقد معه معاهدة وانسحب هارون الرشيد عملاً بالمعاهدة، حتى إذا وصل إلى أوائل العراق، نقض الروم العهد، وخشي وزراء الرشيد من إخباره حتى جاء شاعر فتلطف وأخبره بما كان، بشعر قاله، فارتد هارون الرشيد إلى بلاد الروم من ساعته رغم الثلوج والشتاء وانتصر على الروم.

* * *

إن من أعظم الأسلحة التي اعتمد عليها القادة المسلمون في كافة العهود سلاح الكتمان. سَنَّ لهم ذلك رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، وهم يعيشون في صحراء مفتوحة لا حدود لها، ومع ذلك، فقد اتخذ من الاحتياطات ما منع وصول أي خبر إلى قريش حتى فوجئوا بنيران الجيش الإسلامي على جبال مكة من جهاتها كلِّها، وكان الفتح.

قد تقولون إن ذلك من البديهيات، لكنه عند كثير من الناس ليس بديهياً. ومن عرف منكم ما كان أيام حرب الـ ٦٧، حين كانت الإذاعات

العربية تعلن عن مواقع جيوشها حتى تدل عليها اليهود فينزلوا بها بأسهم، أدرك أننا نخطىء حتى في البديهيات.

وبعد، فهل تظنون أن جميع معارك المسلمين كانت بالسيف والرمح فقط؟ لقد كانوا يستعملون أنواع الأسلحة عملاً بقول الله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾. هَلْ تعرفون أنها كانت عندهم أسلحة للحصار، منها ما يسمى بالدبابة، ومنها ما يدعى الكبش لنقب الأسوار، وفي حصار عكا كان الصليبيون يحاصرونها، فجاء المسلمون وضربوا حصاراً حول المحاصرين، وتجلّت في تلك الحرب فنون من المهارة ومن الحيل الحربية. جاء الصليبيون ببرج من ثلاثة أدوار كأنه عمارة عالية تمشي على دواليب، فوضعوه عند السور لاقتحامه، وحاول المسلمون إحراقه فلم ينجحوا، إذْ كان مغطى بجلود مدهونة بمادة لا تؤثر فيها النار، فجاء جندي إلى رئيس المهندسين العسكريين في جيش صلاح الدين، القائد الأمين والمهندس العظيم الذي افترى عليه الأدب فظلمه وهو قراقوش، فقال له: إنني أستطيع أن أصنع لكم ناراً تحرق هذا البرج، فقبل منه ذلك، وأعطاه المواد التي طلبها، فلما وصلت إليه، ركَّب بعضها على بعض وصبَّها في قدور، وأحكم إغلاقها، فصارت مثل القنابل في هذه الأيام، وألقيت على ذلك البرج فانفجرت بِدَويٍّ كالرعد واحترق البرج. هل تظنون أن المسلمين تركوه وقعدوا ينظرون إليه ويهتفون الهتافات الحماسية، وينشدون الأناشيد العسكرية؟ لا، بل سحبوه بالحبال وبالكلاليب، واستفادوا مما كان فيه من قناطير الحديد.

ولا تعجبوا أن يستفيد القواد الكبار من عبقريات العامة ومن كفاءاتهم، فهذا صلاح الدين، انتبه هو وغيره من القادة إلى أن الجندي ليس الذي يقاتل في الميدان فقط، بل إن كل جندي في الميدان وراءه عشرة ينبغي أن يعملوا ليستطيع هو القتال. فحشد صلاح الدين ومن قبله نور الدين جميع الطاقات، بل لقد استفاد حتى من اللصوص، إذ

أحضرهم وقال لهم: ألا تريدون أن تسرقوا؟ فذهبوا ينكرون ويتبرؤون، قال: إني أطلب منكم أن تسرقوا لي أنا، وأنا أدفع لكم، فهل تعرفون ما الذي كانوا يسرقونه؟

كانوا يسرقون قادة الصليبيين، وممّن سرقوهم جوسلان أحد أبطالهم الكبار الذين دوّخوا المسلمين، تسلل إليه اللصوص وكمّموه بمُلاءة مخدرة، فلم يفق إلا وهو بين يدي صلاح الدين. هؤلاء القادة العظام من أمثال خالد وقتيبة، وغيرهم ممَّن أهملهم التاريخ فلم يعطهم حقهم كالمهلب بن أبي صفرة، ذلك القائد الذي حارب الخوارج فوضع أسساً ثابتة لحرب العصابات. بل إن الخوارج أنفسهم كانوا بالنظرة العسكرية أُعجوبة في إقدامهم وسرعة حركتهم، كان شبيب ينتقل من الكوفة إلى منتصف طريق البصرة في ليلة واحدة، ومن مواقف شبيب أنه كان أربعون من الخوارج من العرب الخلّص قد وقعوا في حصار جيش من ألفي مقاتل، فشكّل شبيب ومن معه رأس حربة، واستطاعوا اختراق الجيش والنجاة إلى الصحراء، وإنقاذ المحصورين دون أن يمسّ أحد منهم.

* * *

إن القيادة العليا غالباً كانت بيد الخليفة، وهذا عمر بن الخطاب كان يدير ثلاث جبهات: واحدة في الشام، والثانية في العراق، والثالثة في مصر، يديرها وهو في قلب المدينة، ليس أمامه هاتف كهربي (الكتروني) ولا أي وسيلة من وسائل الاتصال التي نعرفها اليوم، ولا طائرات توصل الأخبار، وكان يقف على تفاصيل المعارك وأماكنها، فيكتب إلى قائده بأن يصعد إلى الجبل الفلاني، أو يقول له: استدر من هنا وهاجم من هناك. وفي كتابي (أخبار عمر) تفصيل واسع لهذا الإجمال.

وكان الحجاج يقول لقواده: صفوا لي مكان المعركة، فيرسلون

إليه وصف المكان تفصيلاً، فكان يضع الخطة ويترك للقائد أن يتصرف بها.

فمن أين تخرج هؤلاء القادة؟ يوم القادسية كان قائد جيش الفرس رستم وكان عسكرياً مثقفاً مدرباً، درس الفن العسكري المعروف في زمانه، ودخل معارك كثيرة، وأراد عمر قائداً من العرب يقف في وجهه فنادى سعداً، وقال له: اذهب لمواجهة رستم.

لقد تخرّج هؤلاء القادة من جامعة مؤلفة من غرفة ونصف غرفة مظلمة، لا نافذة لها، تحت جبل الصفا في مكة، هي دار الأرقم بن أبي الأرقم، تخرجوا من (مدرسة محمد).

إن عمر لو لم يُسْلم، لما دخل صفحات التاريخ، ولم يكن له في هذه الدنيا أثر. ما الذي عمله قبل الإسلام؟ إنه كاد يرتكب أبشع جريمة في التاريخ لو تمّت. إنه يريد أن يقتل خاتم الأنبياء، يريد أن يطفىء نور الله الذي سطع للدنيا من رأس جبل حراء. كان يريد أن يقضي على الحضارة التي دِنّا بها التاريخ، ولكن ما هي إلا أن دخل على رسول الله ونطق بالشهادتين وأمضى بضعة أيام، حتى أصبح عمر الآخر. عمر الذي حكم دولة تضم إحدى عشرة دولة من دول اليوم، كان عمر فيها، فوق أنه الحاكم، وزيراً للداخلية يضع القوانين الإدارية والتنظيمات، وكان وزيراً للمالية... إن ثلث الأنظمة المالية التي ترونها الآن في كتب الفقه هي من استنباط عمر، استنبطها من الكتاب والسنة، وكان على هذا رئيس المحكمة، والقاضي فيها الذي يقضي بين الناس، وكان هو القائد العسكري، وكان هو رئيس البلدية يفتش عن الموازين، وكان المحتسب يدور في الأسواق، وكان فوق هذا إذا جاءه البريد من الجبهات العسكرية يدور على بيوت الجنود فيدق الباب على نسائهم، فيقول هذا كتاب من زوجك، فتقول المرأة: إنني لا أقرأ فاقرأه لي، فيقرأ أمير المؤمنين الكتاب للمرأة من وراء الباب، فتقول له اكتب لي جواباً... فيكتب لها الجواب. وكان بعد ذلك يمشي في الليل يتفقد أحوال

المسلمين، فإذا وجد امرأة ليس عندها طعام لأطفالها، ذهب فجاء بكيس الطحين يحمله على ظهره، وأوقد النار بنفسه ينفخ فيها حتى يخرج الدخان من لحيته، فيطبخ لها، ثم يبكي بعد ذلك خشية أن يكون قد قصر في خدمة المسلمين.

* * *

بهذه الأخلاق انتصر أجدادنا. إن القوة المعنوية لا ينكر أثرها حتى في هذا العصر، وإذا كنتم لا تقبلون هذا الكلام مني وتقولون إني رجل لا خبرة لي بالشؤون العسكرية ولا بأصول القيادة، وإذا رددتموها علي فهل تردّونها على القائد العبقري قاهر رومل ثعلب الصحراء، أعني مونتغومري، الذي كتب في مذكراته مبيناً أن القوة المعنوية هي أساس النصر، حتى في هذا العصر؟ كان المسلمون في المعارك كلها إلاّ قليلاً منها أقل من عدوهم عَدداً وعُدداً، وكانوا ينتصرون، فلماذا لا ننتصر نحن اليوم؟ ما الذي ينقصنا حتى يغلبنا اليهود؟ هل ينقصنا العدد ونحن أكثر من اليهود عدداً؟ هل ينقصنا المال، ونحن أكثر منهم مالاً؟ إن ما في أيدي المسلمين جميعاً من المال أكثر مما في أيدي اليهود. والعلماء في العلوم العقلية والكونية من المسلمين أكثر من العلماء بها من اليهود. والسلاح الذي يملكه أو يستطيع أن يملكه المسلمون أكثر من السلاح الذي يملكه اليهود، فإذا كان لا ينقصنا العدد ولا ينقصنا المال ولا ينقصنا العلم ولا ينقصنا السلاح، فما الذي ينقصنا؟

ينقصنا الذي كَمُل لأجدادنا فكان هو عماد نصرهم وسبب ظفرهم: إنه الإيمان.

* * *

وبعد: فإن للتاريخ صفحات... التاريخ السياسي، والتاريخ الاجتماعي... والتاريخ العلمي، والتاريخ الأدبي، والتاريخ العسكري،

فهل أدى ضباطنا وقوادنا العسكريون حق الأمة عليهم بتدوين هذا التاريخ؟ أنا لا أعرف من كتب في تحليل المعارك التي خضناها تحليلاً عسكرياً إلاّ طه باشا الهاشمي فيما كتبه عن حروب الردّة، وما كتبه اللواء محمود شيت خطاب وهو أقرب أن يُعَدَّ من التاريخ العام لا من التاريخ العسكري، ولعلّ من أجود ما كتب في هذا الباب، هذه المحاضرة، فإنني من يوم سمعتها قبل نحو ستين سنة أعجبت بها وتمنيت أن أسمع الكثير من أمثالها، وإنني حين أقدمها للقرّاء أحسّ فخراً بها واعتزازاً.

وأنا أقول الآن، إننا ما انهزمنا في حزيران (يونيه) سنة سبع وستين، بل انهرمت فينا المبادىء المخالفة للإسلام، هزمت فينا الخلائق التي أخذناها من عدونا، هزم فينا خلق الانقسام، خلق التردّد والانحراف. على أن الهزائم لا تقتل الأمم، كل أمة في الدنيا تَغْلِب وتُغْلَب ولكن العاقبة لمن يثبت على حقه ويعاود المعركة من جديد. رسول الله ﷺ انهزمت جيوشه مرتين، ولكنه سرعان ما ردّ الهزيمة وحوّلها إلى نصر. كان عليه الصلاة والسلام متحلياً بالروح الرياضية، فلا يطغيه الانتصار ولا تحطمه الهزيمة، بل يتخذ من المعركة درساً ينفعه في معركة أخرى.

بولانَدَة مُحيت من خريطة أوروبا عدة مرات وأُعيدت، فإذا كانت هذه النكبة قد حاقت بنا اليوم في فلسطين، فإني أُذكركم بواقع تاريخي، هو أن القدس التي احتلها اليهود من ربع قرن قد جاء عليها وقت شهدت فيه غَزواً أعظم، وواجهتها قوى أكبر... قوى أوروبا بأسرها التي جاءت في حملات كان في بعضها مليون جندي، ومليون جندي في تلك الأيام تعدل عشرةَ ملايين في أيامنا. كان جيش إحدى هذه الحملات، أوله في عكا وآخره عند أسوار القسطنطينية. لقد سيطرت هذه الجيوش على القدس أكثر من تسعين سنة ثم ردّها أبطال ثلاثة: نور الدين وصلاح الدين والملك الظاهر لما نشروا راية الإسلام التي لا

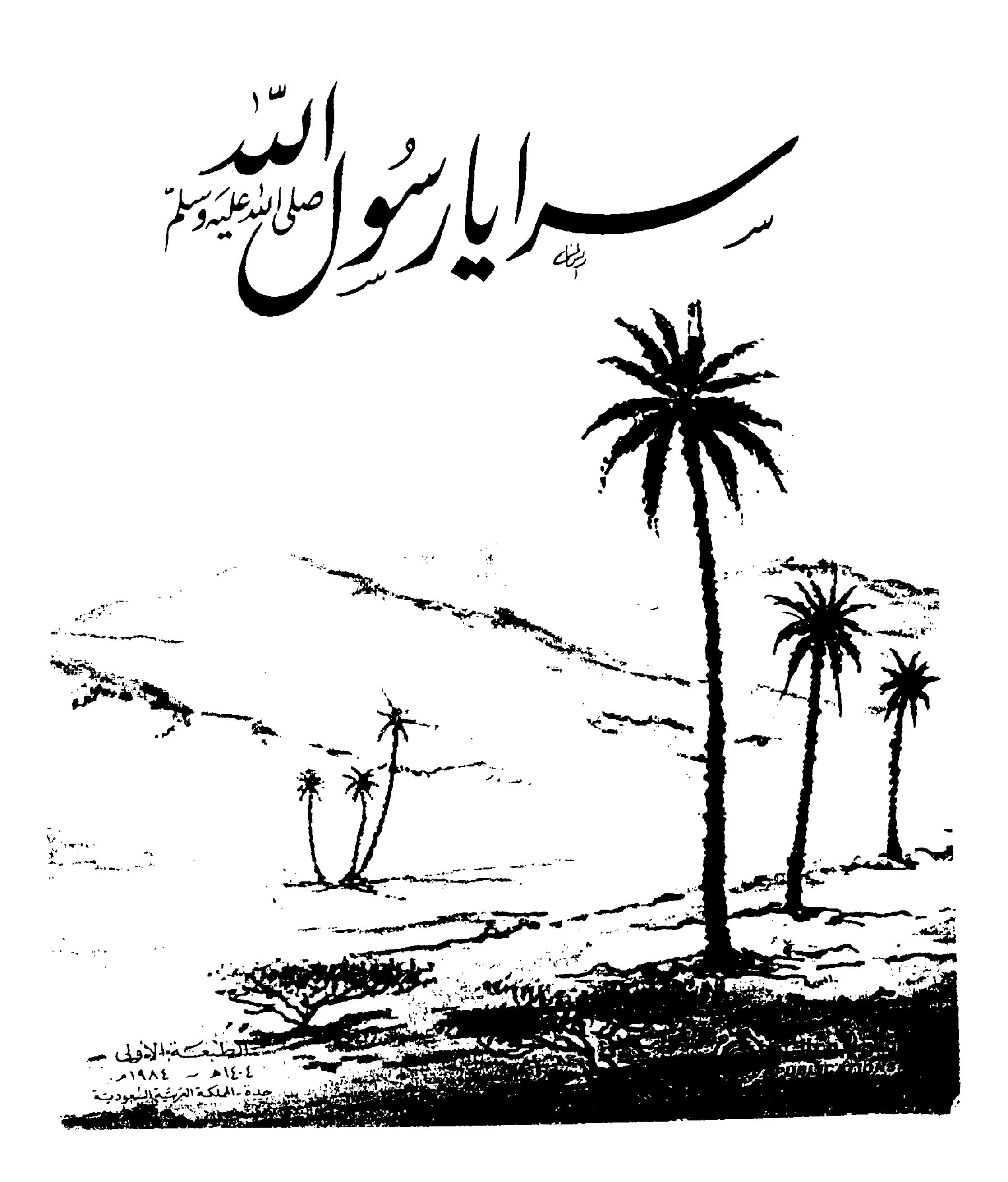
تهزم، وضربوا بسيف محمد الذي لا يثلم، فاصنعوا مثل ما صنعوا تنتصروا كما انتصروا...

إن قيام دولة إسرائيل دليل على تلك البشارة التي بشَّرنا بها رسول الله عليه الصلاة والسلام بأننا سنقتل اليهود. كيف نقاتلهم وهم متفرقون؟ وهل يكون القتال إلاَّ بين جيش وجيش؟ فلو لم ينجحوا في فلسطين ولم يقيموا دولة، فكيف يتم القتال بيننا وبينهم؟ كيف تتحقق البشارة وهم أوزاع متفرقون تحت كل كوكب؟ فلا تَشُكُّوا بأنفسكم، ولا ينقص يقينكم بوعْدِ ربكم؛ وثقوا أنكم إذا كنتم جنداً لله فإن جند الله منصورٌ دائماً ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

مكة المكرمة: غرة المحرم ١٤٠٦ هـ.

علي الطنطاوي

أبو تراب الظاهري



هذا الكتاب

أرأيتم القائم في صحراء، تَتَوقّد شمسُها، وتَتَلظّى رمالُها، وتَغدو حَصاها جمراً، يَلذع رِجلَ من يطؤه، ويَدَ من يمسُّه، وقد اشتدَّ به أوار العطش، وهَدَّه تعبُ المسير، فقعد يستريح فغلبه المنام، فإذا هو يُبصر نفسه من خلال الأحلام، في جنَّةٍ وارفة الظِلِ، ناعِشة النَّسيم، تتدفَق فيها العيون، وتجري من تحتها الأنهار، قد تجمّعت فيها اللّذائذ، وكَمُلَت الطّيبات؟

هذا مثالي لما قرأت هذا الكتاب.

كنت أعيش في دنيا الناس. . . ولن أفيض عليكم في ذكر ما ترون وتشاهدون، فإن رُؤيتكم إيّاه ومعرفتكم به، تُغنيكم عن شرحه.

فلما قرأت هذا الكتاب، أحسستُ أني فارقت دنيا الناس وعدت إلى العصر الذي كان الواحةَ في صحراء التاريخ. إلى عصر الصحابة، إلى الحقبة التي لم يكن لها مثيل في نقائها وصفائها، وفي سُموّها وجلالها، لم يسبقها ما يماثلها، وأحسب أنه لن يأتي بعدها ما يماثلها، لأنها ظاهرة لم تتكرّر.

لمّا صار الكتاب في يدي انصرفت نفسي عنه، وقلت: مالي وله، وما فيه إلا جمع ما في الكتب. وفتحتُه أنظر فيه كالمُكره عليه، فما قطعتُ منه عشر صفحات، حتى نسيتُ نفسي وزماني، وشعرتُ أني أعيش مع رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، في سراياهم وغزواتهم، فأحسست في نفسي بلذّة روحية لا تُدانيها اللذاذات.

ولقد وجدتُ مثلها يوماً لما كنت أغوص في (المصادر)، أعيش مع الرواة بين الكتب، أُعِدُّ كتابي (أبو بكر الصديق)، الذي صدر لي سنة ١٣٥١ هـ، ولقد حزنتُ يومئذ لما أصَرَّ ناشر الكتاب الأستاذ العالم الشاعر أحمد عبيد على نشر الأخبار كما هي، ولمّا طبع ندمتُ على أني استمعت منه، واستجبتُ إليه، ثم وجدت في ذلك خيراً.

ولستُ أكتب عن (سرايا الرسول للشيخ أبي تراب الظاهري) بقلم الناقد الذي يقوّم الكتاب، ولكن بقلم واحدٍ من القراء يذكر أثَرَه في نفسه، وأشهد أنه كان أثراً عميقاً خيراً، وأنه جعلني أعيش يوماً كاملاً (هو اليوم الذي أنفقته في قراءته) مع أفضل مجموعةٍ من البشر. حاشا الأنبياء. في أشرف حِقبةٍ من تاريخ البشر، وأنه سما بنفسي، ودَنا بي خطوة إلى ما أرجوه من الصلاح.

وأنا أحث من يَثِقُ بي ويسمع منّي، على قراءته، لأن سيرة رسول الله ﷺ هي القُدوة، وهو لنا الأسوة. وهي التطبيق العملي لوحي الله، ولا ينبغي أن يخلو بيت من مثل هذا الكتاب، ينظر فيه أهله كل يوم، يتلو منه الأب على أولاده، والأم على أطفالها، حتى يستروحوا روحَ ذلك العهد، ويَشُمّوا عَبَقَه، ويعيشوا في ظلاله.

ولو لم يكن في هذا الكتاب إلا أنه جمع لك بين دَفَّتيه ما تَفَرَّق في مجلدات خزانة كاملةٍ، فَقرَّبه إليك ووضعه بين يديك، لكفاه.

فله الشكر على ما بذل فيه من جهد، وإنه لجهد كبير، وعلى ما أوعاه فيه من خير، وإنه لخير كثير، وجزاه الله عليه أحسن الجزاء، ونفع به القراء.

علي الطنطاوي

نتائج الأفهام

في

تقويم العرب قبل الإسلام

وفي تحقيق

مَوْلدِهِ وَعُمْرِه عليهِ الصَّلاة والسَّلام

ألّفه بالفرنسيّة

محمود باشا الفلكي رحمه الله

وترجمه إلى العربيّة

أَحْمد زكي أفندي

قدّم له

الأستاذ الكبير علي الطنطاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

بقلم فضيلة الشيخ علي الطنطاوي

وجدت هذه الرسالة في المكتبة التي كانت لجدّي، فاطلعت عليها من صغري، وقرأتها مرات حتى حفظتها في صدري، ثم لما قرأنا السيرة من كتاب «نوراليقين» للشيخ محمد الخضري وجدته يعتمد عليها في تحديد يوم مولده ﷺ بالتاريخ الميلادي، وأشرت إليها في بعض أحاديثي في برنامج (نور وهداية) الذي يعرضه الرائي (التلفزيون) في المملكة من عشرين سنة بلا انقطاع، وأحسبها قد دخلت الآن في نطاق التاريخ، أو صارت من كتب التراث (بالتعبير الجديد)، لأنها طبعت سنة ١٣٠٥ ونحن في سنة ١٤٠٦، مرَّ على طبعها مئة سنة، جدَّت فيها معارف في الفلك وفي الفيزياء وفي العلوم كلها لم تكن معروفة على عهد مؤلفها، واستُحدثت وسائل للمعرفة لم تكن موجودة، وطبعت كتب في الحديث وفي التاريخ وصارت تحت أيدي الباحثين، لم تكن مطبوعة ولا تكاد تصل يدٌ إليها، وظهر رجال يعلمون من طرق تحقيق الأخبار وتخريج الأحاديث، لم يكن لهم يومئذٍ أمثال، أو كان أمثالهم قلّة نادرة من الرجال. وكان ينبغي أن يأتي من أهل الحديث والتاريخ من يعيد تحقيق أخبارها، ويأتي من علماء الفلك من يستفيد مما وصلت إليه العلوم، وما جدّ من وسائل الوصول إلى حقائقها، فيكمل أو يصلح ما انتهى إليه مؤلفها.

ولقد سمعت من عمي الفلكي الشيخ عبد القادر الطنطاوي أنَّ أباه الذي قدم دمشق من طنطا سنة ١٢٥٥ هو الذي حمل إليها علم الفلك، وسمعت أنه لما صنع (البسيط) الموضوع في منارة العروس في الجامع الأموي لم يكن تحت يده شيء من هذه (الجداول) اللوغارتمية، فأجرى آلافاً من المسائل الحسابية يمكن اليوم أن يستغنى عنها بنظرة في هذه الجداول.

وعندي كتاب لحسن وفقي بك، الذي كان ضابطاً في الجيش العثماني وكان من ضباط الشرطة في المملكة هنا أول العهد بتأسيسها، كنا نرجع إليه (إلى هذا الكتاب) لتحويل التاريخ القمري إلى الشمسي وفق قواعد وضعها لذلك، فصرت أكلم اليوم حفيدي إياد أو حفيدي عمرو وعمرهما إحدى عشرة أو اثنتا عشرة سنة، أكلمه بالهاتف من مكة، وهو في جدة، أقول له: يوم السبت السابع من رجب ١٣٤٨ مثلاً ماذا تعادل بالشهر الرومي، فيعطيني الجواب حالاً، يحسبه بالمحساب (الكمبيوتر).

فالعلوم قد تقدمت، والآلات كثرت، ولكن النبوغ قد قلّ.

لقد أرسل محمد علي باشا بعثات إلى أوروبا للدراسة فيها، أهدى إليَّ مرة الأمير عمر طوسون باشا عن طريق أستاذنا محمد كرد علي، كتاباً صغيراً نفيساً فيه أسماء أعضاء هذه البعثات، من نظر فيها رأى أنه قد نبغ من بينهم كثير، كانت المناصب خالية فتبوّؤوا معظمها، وكانت المكتبة العربية فقيرة في كتب العلوم الجديدة فأغنوها بما ترجموه وبما ألّفوه، وحسبكم برفاعة الطهطاوي وما أنتج هو وتلاميذه في (مدرسة الألسن)[1] وعلي مبارك باشا وما صنع في وزارة المعارف التي كان ناظرها (أي وزيرها) وما ألف من كتب.

---

(١) اللسان بمعنى اللغة جمعه ألسن، واللسان الذي هو الجارحة أي العضو جمعه ألسنة.

لقد وضع هؤلاء المبتعثون أسس نهضتنا الفكرية الجديدة. وعندنا اليوم ما الله أعلم به من البعثات الدراسية في أوروبا وأميركا، وعاد منهما ممن ابتعث من قبل عدد الله أعلم به، ولكن لم نجد لهم مثل هذه الرسالة، التي حوت على صغرها، ما لا تجده في المجلدات الكبار.

وكان من العادات الحسنة أن يرسل مع كل بعثة إمامٌ يصلي بأعضائها، ويكون مرشداً لها ومفتياً، فكان من هؤلاء من شاركهم دروسهم، فتعلم معهم، كرفاعة الطهطاوي نفسه، فقد بعث إماماً فتعلم الفرنسية، ودرس وحمل الشهادة، وصار من أركان النهضة العربية، وإن كان من أوائل من فتن بالحضارة الأوروبية.

* * *

ومن هؤلاء المبتعثين مؤلف هذه الرسالة محمود باشا الفلكي، فكيف استفاد من علم الفلك في تحقيق الأحداث التاريخية؟

أنا أعرف (بالقليل الذي تعلمناه في المدرسة من الطبوغرافية) أن الذي يريد أن يضع مصوّراً (خريطة) لبلد من البلدان يحدد المعالم الثابتة، كالجبل أو النهر أو القلعة أو المسجد الجامع، ثم يحدد مكان غيرها بالقياس إليها، وتعيين بعدها عنها، ومكانها عن يمينها أو شمالها، وكذلك صنع مؤلف هذه الرسالة.

عمد إلى حدث معروف وهو كسوف الشمس يوم وفاة إبراهيم (ابن رسول الله ﷺ) فجعله الركيزة الأولى، والكسوف يعرف العلماء موعده باليوم والساعة والدقيقة، لا لأنهم يعلمون الغيب، فلا يعلم الغيب إلا الله، ولكن لأنَّ كل شيء خلقه الله بقدر، بنظام متين، على سنة ليس لها تبديل ولا تحويل.

ثم نظر إلى ما اتفق الرواة عليه، كاتفاقهم على أن الرسول ﷺ ولد يوم الإثنين، وأنه ولد في شهر ربيع الأول، فوجد أن يوم (١٢) من

شهر ربيع لا يمكن أن يكون في سنة مولده يوم اثنين فترجح لديه أنه ولد في اليوم التاسع لا الثاني عشر منه، والروايات الصحيحة تؤيد ذلك.

ونظر إلى ما روي من أنه ﷺ لما وصل المدينة رأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، ومن الثابت أن الهجرة كانت في ربيع الأول فكيف جاءت عاشوراء في ربيع؟

في الرسالة تحقيق جيد لهذه المسألة.

وبحث في التاريخ الذي كانوا يؤرخون به في الجاهلية، وشرح أمر النسيء الذي وصفه الله بأنه زيادة في الكفر.

* * *

أنا كما قلت لكم: انظر في هذه الرسالة دائماً من أكثر من سبعين سنة من يوم تعلمت القراءة، ووجدتها أمامي، فكانت من أوائل ما قرأت من الكتب. وأنا أستوعب الآن كل ما فيها، ولو سردته لكانت هذه المقدمة إعادة وتكراراً للرسالة، وقد أخذت نفسي أن أمهد لها بجملٍ موجزةٍ، تُعَرِّفُ بها، وتكون مدخلاً إليها.

وقبل أن أختم هذه الكلمة أثبت بعض ما انتهى إليه المؤلف رحمه الله في تحديد هذه الوقائع. كان كسوف الشمس في المدينة يوم وفاة إبراهيم الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم **٢٧/ ١/ ٦٣٢** م.

وكانت ولادته ﷺ يوم الاثنين **٩** ربيع الأول الموافق **٢٠/ ٤/ ٥٧١** م.

وكان دخوله المدينة لما هاجر إليها يوم الاثنين ٨ ربيع الأول الموافق ٢٠/ ٩/ ٦٢٢ م.

وأشكر (دار المنارة) التي أبلغتني، بإعادة طبعها، أمنية طالما تمنيتها.

وإني لأرجو أن ينفع الله بها، وأن يسخِّر لها من علماء الفلك والرياضيات، ومن علماء الرواية والتاريخ، من يعيد النظر فيها، وينتفع مما جدَّ من المعارف، وما استحدث من الآلات كالمحساب (الكمبيوتر)، ثم يخرجها إخراجاً علمياً جديداً.

وألاَّ يحرمني ثواب تعريف القراء بها.

مكة المكرمة: رمضان ١٤٠٦. علي الطنطاوي

كلمات نافعة

تأليف

ناجي الطنطاوي

دار المنارة
للنشر والتوزيع
جدة - السعودية

تقديم

بقلم علي الطنطاوي

الدهر أيام ثلاثة:

ثلاثة أيام، هي الدهر كله!! وما هي غير الأمس، واليوم، والغد.

أما الغد، فللشبان يصبُّون فيه أحلامهم، ويستودعونه أمانيهم وآمالهم، ويتوقعون منه المستحيل. ينشدون ذلك النشيد الذي كان يوماً على كل لسان، وكان يُسمع في كل محفل ونادٍ: (نحن الشباب لنا الغدُ).

وأما الأمس، فللشيوخ يستعيدون بالذكرى أيامه، ويبكون بعد الفقد أحلامه، يتصورون مرَّه حلواً، وسواده بياضاً، لا يرون غيره، لا يقول أحدهم: (سأكون)، ولكن يقول (كنت)، لذلك دعا العرب الشيخ الكبير الكُنتي (نسبة على غير قياس).

وأما اليوم، فلغافل جاهل، وقفت به همته حيث تقف الأنعام، فكان مطلبه الشراب والطعام، فإن قضى وطره منهما طلب الزواج، فهمُّه طعامه وشرابه ونكاحه، لا يكاد يذكر ما مضى، ولا يستعد لما هو آتٍ، وعلى ذلك أكثر الناس، وقليل منهم من يعمل في حاضره لمستقبله، ويزرع في يومه ليحصد في غده. فمن زرع قمحاً حصد قمحاً، ومن ترك أرضه للشوك لم يحصد إلا الشوك.

* * *

المستقبل للشباب، ولطالما قاسيت من هذا المستقبل لما كنت شاباً. يقول لي أبي: (اعمل لمستقبلك)، ويسألني معلمي: (ماذا تريد أن تكون في مستقبلك؟)، فإذا أجبت جاء معلم آخر فأعاد عليّ السؤال، حتى تكرر عليّ خمسين مرة. بدَّلت فيها الغايات، وعدَّدت الطريق، وما كان شيء مما قدَّرت. كنت والمستقبل كحصان ربطوا بظهره عصا طويلة، ثم علَّقوا فيها حزمة من الحشيش، وقالوا له: (اسع لتدركها)، فمهما سعى فلن يصل إليها، لأنها معه مربوطة به، تمشي إن مشى وتقف أن وقف. نطلب المستقبل في غد فإذا جاء الغد صار المستقبل حاضراً وذهبنا نفتش عن مستقبل غيره.

كنا كراكب زورق في بحر هائج، يوجه زورقه الوجهة التي يراها، فتضربه موجة عاتية فتحوله، فتبدل وجهته حيث تتجه الموجة لا حيث يريد الراكب، نحس أننا كصاعد الجبل، كلما بدت له صخرة حَسِبَها الذروة، فحاول الوصول إليها، حتى إذا بلغها بدت له ذروة أخرى من ورائها، فإذا بلغ أعلى الجبل فلم يبق أمامه ما يسمو إليه هبط من الجهة الأخرى.

ونحن (أنا وناجي) الآن قد بلغنا الذروة التي استطعنا الوصول إليها، ولم يبق أمامنا ما نسمو إليه، فرجعنا نهبط من الوجه الآخر للجبل. عدت أنا من هذه الرحلة الشاقة: رحلة العمر، وما معي مما رأيت وما سمعت، وما لذذت وما ألمت، وما سعدت وما شقيت، إلا بقايا صور في ذهني، وأحاديث على لساني.

* * *

أمامي الآن كتاب أنجز طبعه ولم تخزم كراريسه، ولم يوضع غلافه، اسمه (كلمات نافعة)، حملته إليّ (دار المنارة) في جدة لأقدم له مقدمة. ولقد سبق أن قدمت لأكثر من خمسين كتاباً في أكثر من خمسين سنة، أولها كان لصحفي ناشيء اسمه عباس الحامض[1]، صار

(١) بل سبق أن نشر الأستاذ مقدمة «المطالع النصرية» للسان الدين ابن الخطيب، و«أخبار الظراف والمتماجنين» لابن الجوزي (مَجد).

من بعد صحفياً معروفاً، ثم مضى حيث يمضي الأحياء إلى رحمة الله، وآخرها مقدمة شرفني بها الداعية الكبير أخي الأستاذ أبو الحسن الندوي الذي تعرفونه فلا أحتاج أن أعرفكم به[1].

أما هذه الكراريس التي وضعت أمامي فهي لكتاب ألفه أخي ناجي، القاضي من قبل في الشام، والمستشار الشرعي الآن في وزارة الأوقاف هنا من نحو ربع قرن، فكيف أكتب مقدمة لكتاب أخي؟.

كنت أعرف عن مؤلفي الكتب التي أقدمها القليل فأصوغ منه الفصل الذي يطلبونه، ولكنني اليوم حيال حياة طويلة، أخبارها كلها ماثلة لعيني، أعرفها من يوم ولد سنة **١٣٣٢** هـ، وكان عمري نحو ست سنين، إلى حين بلغت الواحدة والثمانين. فهل يمكن أن أختصر حياة طولها خمس وسبعون سنة فأدخلها في خمس صفحات تكون مقدمة لكتاب؟ حياة رأى فيها ورأيت مثل ما يرى الناس جميعاً: أياماً بيضاً وأياماً سوداً، عرفنا فقراً وإن لم يبلغ حد الحاجة، واكتفاء وإن لم يصل إلى منزلة الغنى، عرفنا السرور عن طريق الحلال، وعرفنا الكدر، ورأينا أزواجاً وأشكالاً من البشر، منهم الصالح ومنهم الطالح، ومنهم الوفي ومنهم الغادر، ومنهم الأمين ومنهم الخؤون، حياة تبدلت فيها الدنيا التي نشأنا فيها مرات، دالت دول وحالت أحوال، ومات أقوام وولد أقوام، وبادت مذاهب في الفكر وفي الأدب ونشأت مذاهب، وكانت حرب وكان سلام. . . رأينا حربين عالميتين، بل رأيتهما أنا وحدي لأنه ولد في مطلع الحرب الأولى، فما دام سرور وما دام كدر، وما دام نفع وما دام ضرر.

كان عالمنا صغيراً، ولكنا كنا نراه على صغره كبيراً، لم يكن عندنا إلا القليل، ولكننا كنا راضين بقليلنا. كانت مسراتنا محدودة، ولكنا لم نكن نطمح إلى أكثر من تلك المسرات. لقد كنا سعداء، ولكن لم ندرك إلا الآن ـ بعدما فات الأوان ـ أننا كنا سعداء.

---

(١) انظر مقدمة «في مسيرة الحياة» ص٩٦ ـ ١١١ في هذا الكتاب.

يحسب الإنسان أنه كلما كثر ماله، وزاد اطلاعه، وعلت منزلته، كبرت سعادته، وينسى أن السعادة هي قصر المسافة بين ما تجده وما تتمناه. فمن كان يجد عشرة ويتمنى عشرين، فسعادته تنقص عشرة، ومن كان معه ألف ويطلب ألفين فنقص سعادته ألف.

فنحن نحِنّ إلى أيام الطفولة، ونتمنى عودتها، ونأسى على فقدها، لأننا لم نكن نطلب فيها إلا القليل.

ولست أريد أن ينشأ الشبان بلا طموح فقد صدق شوقي لما قال:

شباب قُنَّع لا خيرَ فيهم وبُورك في الشباب الطامحينا

* * *

كان عالمنا بيتنا الصغير في الحارة الضيقة في حي في طرف دمشق، بلغ من ضيق الحارة أنه لو مشى فيها اثنان ومدا أيديهما لنالا جانبيها، والمسجد الصغير الذي كان أبي إمامه، فلما توفّاه الله ولّوني أنا الإمامة وأنا لم أكمل السابعة عشرة، فقالوا لي: لا بدَّ للإمام من عمامة، وإن لم يكن قد اشترطها الشارع ولا أوجبها الدين، فأدرت على طربوشي عمامة فصرت شيخاً صغيراً. فقالوا: لا بدَّ له من لحية، قلت: العمامة جئت بها من عند البزاز (أي بائع القماش)، فمن أين آتي باللحية؟

فإذا أردنا تبديلاً ذهبنا إلى بيت خالتي أم المشايخ: (الشيخ شريف والشيخ سهيل والشيخ طه والسيد ثابت)، وهي الشقيقة الكبرى لخالي محب الدين الخطيب، التي ربته وكانت له أماً بعد أن فقد أمه طفلاً. وكان بيت خالتي عند المدرسة البادرائية بين الأموي وباب السلام، الذي كان يدعى قديماً باب السلامة، وهو أحد أبواب دمشق السبعة، وقد بقيت ستة منها على حالها، كما بقي أكثر السور سليماً. ولدمشق سوران وبينهما حي لا يزال طرف منه باقياً يسمى إلى الآن (حي بين السورين)،

وإن كانت العامة تبدِّل السين صاداً. فإذا مشيت من باب السلام مشرِّقاً بلغت (باب توما) ثم الباب الشرقي، وهو آخر الطريق المستقيم الذي ذُكر كما أظن في التوراة، فيكون بذلك أشهر شارع في التاريخ، وقد ورد في الأثر أن المسيح ينزل في آخر الزمان عند المنارة البيضاء شرقي دمشق[1]، والله أعلم بصحة الذي روي[2].

وأول هذا الطريق باب الجابية الذي دخل منه أبو عبيدة دمشق صلحاً، كما دخلها خالد من الباب الشرقي فتحاً، فالتقيا وسط معبد دمشق، الذي كان معبداً وثنياً، ثم صار كنيسة نصرانية، ثم غدا مسجداً من أقدم مساجد الإسلام وأجملها، فقسموه بين المسلمين والنصارى، فكان ما حازه خالد عنوة مسجداً، وما كان في حيز أبي عبيدة بقي بالصلح كنيسة. فلما كان عهد الوليد ارتفع الصوت بالشكوى: المسلمون يشكون من قرع النواقيس وقت الصلاة، والنصارى يشكون من ارتفاع الأذان، فبنى الوليد للنصارى الكنيسة الكبرى، بنيت لهم بأموال المسلمين وبأيديهم، ونقلهم برضاهم إليها، وأخذ منهم الكنيسة فضمها إلى المسجد.

وكنا إذا أردنا نجعة أكبر، وتبديلاً أكثر، ذهبنا إلى بيت عمي الأكبر الشيخ عبد القادر الذي كان المرجع في علم الفلك الإسلامي،

---

(١) وعند هذا الباب الآن منارة بيضاء.

(٢) الحديث ذكره العلامة الكشميري في «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» (٣٠) عن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال: «ينزل عيسى ابنُ مريم عند المنارة البيضاء شرقيَّ دمشق» أخرجه الطبراني، وابن عساكر في «تاريخ دمشق»، والضياء المقدسي في «المختارة». وقال محقق الكتاب الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ص١٩٢: «قلت: وأخرجه الرَّبعي في «فضائل الشام ودمشق» ص٧١ بسند صحيح، وهو في «مجمع الزوائد» ٨: ٢٠٥ عن الطبراني، وقال الهيثمي: «رجاله ثقات»، وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» عن الطبراني ورمز لحسنه» (مَجد).

وكان منزله في العفيف في أوائل حي المهاجرين، وقد أنشأ هذا الحي الأتراك للمهاجرين من أهل أقريطس (كريت) وما والاها، لمّا غلبهم الكفار على أرضهم وانتزعوا منهم جزيرتهم، وكان موضع المهاجرين ممتلئاً بالمدارس، تقوم صفاً متصلاً على كتف نهر يزيد متجاورة لا يكاد يحصى عددها من الصالحية إلى السفح المطل على الوادي.

وفي قاسيون واديان، أكبرهما الوادي الذي يجري فيه بردى، ويقدِّر العلماء أن مجراه هو الذي أنشأ الله به هذا الوادي في سوالف الدهور، وهو من أجمل أودية الدنيا، لا أعرف مثله إلا (وادي الأزدِن في بلجيكا) الذي يجري فيه نهر الموز، وفيه قرية (دينان) حيث كانت المعارك في الحربين العالميتين بين الحلفاء وبين الألمان.

فإذا رمينا بأبصارنا إلى بعيد وبلغناه بخيالنا، تصورت مصر وفيها خالي محب الدين الخطيب، واسطنبول وفيها عمي الشيخ عبد الوهاب، يلاحق قضية لنا مع آل الصلاحي بقيت في المحاكم بين دمشق واسطنبول ثلاثاً وثمانين سنة.

وكانت أمي رحمها الله تلزمني أن أكتب إلى أخيها رسالة، وكان ذلك سنة ١٣٣٥ هـ لما بدأت أتعلم الكتابة وأنشىء الرسائل. تقول لي كل يوم، وربما كررت لي القول مرتين في اليوم: يا علي، الله يرضى عليك، اكتب لي (مكتوباً) إلى خالك بمصر. ولم يكن يرضيها أن تكون الرسالة من إنشائي أنا، فلم يكن يعجبها إنشائي، بل أن أختار لها ديباجة حلوة من كتاب (الإنشاء العصري)، وكان يشتمل على جميع أشكال الرسائل: رسائل الاستعطاف والاعتذار والتهنئة والتعزية، التي ترسل إلى الوزراء أو الرؤساء أو الأهل أو الأقارب أو الإخوان أو الأصدقاء، وتقول لي: اقرأ (الديباجة) حتى أسمعها، لأنها رحمها الله لم تكن تقرأ أو تكتب، مع أن عمتي وهي أسنّ منها بخمس عشرة سنة، كانت تكتب وتقرأ وتحفظ كثيراً من آيات الكتاب ومن أحكام الفقه، تعلمته من رسالة لمحمود الحمزاوي. المفتي المعروف في دمشق في القرن الماضي.

اسمها (علم حال)، وهو كتيب في أصول الدين وأصول الفقه وفي الحلال والحرام، وفي الآداب والأخلاق، وضعه لتلاميذ المدارس الابتدائية، ولم يكونوا يفهمون منه شيئاً، فكانوا يحفظونه غيباً، ويرددونه كما تردد الببغاء ما يلقى عليها. وكانت عمتي مع أول فوج تخرج في مدارس البنات التي أنشئت بهمة الشيخ طاهر الجزائري في أواخر القرن الثالث عشر الهجري. وكان تاريخ شهادتها سنة ١٣٠٠هـ.

أقول (وأعود إلى الموضوع بعد أن خرجت عليه): إن أمي كانت ترتضي الديباجة فتكلفني نقلها من الكتاب إلى الورق ثم إرسالها إلى أخيها، فمكرت يوماً فكتبت إليه: السلام عليكم ورحمة الله... نحن بخير والرسالة في الصفحة كذا من كتاب الإنشاء العصري... أقول هذا توفيراً لوقتك ووقتي، وتسهيلاً عليك وعليَّ، ورد عليَّ مسروراً بما فعلت بكتاب لا يزال عندي يثني فيه على فعلي، لأنني كما قال: حفظت له وقته. أما عمي الذي في اسطنبول فما كنت أكتب إليه لأنني لا أعرف عنوانه.

* * *

يا الله، كم تبدلت الدنيا من تلك الأيام إلى الآن، ذهب عالَم وجاء عالَم آخر. كنت أصدر سنة ١٣٤٨ هـ رسائل متتابعة أسميتها (رسائل في سبيل الإصلاح)، جعلت إحداها صورة أدبية خيالية لما تكون عليه دمشق بعد تسعين عاماً، وجعلت ذلك عنوانها، أفتدرون ما الذي كان مما نراه الآن، لا بعد تسعين عاماً بل بعد ستين فقط؟ إن الذي تصورته بخيالي الجامح الذي لا يقف عند حد لم يبلغ ربع ما وقع الآن. وقد طبعت رسالتي [دمشق بعد تسعين عاماً] سنة ١٣٤٨ هـ، وأنا أتخيل الآن ماذا تكون حالي لو أنني نمت عشية ذلك اليوم في الكهف الذي نام فيه الفتية الذين آمنوا بربهم، فلم أستيقظ إلا سنة ١٤٠٨هـ، فإذا الأرض غير الأرض، والناس غير الناس، وإذا كل شيء قد تبدَّل، انقلبت الموازين، واختلت المقاييس، كبر الصغير، وصغر الكبير، وعزَّ

الذليل، وذلَّ العزيز، ولم تعد العظمة دائماً بما تحوي الرؤوس ولكن بما تصنع الأقدام، فالذي يرمي الكرة برجله فيدخلها الشبكة في الملعب أشهر وأكبر في الناس من الذي يكشف في العلم مجهولاً، أو يحل معضلة، أو يبني في صرح الأدب رفرفاً يكون لأمته ذخراً وفخراً. والذي يسلِّي الناس على المسرح، أشهر من الذي يعظهم في المسجد على المنبر، أو يعلِّم في الجامعة أبناءهم، أو يداوي في المستشفى مرضاهم، وغدا أمثال عادل إمام ودريد لحام أعرف في الناس من مدير الجامعة أو من شيخ الأزهر وأذيع اسماً وأشهر.

ولكن من نعم الله على الإنسان أن الطفرة لا مكان لها في نظام هذا الكون، وأن كل شيء يتبدل ولكنه يجري في تبدله على مهل. إنك ترى ظل الشمس عند الجدار تحسبه ثابتاً لا يتحرك، ولكن عُدْ إليه بعد ساعتين تجده قد انتقل من مكانه، والعقرب الصغير في الساعة تبصره واقفاً ولكنه يمشي. والإنسان ينتقل من الضعف إلى القوة ويعود بعد القوة إلى الضعف. يكون طفلاً لا يملك نفعاً ولا ضراً، لا يستطيع أن يطرد الذباب إذا حطَّ على أنفه الذباب، ثم يقوى حتى يطوي الأرض، ثم يعلو متن الهواء ثم يخترق طرف الفضاء، ولو سألته في أي ساعة من أي يوم انتقلت من الطفولة إلى الشباب ومن الشباب إلى الكهولة لما استطاع أن يجيب.

والليل يكون أسود داجياً، كمن كان في غرفة مغلقة لا يبصر مما حوله شيئاً، إذا أخرج يده لم يكد يراها، فإذا كانت الظهيرة من الغد ملأ الضوء المكان وكشف كل ما فيه، فهل انتقلنا من ظلمة الليل إلى وهج الظهيرة في لحظة واحدة؟ إنَّ سنة الله في خلقه أنه يولج النهار في الليل، وأنه يخرج من الطفل الضعيف رجلاً قوياً، ثم يعود القوي ضعيفاً كما بدأ.

لقد صدر في أعقاب الحرب الأولى يوم كنت تلميذاً في أواخر المدرسة الابتدائية كتاب ترجم إلى أكثر اللغات، وقرىء في أكثر البلدان، ألفه (شبنكلر)، كان مما جاء فيه أنه ينتقد ما يقرر على الطلاب

في المدارس من أن القرون الأولى تنتهي بسقوط روما، وأمثال هذه التحديدات، ومنها ما يدرس عندنا في تاريخ الأدب من أن العصر الأموي قد ختم بقتل مروان (الذي كان يُدعى لصبره بالحمار مدحاً له لا ذماً وانتقاصاً)، فلو أن روما سقطت يوم الجمعة، فهل كان يوم الخميس قبلها من القرون الأولى ويوم السبت من القرون الوسطى؟... ولو قتل مروان يوم السبت هل كانت الجمعة من العهد الأموي في الأدب، ويوم الأحد من العهد العباسي؟ إن من الشعراء من عاش في العهدين، نظم فيهما الشعر، وقال فيهما القصائد، فهل القصيدة التي قالها بشار مثلاً في العهد الأموي تختلف بخصائصها وصفاتها عن التي قالها في العهد العباسي؟

* * *

الدنيا التي عاش فيها أبي وولدت فيها أنا وأخي ناجي ما زالت تُنقص من أطرافها وتتغير معالمها، حتى لم يكد يبقى منها إلا أقل من القليل. وجاءت دنيا جديدة، فلو أن أبي بعثه الله من مرقده الآن لما عرف كيف يمشي في دمشق ولا عرفه أحد من أهل دمشق، ولغدا جاهلاً بها مجهولاً من أهلها، وكان علماً من أعلام علمائها. ولرأى ولده (سعيداً) الذي تركه ابن ثلاثة أشهر صار في الخامسة والستين. لقد غدونا كلنا نحن الأخوة الأربعة، وأختان لنا، كلنا صرنا أكبر سناً من أبينا ومن أمنا، اللذين قضيا ولم يجاوز أكبرهما الثالثة والأربعين، فهل رأيتم وسمعتم بأولاد أسنَّ من أبويهم؟

* * *

أنا إنما أنشأت هذا الفصل ليكون مقدمة لكتاب من كتب أخي ناجي، وناجي وأخواه: عبد الغني وسعيد كلهم أنبغ مني، ولكني خطفت الأضواء منهم كما يقولون في التعبير الحديث، ودخلت حلبة المصارعة، وما الحياة إلا مصارعة، بطبل وزمر، وضجة وصخب. نشرت سنة ١٣٤٨ هـ (رسائل في سبيل الإصلاح) التي أتكلم الآن عنها،

فانتقدت فيها المشايخ، وأساليبهم في التدريس، واختيارهم للكتب، وبعدهم عن العلوم الجديدة، فأثرتهم عليّ حتى أُلِّفت في الرد علىّ كتب منها: «الإفصاح عن رسائل الإصلاح» للشيخ أحمد الصابوني رحمه الله، وقد كان خطيباً من أبرع من عرفت من الخطباء، يخطب في المساجد يذم الشباب المنحرفين، ويدعو إلى التمسك بالدين، ويضرب المثل بي وبرسائلي، ولا يخرج حتى يبيع ما يحمله أتباعه من رسائله، ولما تيقن أني بعيد عما اتهمني به من مخالفة الدين كتب في آخر الرسالة أنه «يسلني مما قال سلَّ الشعرة من العجين»، ولكن ذلك لم يمنعه أن يبيع الكتاب وفيه العجين وفيه الشعرة التي سلّها، وأن يحدث عنه في المساجد.

ثم أصدرت السنة التي بعدها رسائل «سيف الإسلام» التي كانت تطبع على نفقة طائفة من خيار التجار، وتوزع بالمجان، هجمت فيها على الشبان الجاحدين كما هجمت في الرسائل الأولى على الشيوخ الجامدين، فوضعت نفسي بين حجري الرحى، وصرت كالواقف بين الصفين، يتلقى السهام من الجانبين.

نبهت الناس إليَّ، فظلمت إخوتي الذين هم أنبغ مني، ذلك لتعلموا أن الشهرة ليست مقياس العظمة، ولا المدار عليها في تقدير قيم الرجال.

لقد عرفت الشهرة وذاع اسمي وأنا ابن إحدى وعشرين سنة، ولي كتاب نشر يومئذٍ اسمه «الهيثميات»، لأنني كنت أنشر بإمضاء «أبو الهيثم»، وكنت أول من سمَّى نفسه به في دمشق، وكل من تعرفونه باسم (هيثم) في دمشق إنما ولد بعد إصدار هذا الكتاب. وتحت يدي الآن العدد الأول من مجلة (البعث) التي كنت أصدرها من نحو ستين سنة، قبل أن يولد حزب البعث وقبل أن يتخذ لنفسه هذا الاسم، وكان المسؤول عنها أمام الحكومة والذي يتولّى إدارتها «جمعية التهذيب والتعليم» ورئيسها الشيخ هاشم الخطيب رحمه الله.

في هذا العدد الذي صدر في غرة جمادى الأولى سنة ١٣٥٠ هـ

قصيدة لشاعر لم يصرح باسمه، ولكن وقَّع في ذيل قصيدته باسم «أبو النضر» جاء فيها:

ويلٌ لمن ملك القويُّ قيادَه	وغدا يبدّدُ ماله وبلاده
ويذيقه مرَّ العذاب وليس مَنْ	ينجيه من غم أذاب فؤاده
ما للقوي سوى الضعيف فريسة	والذئب يلقى في الشياه مراده
يعدو على الحمل البريء مخادعاً	فيريه منه البشر كي يصطاده
فِعْل الفرنجة بالضعيف من الشعو	ب تسوده إذ تبتغي استعباده
يا شرقُ فاذكر عهد عزٍّ قد مضى	كيما تعيد إلى الوجود تلادَه
أيام كان العلم فيك ونوره	يهدي ببازغ شمسه رواده
أيام كنا للوجود أئمة	ونري الوجود ضلالَه ورشادَه
اذكر أسود الله من حكموا الورى	بسيوفهم يتسلمون قياده
وانظر ديارهم تراها بلقعاً	والغرب يُؤوي رَبْعها أجنادَه
ملكوا أزمتها وساموا شعبها	خسفاً وهدُّوا ظالمين عمادَه
الضعف في شرع الحياة جريمة	يا ويل من ملك القويُّ بلاده

أترون هذه الأبيات؟ فلمن تحسبونها؟ إنها لطالب في الثانوية في السابعة عشرة من عمره، وأكثر طلاب الثانوية الآن، في كثير من البلدان، لا يستطيعون قراءة أمثالها بلا خطأ. وفي عدد جمادى الأولى **١٣٥٢** هـ من مجلة الرسالة قصيدة مترجمة شعراً عن (أندري شينيه) الشاعر الفرنسي المولود في اسطنبول سنة **١٧٦٢** م، كما ولد فيها أخوه الأديب ماري جوزيف شنيه بعده بسنتين، وهو شاعر معروف، وترجمة الشعر شعراً، مع المحافظة الممكنة على المعنى، من أصعب الصعاب. عنوان القصيدة (اللقاء العجيب). هذه أبيات شعرية تصور الشاعر العاشق وصاحبته تائهين في الغاب، كل يطلب الآخر ولا يجده، ويبحث عنه ولا يصل إليه، فتقول هي:

أيها الغاب هل رأيت حبيبي	قرب ماء الغدير عند الغروب

كم صباح أتاك بل كم مساء   عند همس الصبا وشدو الجنوب
سوف أصغي لكل صوت بعيد   فلعلي أحظى به من قريب

ويقول هو: (وهو في الجهة الأخرى من الغاب) لا يراها ولا يعرف مكانها:

إيه يا موجة الغدير سلاماً   يا عروس الماء النمير السكوب
احملي لي حبيبتي فهي عندي   زهرة الحب فوق غصن رطيب
كم لثمت العشب الذي وطئته   قدماها في الغاب دون رقيب

هي:

آه لو يعلم الحبيب بشوقي   وحنيني وحرقتي وشحوبي
هل أراه في الغاب؟ إن خيالي   ليراه في ذا المكان الرحيب
لم أفكر في أن أراك ولكن   جُزْتُه نحو بيتي المحبوب

هو:

أنا ألهو برؤية الموج وحدي   وذُرى الزيزفون تجلو كروبي
لم أفكر في أن أراك أمامي   لم أفكر في ذا (اللقاء العجيب)

* * *

هاتان المقطوعتان نشرتا من نحو ستين سنة لطالب كان يومئذٍ في المدرسة الثانوية، هو أخي ناجي الطنطاوي. نظم بعدها ما لا يحصى من المقطوعات، ومن القصائد، ولكنه لم يجمع منها شيئاً، ولولا أنني وجدت ما نشرته هنا في مجموعة الرسالة ومجموعة مجلة البعث من قبلها لضاعتا فيما ضاع.

وناجي أحد الذين يجري الشعر على ألسنتهم كما يجري الماء، ينظمونه عفواً، ويرتجلونه ارتجالاً، ولقد عرفت من الشعراء الكبار في هذا العصر من يرتجل، منهم الشاعر الكبير الشيخ عبد المحسن

الكاظمي، قال له مرة الأستاذ خير الدين الزركلي في مصر: وجدت أبياتاً أحب أن تجيزها: قال: هاتِ. فقرأ عليه أبياتاً من بحر الطويل وقافية الراء، فتدفق الكاظمي بقصيدة من البحر والروي، فلما بلغ منها بضعة عشر بيتاً، قال له خير الدين: لا عفواً، بل من البحر الكامل وقافية النون، فقال له: هل تمتحنني! خير الدين؟ وأجاز هذه الأبيات بقصيدة ارتجلها بلغت أبياتها خمسة وأربعين بيتاً، تدفق بها تدفقاً من غير إعداد ولا تحضير، وحدثني بها الأستاذ الزركلي رحمه الله والأستاذ أحمد عبيد.

وجزت يوماً بأخي ناجي، وكان وحده في الدار، فوجدته مكباً على المغسلة يعالج شيئاً فيها. قلت: ماذا تصنع؟ قال: هذا القميص وجدته متوسخاً فنزعته، قلت: هذا كلام موزون فأتمم القصة.

قال:

هذا القميص مع اللباس وجدته ... متوسخاً فنزعته وخلعته
ووجدت قِدْراً فارغاً فوضعته ... فيه وماءً صافياً فملأته
ووضعت تَيْداً فوقه ومزجته ... وتركته في جوفها ونقعته
وخرجت من بيتي وقد أقفلته ... ورأيت قربي مسجداً فدخلته
والفرضَ خلف إمامه أديته ... ومشيت في سوق هناك رأيته
متجولاً فيه وقد أحببته ... ورجعت للبيت الذي خلّفته
وبدا القميص لناظري فأخذته ... وبهمة وعزيمة نظفته

ومضى يكمل القصة على هذا النمط.

وما هذا بالشعر السامي، ولا بالفن الرفيع، ولكنه لسهولته ولقربه من أفهام الناشئة، يصلح أن يتخذ لنظم الأشعار للأطفال، كما يصلح للمسرحيات المنظومة. وأنا أعرف من الشعراء القدماء والمحدَثين من كان له مثل هذا الأسلوب، وليست تحت يدي وأنا أكتب هذا الفصل مراجع أرجع إليها، فأكتفي بما أحفظ من أسماء الشعراء وبما بقي في

ذهني مما قالوا. فمن هؤلاء البهاء زهير وأحفظ من شعره قوله:

من اليوم تعارفنا ونطوي ما جرى منا
فلا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلنا

ومن الشعراء العصريين شاعر عندي ديوانه في مكتبتي في الشام اسمه رستم ونسيت بقية الاسم[1]، ديوان كله من هذا النمط الذي يمكن أن تسميه العامي الفصيح كقوله:

لقد زرتُ زيداً وما زارني وما عجب أن قبلت اعتذاره
فإن الحمار بإصطبله يزار وليس يرد الزيارة

وفي أول الديوان بيتان عالقان في ذهني هما:

قالوا متى يطلع ديوانكم فوقعوا في غلطة مفظعة
صوابه ينزل إذ أنه في الطابق الأعلى من المطبعة

وبيدي الآن رسالتان علميتان، إحداهما فقهية عنوانها (من أحكام اليمين)، والثانية عنوانها (حقيقة الجن في الكتاب والسنة)، وأحسب أن جريدة (الشرق الأوسط) قد أشارت إلى الرسالة الثانية من أيام قريبة، فكتب فيها كاتب فاضل يعرِّف بها. والرسالتان لصاحب المقطوعتين، فهو شاعر وفقيه. ولا تعجبوا أن يجمع رجل بين الفقه والفتوى والقضاء، وبين الشعر منظوماً ومترجماً عن لغة أخرى، فإن تاريخنا العلمي مُتْرع بأمثال هذه النماذج، وحسبكم منها واحداً، هو ابن رشد الحفيد، وقيل له الحفيد لأن جده كان أيضاً فقيهاً وكان قاضياً، فهو في هذا كتقي الدين (ابن تيمية) المشهور الذي كان جده مجد الدين قبله فقيهاً معروفاً، ولكن اسم الحفيد غطَّى على اسم

---

(١) هو أسعد بن ميخائيل رستم، شاعر فكاهي لبناني، وله سنة ١٨٧٠ وتوفي سنة ١٩٦٩، له «الرستميات» طبعه سنة ١٩٠٥، و«ديوان أسعد رستم» ط١٩١٩، انظر ترجمته في «الأعلام» للزركلي ١/ ٣٠٢ (مَجْد).

الجد. ابن رشد مثلاً كان قاضي الجماعة في الأندلس، ولقب قاضي الجماعة فيها يعدل لقب قاضي القضاة في بغداد، وكان من أكبر فقهاء المذهب المالكي، مع مشاركة قوية واطلاع واسع على المذاهب الأخرى، ويكفي دليلاً على ذلك كتابه العظيم «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»، وهو من أجود الكتب فيما يدعونه الآن في كليات الشريعة بالفقه المقارَن، وهي ترجمة حرفية لاسمه عند غيرنا، ولو رجعوا إلى ما كان يسمِّيه به أجدادنا لكان خيراً وأجدى، وهو (علم الخلاف). فإذا قالوا: فلان عالم باختلاف الفقهاء، قصدوا غالباً اختلاف العلماء في المذهب الواحد، وإذا قالوا علم الخلاف فإنما يريدون به ما يراد الآن باسم الفقه المقارن. ابن رشد هذا كان أكبر الفقهاء، وكان في الوقت نفسه أكبر الأطباء، وكان الإمام في الطب، يؤخذ عنه، ويرجع فيه إليه، وكان أكبر عالم بالفلسفة، ردَّ على الغزالي بعد موته بزمن طويل، وذلك أن الغزالي كان أستاذاً في المدرسة النظامية يوم كانت تعدُّ الجامعة الكبرى في العالم المتحضر، فلخص مذاهب الفلاسفة وشرحها شرحاً واضحاً بيناً على عادته في كل ما يكتب، وصار كتابه هذا: وهو «مقاصد الفلاسفة» مرجعاً لكل من درسها، ثم ردَّ عليها ونقدها في كتابه المشهور: «تهافت الفلاسفة»، هذا الذي ردَّ عليه ابن رشد في كتابه: «تهافت التهافت»، وقد طبع الكتابان معاً وطبع معهما كتاب[1] لرجل ليس من طبقتهما ولا من بابتهما، لا أدري ما الذي جمعه بهما وحشره معهما.

ولابن رشد أمثال من الذين جمعوا علوماً مختلفة، وكانوا أدباء

---

(١) هو كتاب «الذخيرة» لعلاء الدين الطوسي المتوفى سنة ٨٨٧ رحمه الله تعالى، وقد أمره السلطان محمد خان العثماني الفاتح أن يضيف كتاباً للمحاكمة بين «التهافت» للغزالي وبين الحكماء، فكتب هذا الكتاب في ستة أشهر، وقد طبع الكتاب بمجلس دائرة المعارف النظامية بالهند بحيدرآباد الدكن (مَجْد).

وكانوا فقهاء وعلماء، أعرف من هؤلاء الكثير الكثير، ولكن لما ضعفت الملكات، وكان ما يدعى بعصر الانحطاط، انفكت الصلة بين الأدب وبين العلم، وضاعت الملكة البيانية فافتقدها أكثر المؤلفين، ولما كنا صغاراً كان العلماء بين اثنين: عالم بالعلوم الشرعية وله اطلاع على غيرها لكنه وقف عند القديم الموروث فلم يجاوزه، وجهل ما استحدث في العلوم بعد (عصر النهضة) فلم يعرفه، وبين عالم درس العلوم الحديثة التي كانوا يدرسونها على أيامنا في اسطنبول، ثم صاروا يدرسونها في لندن أو باريس أو أمريكا، ولكنه جاهل بالعلوم الشرعية.
كان من علمائنا في الشام من ينكر كروية الأرض مع أن المسلمين عرفوها من قديم، بل إنهم قاسوا طول خط الاستواء أيام المأمون، إذ أوفد كما أحفظ (ولعلي لا أكون ناسياً أو مخطئاً) أوفد بعثتين، واحدة إلى صحراء سنجار، والثانية إلى جوار تدمر، فرصدوا نجم القطب، ومشوا بخط مستقيم (في اتجاه الشمال)، حتى رأوه قد ارتفع درجة واحدة، فقاسوا المسافة على الأرض، وضربوها بثلاثمئة وستين، التي هي درجات الدائرة عرفاً، فعرفوا طول محيط الأرض، والرقم الذي وصلوا إليه لا يختلف عن الرقم المعترف به الآن عملياً إلا بقدر يسير.

فجاء من مشايخنا الذي كنا نقرأ عليهم بعد أكثر من ألف ومئتي سنة من يشك في كروية الأرض، ثم جاء شيخنا الشيخ الكافي التونسي الذي كتبت عنه في ذكرياتي، فألف في الشام لما هاجر إليها كتابيه: «الأجوبة الكافية» أولاً، و «المسائل الكافية» ثانياً، ذهب فيهما في إنكار دوران الأرض شتى المذاهب، وجاء بما توهمه دليلاً وليس بدليل على إنكار حركتها، والزعم بأنها ثابتة، والشمس تدور من حولها، كما كان يعتقد الفلاسفة الأقدمون من اليونان.

وعن الشيخ الكافي أخذ من قال بهذه المقالة من العلماء هنا، ثم رأينا من ينكر حقائق فلكية ثابتة فلا يصدق أن الشمس إنما تكسف في أوائل الشهر العربي، وأن القمر إنما يخسف في أواسطه، وكان منهم من

يدع الطب الحديث ويلجأ إلى (تذكرة داوود الأنطاكي) في الصيدلة، وإلى كتب الطب القديمة التي تأخذ عن جالينوس وأبقراط، وأصغر تلميذ اليوم في كلية الطب يعرف من الطب أكثر مما كان يعرف أبقراط وجالينوس.

كان العلماء كثيراً ولكن أكثر علمهم علم رواية لا علم دراية. يعرفون ما في الكتب، لكنهم لا يضمون إلى تلك الأبواب باباً جديداً، ولا يكادون يجيلون أذهانهم فيما لا تحويه تلك الكتب. وكان أبي فقيهاً، بل كان من صدور الفقهاء في الشام، وكان أمين الفتوى عند المفتي الشيخ أبي الخير عابدين، وهو بداية السلسلة الذهبية التي أدركتها من المفتين الفقهاء. وكان بعده الشيخ عطا الكسم، ثم الشيخ محمد شكري الأسطواني، ثم الطبيب الفقيه الشيخ أبي اليسر عابدين، ثم انقطعت السلسلة.

وكان مع الفقه أستاذاً في الحساب يدرِّسه لكبار الطلاب، فورثنا ذلك عنه نحن أبناءه الأربعة. فكنت أنا وناجي من المشتغلين بالفقه، وكان عبد الغني ومحمد سعيد من المهتمين بالحساب والعلوم.

أما عبد الغني فقد شهد له كبار أساتذته: جودة الهاشمي، ومسلَّم عناية، ثم رشدي بركات، لما كان طالباً، أنهم لم يروا فيمن درّسوا من الطلاب في الشام أنبغ منه في الرياضيات.

ولما أعلنوا عن بعثتين من الطلاب لدراسة الرياضيات والعلوم في باريس دخل المسابقة فكان الأول في الفرعين، واختار الرياضيات، وكان ذلك سنة ١٩٣٧ م. وقضى سنتين في السوربون، ثم قامت الحرب سنة ١٩٣٩ م فحالت بينه وبين العودة فتأخر نيله الدكتوراه سنين، وكان على كل حال أول من نالها في سورية في الرياضيات. ولما بلغ سن التقاعد قدم المملكة وهو الأن يدرس في جامعه الملك عبد العزيز بجدة، وأكثر أساتذة الرياضيات في الشام ومن جاء منهم يدرس هنا في المملكة من تلاميذه وممن تلقَّى العلم عنه. ولما اهتم الناس بما دعوه (الرياضيات الحديثة) كان أول من درسها وألَّف فيها كتاباً هو المرجع لدراستها، وضّحها وعبَّد طريقها.

ومن الناس من آتاه الله القدرة على حل المعضلات، وتوضيح

الغامضات، وعبد الغني من هؤلاء، يمشي على طريق الغزالي من المتقدمين والشيخ عبد الوهاب خلاّف والشيخ شلتوت من العصريين، يشرح أعقد القضايا فإذا هي واضحة سهلة قد انحلت عقدها وبان سبيلها.

وكانت لغته الأخرى هي الفرنسية التي تعلَّم بها في السوربون في باريس. فلما انصرف الناس إلى الإنجليزية درسها وحده حتى أتقنها إتقانه العربية التي يكاد يعدُّ من أساتذتها فهماً لها ومعرفة بها. ثم درس (وحده) الألمانية وصار يفهمها ويعرف قواعدها. وهو أشد مني عزلة وابتعاداً عن الناس.

أما محمد سعيد، فقد فارق المدرسة عقب المرحلة الابتدائية لأسباب صحية، وتركته يقرأ ما يريد، وجئته ليتعود المطالعة ويألفها (بقصة عنتر)، وهي تشتمل على أخبار الجاهلية كلها، وفرسانها وأيامها، وإن لم تكن كتاب تاريخ يرجع إليه، ويعتمد عليه. ثم جئته بفتوح الشام للواقدي. على ما في صحة نسبته للواقدي، ثم صار يقرأ في كل موضوع. فلما بلغ الطلاب الذين فارقهم (لما ترك المدرسة) الشهادة الثانوية دخلها معهم. فكان من أوائل الناجحين فيها، وتخرَّج في الجامعة من فرع الفيزياء، وكان من أفاضل مدرسيها. فهماً لها وتفهيماً لطلابها، مع اطلاع واسع على الفقه والحديث والتفسير وكذلك السيرة والتراجم، أي أن الله جمع له طرفاً من علوم الدين ومن علوم الدنيا.

وقد كلِّفت أيام الوحدة مع مصر بوضع مناهج العلوم الشرعية والعربية في مدارس الأوقاف، فنظرت فإذا كثير من المدرسين يسيئون تدريس ما وقع بين الصحابة الكرام «عائشة وعلي» و «علي ومعاوية»، فاقترحت إلغاء هذه المادة من أساسها، ووضعت بدلاً منها مادة سميتها «أعلام الإسلام»، وأخذت نحو أربعمئة اسم من أسماء الأعلام، على أن تبدل كل ثلاث سنين. واقترحت على المجلس الذي يشرف على هذه المدارس، وكنت رئيسه، أن يكلف بتدريس هذه المادة الجديدة أخي محمداً (محمد سعيد)، فقام بها خير قيام، ووضع فيها سلسلة من الكتيبات الصغيرة انتفع بها الناس.

* * *

مشيت أنا وناجي في طريق واحد، ولكن القوافل شتى... فأنا في السابقة وهو في اللاحقة. المكان واحد لكن الزمان متعدد، علَّمت في المدارس وجاء فعلَّم فيها بعدي. ودخلت سلك القضاء ثم دخله على إثري. وكنت قاضياً في (النبك) ثم في (دوما) وكان قاضيهما بعدي. وجئت المملكة وجاءها كما جئتها.

لقد فتحت عليّ يا ناجي باب الذكريات، ولو دخلته لم أخرج منه، ولبلغت هذه المقدمة مئة صفحة، كانت فيها أيام لم يبقَ منها إلا ذكريات.

ذُمَّ المنازل بعد منزلة اللِّوى والعيش بعد أولئك الأيام

وأين منا الآن تلك الأيام، وأين من كان فيها من الأهل والإخوان، والأصدقاء والخلاَّن؟

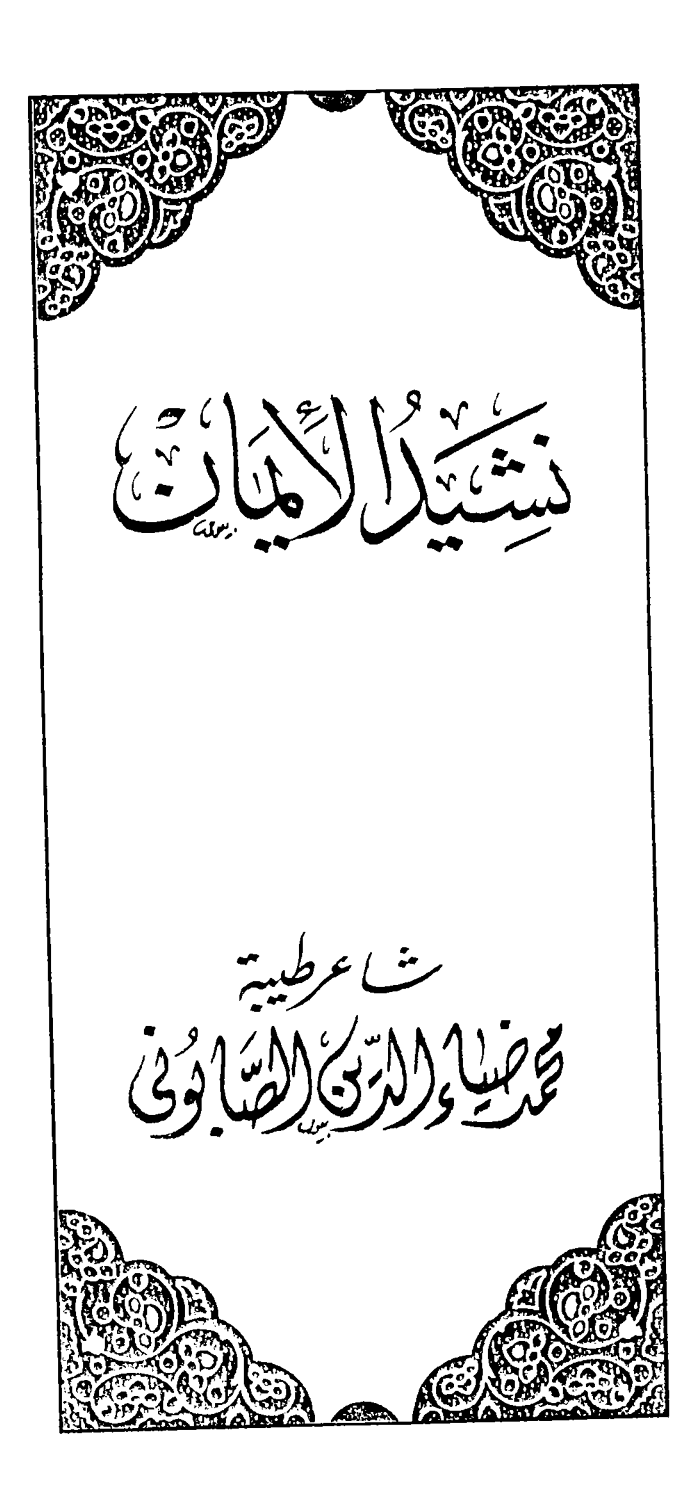
لقد مضَوا ونحن ماضون على آثارهم، فاللهم لك الحمد أن نَسَلتنا من أبوين مسلمَين صالحَين، وأن أنشأتنا في دار علم وتقى، ونسألك اللهم أن تجعل نهايتنا خيراً من بدايتنا وأن تختم لنا بالحسنى.

* * *

وبعد فلا تحسبوا أن هذه (الكلمات النافعة) هي كل ما يقدر عليه ناجي... إن البلاغة هي الوصول إلى الغاية التي يسعى الكاتب إليها، وهذه الكلمات ما كانت الغاية منها الأدب، ولا خوطب بها الأدباء، ولا أريد بها الفن، بل هي كلمات نافعة لعامة الناس، أنشئت لهم، وأريد منها مصلحتهم ونصحهم، لا كسب إعجابهم ونيل رضاهم.

غرة ربيع الأول ١٤٠٨ هـ

علي الطنطاوي


نشيد الإيمان
شاعر طيبة
محمد ضياء الدين الصابوني

كلمة للأديب الكبير
فضيلة الأستاذ الشيخ علي الطنطاوي

أنا من سنين طوال أقمتها في المملكة، أجد عريف الحفلة كلما ألقيت محاضرة، قام فقدم للناس الأستاذ ضياء الدين الصابوني، يعلق عليها بقصيدة جيدة السبك، طيبة الروح، ترضي الله لأنها تدعو إلى اتباع الإسلام وتأييد العربية والحفاظ عليها.

فكنت أعجب وأسأل نفسي: متى نظمها؟ وما أعلنت موعد المحاضرة إلا قبل قليل، وما علم بها إلا نفر من الإخوان قليل، ثم علمت أنه أحد الذين يرتجلون الشعر، وأنه يجري على لسانه كما يجري الكلام المعتاد.

ولقد كنت أسمع بمن يرتجل الشعر من الأولين كعمرو بن كلثوم شاعر تغلب، وصاحبه الحارث شاعر بكر، وأسمع عن الشيخ عبد المحسن الكاظمي، وأنه يرتجل القصائد الطوال تسمع منه، وتروى عنه، ولقد خبرني ببعض خبره أخوان صادقان، وشاعران معروفان: أحدهما قد مضى إلى رحمة الله وهو الأستاذ خير الدين الزركلي، وثانيهما باقٍ وقد أطلّ على المئة، مدَّ الله في عمره وهو الأستاذ أحمد عبيد[1].

وممن أوتي مثل هذه الموهبة ممن أعرف رفيق عمري الشاعر أنور

---

(١) توفي سنة ١٤١٥ رحمه الله تعالى (مَجْد).

العطار رحمه الله، وأخي ناجي الطنطاوي، والأستاذ على الحاج بكري، والأستاذان عز الدين التنوخي ورفيقي زكي المحاسني رحمة الله عليهما.

ولقد حفظونا في المدرسة أنَّ الشعر هو الكلام الموزون المقفَّى قصداً، وقد استقرَّ هذا التعريف في الأذهان من أكثر من سبعة عشر قرناً، وإن قال الجاحظ إنه لا يزيد عمره عن مئة وخمسين سنة قبل الإِسلام، ذلك أن الأَفْوَهَ الأَوْدي[1] كان على عهد سيدنا المسيح ابن مريم عبد الله ورسوله، أي إنه كان قبل ألفي سنة إلا قليل.

وقد حفظ الله العربية شعرها ونثرها بهذا القرآن، فنحن نفهم شعر الأفوه والمهلهل وعديٍّ بن زيد، حتى لنحسبه من سهولته علينا كأنه نُظِمَ على أيامنا، فالفرنسيون لا يكاد يفهم منهم إلا أقل من القليل أنشودة (رولان)، على أن جلّها أكاذيب، أو شعر (رونسان) (ورابليه) ولم يمض عليه أربعمئة سنة.

وهذا التعريف إن لم يصح على الشعر في مضمونه صحَّ على أسلوبه وعلى شكله. فالشعر والموسيقى كما يقول (سبنسر) وجهان للدينار أو للدرهم لا ينفصل أحدهما عن الآخر، والموسيقى شيطانه الشعر كما يقول العرب أو ربّة الشعر كما يقول اليونان، والفرنسيون عندهم لاحقة (إِيك) بمعنى ياء النسبة عند العرب. فإذا قالوا (موزيك) كأنهم قالوا (شعري).

فالموسيقى إن صح هذا ـ وهذا اجتهاد من عندي ـ يكون مبناها على الشعر.

---

(١) هو صلاءة بن عمرو، شاعر يماني جاهلي، لقب بالأفوه لأنه كان غليظ الشفتين وهو أحد الحكماء والشعراء في عصره. أشهر شعره أبياته التي منها:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهّالهم سادوا

(مَجْد)

فالذين يفصلون الموسيقى عن الشعر، يهدمون أساسه الذي قام عليه، وركنه الذي ركن إليه.

وكذلك القافية أنا عندما أسمع قصيدة يتبدَّل وزنها فجأة أو تتبدل قافيتها، أشعر كأنها أغنية نَشَزَتْ. فَنَقَلَها النشازُ من مقام إلى مقام ليس بينهما توافق ولا انسجام.

وأصدق تعريف للشعر هو: (التعبير الجميل عن الشعور النبيل).

أما جماله فبموسيقاه، وما فيها من ائتلاف (آرموني)، وأما نبل الشعور فأكثر ما يتجلى عندهم في المرأة وفي الطبيعة وفي ذكريات النفس، وآمالها.

ولكن أسمى من ذلك كله الذي يغني للحق، وللجمال المطلق، وللخير الذي لا يخالطه شر وهذا ما يسمَّى بالإِسلام، وذلك ما فعلتَ، فقد جئتني في حالة من ضيق النفس وانشغال البال، وتوزع القلب بين شتى المطالب قلَّما أُصِبْتُ ـ وقد جاوزت الثمانين ـ بأشدّ منها.

وأحمدُ اللّهَ على أن جنَّبَك داءَ (الحداثة)، وأراكَ الطريق وسيَّرَك على البيضاء النقية، وأبعدَك عن هذا الدَّنَس الذي ظاهره التّجديد وحقيقته محاربة دين التوحيد، لأنَّ على الشعر مدار تفسير كثير من آيات الكتاب الذي أنزله بلسان عربي بيّن. فكل ما يضعف العربية يضعفُ ـ لولا أن الله تعهد بحفظه ـ الإِسلام.

وما لك وللطريق المظلم، وأنت (الضياء)، وكيف يمسّ شِعرُك الدنس وأنت (الصابوني).

مكة المكرمة: نصف شعبان ١٤٠٨هـ

علي الطنطاوي

موسوعة الطب النبوي
بين الإعجاز والعلم الحديث
(٤)

قبسات من الطب النبوي

والأدلة العلمية الحديثة

تأليف
الدكتور حسان شمسي باشا

قدم له
الشيخ علي الطنطاوي

مكتبة السوادي للتوزيع
جدة - هاتف: ٦٨٨٤٢١٢

تقديم

ليست هذه مقدمة للكتاب، ولكنها كلمة شكر لله أقدمها بين يدي الكتاب. أشكر الله الذي كان من نعمه على عباده أنه لم يجعل في هذه الدنيا أمراً هو خيرٌ محض، ولا أمراً هو شرٌّ محض. وأنه جعل في كل سيئة تسؤونا حسنة مطوية فيها لو نحن بحثنا ودققنا لوجدناها.

وذلك كله من الله، يختبرنا بالمسرات كما يختبرنا بالآلام.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ (الفجر: ١٥ ـ ١٦).

فمن ذكر هذا وكان مؤمناً كان شكره النعم خيراً له، وكان صبره على النقم خيراً له، وكان أجراً يدّخر له إلى يوم القيامة الذي يحتاج فيه إليه، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

ومن نعم الله عليَّ أنا أن خلقني متين البنيان، سليم الأعضاء، صحيح الجسد، أورثني ذلك من جدي الذي كان بفضل الله معدوداً في الأقوياء، عاش أكثر مما عشت أنا إلى اليوم وما كاد يحتاج يوماً إلى طبيب.

ومن أمي التي ـ عاشت رحمها الله ورحم أهلي جميعاً ـ لم تمرض يوماً. ما أورثني ضعف جسد أبي وعلله، وأنه كان مصاباً بالربو، حتى مات رحمه الله في السادسة والأربعين. وكان مع ذلك من علماء دمشق المعدودين.

شكوت طول عمري من شيء واحد عرَّفني بالأطباء، وأسكنني حيناً المستشفيات، في دمشق وفي بيروت مراراً، وفي قصرالعيني في مصر، وفي مستشفى جامعة بون في ألمانيا، وفي مستشفى القدس، وآخر في كلكته في الهند، وأضجعني بين أيدي أهل السكاكين من علماء الجراحين، يشقون جلدي، ويقطّعون في أحشائي، حتى وفق الله بعض الأساتذة الكبار من أطباء المسالك البولية فبتروا ما لا أمل في إصلاحه، وكل عضو في الجسم أو في الأمة لا يؤمل له صلاح فدواؤه أو دواء الجسم منه البتر. ومن هؤلاء الأطباء الدكتور منير شوري الأستاذ في كلية الطب في دمشق، وزميله الطبيب الأستاذ مظهر المهايني، وانتهيت هنا إلى الطبيب العبقري الدكتور عبد الرؤوف الجاروشي.

* * *

ما كنت أشكو شيئاً غير هذا، وكنت إلى ما قبل عشر سنوات أشتغل بالرياضة، رياضة السير الطويل أربعين كيلاً (كيلومتراً) في اليوم، والحركات السويدية والدانمركية، والأثقال والملاكمة وكدت أتقنها، والمصارعة الرومانية، وكنت أمارس ذلك كله إلى ما قبل عشر سنين، أي إلى ما بعد بلوغي السبعين (وأنا الآن على أبواب الخامسة والثمانين)، ولو استمررت عليه لبقيت قادراً على ممارسته بإذن الله، ولكني انقطعت. وكنت في أيام شبابي أذهب كل سنة إلى طبيب لا يعرفني أسأله أن يكشف عليَّ كشفاً كاملاً، على السرير وبالأشعة، وبأنواع التحاليل، فإذا انتهى قال لي متعجباً: ما بك شيء فلِمَ جئت إليَّ؟ فأقول: جئت لأسمع منك هذه الكلمة.

كان (ولله الحمد وأسأله الزيادة) كل عضو فيَّ سليماً، إلا ما كان عرض للجهاز البولي، لاسيَّما القلب، فالقلب للمؤمن، والقلب للشاعر، إن سقم لم يبق له شيء.

القلب الذي فيه الإيمان، وفيه الحب والحنان، ليس هذا القلب الذي هو مضخة للدم لا نكاد نعرف له في الظاهر عملاً غيره.

* * *

هذا القلب الذي ظل يخفق بين جوانحي وكان بحمد الله قوياً جلداً، يحمل عبء السنين التي طالت، لا يشكو ولا يتذمر، ولا تتعثر خطاه، يبدو أنه أدركه، لما أدركتني الشيخوخة، من الكلال والوهن ما أدرك جسدي كله، فَعَلا صوته بالشكوى.

صارت تمر بي لحظات أشعر فيها بما يشعر به الغريق الذي يطلب نفحة هواء فلا يجدها، أحس ضيقاً في نَفَسي وما بي زكام، ولا انسداد في أنفي، ولكنه شيء من الداخل علمت بعد. لما أعلمني الأطباء. أنه شريان يضيق فلا يوصل إلى القلب ما يحتاجه من دم.

وجدت ذلك أول مرة من نحو سنة، فأخذني حفيدي الطبيب مؤمن ديرانية إلى مستشفاه الذي يعمل فيه، مستشفى الملك فهد المدني في جدة، فوجدت طبيباً مصرياً استشارياً في أمراض القلب هو الدكتور محمد أنور. فأسعفني الله به، وبالدواء الذي سيَّرني عليه كما يسيّر من كان شيخاً مثلي على عكازه، فإن فقدها تعثر وعجز.

وعاودتني من قريب نوبة أشد من الأولى، فأخذني صهري وولدي زوج ابنتي الأستاذ محمد نادر حتاحت إلى مستشفى الملك فهد ولكن العسكري هذه المرة.

دخلت إليه وما أنا من الجند بأمر من سمو الأمير الصديق الأمير ماجد شكر الله له، فعرفت فيه طبيباً سوري الأصل، وإن أمضى في بريطانيا شطراً من عمره كبيراً. . . أخذ الكثير الكثير من علوم القوم، وما ترك لهم والحمد لله قليلاً ولا كثيراً من دينه، ولا من سلائق أمته، ولا

من أخلاق أسرته، فإن كنا نرى المرض شراً فإن الخير فيه هو معرفتي بهذين الطبيبين، أذكرهما وأشكرهما، ومن لم يشكر المحسن من الناس لم يشكر الله.

واتصل حبل الود بيني وبين الطبيب الثاني. فكنت كلما ازددت معرفة به ازددت به إعجاباً... وتكشفت لي جوانب جديدة من خبرته وعلمه، وفضله ونبله، ذلك هو الدكتور حسان شمسي باشا مؤلف هذا الكتاب، وله من قبله مؤلفات منها كتابه عن العسل، وكتابه عن الحبة السوداء، وقد قدَّم لهما الطبيب العالم الصالح الذي طالما أثنيت عليه بالحق الدكتور محمد علي البار.

وله كتب في أمراض القلب سمعت أن جامعة مانشستر قد طبعتها له إقراراً بفضل مؤلفها وليستفيد الأطباء منها.

وهذا كتاب له جديد، دفعه إليَّ ملازم مطبوعة ـ لم يبق إلا أن يؤلف بينها، ويضم بعضها إلى بعض، ويوضع لها العنوان وتلف بالغلاف حتى تكون كتاباً جديداً يضم إلى الخزانة العلمية.

ولقد كتبت المقدمات لأكثر من خمسين كتاباً، في أكثر من خمسين سنة، منها ما هو لمؤلف مبتدىء أعرِّف به الناس وأدلهم على فضله، ومن المؤلفين الذين لا يعرفهم الناس من هو كالمصباح القوي في الغرفة المغلقة الباب، المسدودة النوافذ، لا يحتاج إلا إلى فتح الأبواب والنوافذ، فيخرج نوره فيكون هو الذي يعرف به، وهو الذي يدل عليه.

ومنها ما هو لأساتذة كبار ما هم بحاجة إلى مقالة مني أقدم بها كتبهم، ولكنهم أرادوا تكريمي بضم اسمي إلى أسمائهم، كالأستاذ الداعية الكبير العالم العامل الشيخ أبي الحسن الندوي، والأستاذ الداعية العالم الشيخ محمد محمود الصواف، والأستاذ المربي المجاهد بلسانه

وقلمه محمود مهدي الأستامبولي، وآخرين كنت أتمنى لو تحضرني الآن أسماؤهم.

وبعد يا أخي المؤلف الدكتور حسان.

حسبك مني اليوم هذا الإيجاز، وسأقول ما سكت عنه هنا في مقدمة كتابك الذي وصلت مسودته إليّ، كتابك عن زيت الزيتون، الذي ستنشره إن شاء الله دار المنارة، والسلام عليك وعلى قراء كتبك، وسامحني إن لم تأت هذه المقدمة كما أريد وتريد، فإنك تعلم أني كتبتها وأنا على فراش المرض.

كتب في جدة بتاريخ ١٤/٤/١٤١١ هـ

الموافق لـ ١/١١/١٩٩٠ م.

علي الطنطاوي

زَيْتُ الزَّيْتُونِ

بَيْنَ الطِّبِّ وَالقرآن

تأليف الدكتور حسان شمسي باشا

قدم له

فضيلة الشيخ علي الطنطاوي

دار المنارة

جدة - السعودية

المقدمة

بقلم فضيلة الشيخ علي الطنطاوي

وعيت على الدنيا قبل الحرب الأولى، وكنت لما أُعلنت (سنة ١٩١٤) في أوائل أيامي في المدرسة، وكنت بكر أبويّ فلم يكن لي أخ آنس به وأشاركه عبث الطفولة ولهوها، بل لم يكن على أيامنا شيء من هذا اللهو. فلم يكن في الدنيا إذاعة ولا عرفها الناس، ولم يكن هذا الرائي (التلفزيون)، وكانت المجلات المصورة نادرة أو معدومة، فكانت تسليتي القراءة.

فكنت آخذ من مكتبتنا الكتاب بعد الكتاب أنظر فيه، فما فهمته قرأته، وما لم أفهمه تركته، أتبع في ذلك المصادفات، لا يرشدني مرشد ولا يدلني أستاذ، لأن أبي (وقد كان من صدور العلماء في دمشق) مشغول عني لا يفرغ لي.

وكان من أوائل الكتب التي نظرت فيها، ولا أقول أنني قرأتها: كتاب (تذكرة داود). فكنت أجد متعة في معرفة خواص الأطعمة التي آكلها، والأشربة التي أشربها، وأحسّ كأني كنت مع إنسان أعرفه بشخصه، ألقاه كل يوم لكن لا أعرف اسمه ولا من هو، فيأتي من يكشف لي دخيلته، ويبدي لي ما خفي عني من شأنه. ثم ظهر كتاب في مصر اسمه (إحياء التذكرة)، اعتمد مؤلفه على العلم الحديث؛ فصحح أخطاء في التذكرة كان يظنها الأولون حقائق. ثم توالت المؤلفات في هذا الموضوع، ومنها كتاب (الغذاء لا الدواء) لرفيقي في

المدرسة وصديقي في حياتي الدكتور صبري القباني.

ولكن مؤلفات الدكتور حسان شمسي باشا تمتاز عنها جميعها بميزتين: اعتمادها على آيات أو أحاديث جاءت صريحة في الموضوع الذي يتكلم فيه أو أشارت إليه، وعلى أحدث ما وصل إليه العلم.

وليس بين الوحي الثابت والعلم المحقق اختلاف، لأن الوحي أنزله الله، والعلم إنما هو اطلاع على سنن الكون التي سنها الله. ولا يمكن أن تجد أمراً أقره القرآن، يناقض ما ثبت في العلم أو تؤكده المشاهدة أو يثبته الدليل العلمي القطعي.

وإن وُجِدَ مثل هذا الاختلاف فمنشؤه ضعف العلم، أو سوء الفهم. فإن صح علمنا بالقانون الطبيعي الذي طبع الله الأشياء عليه، وفهمنا للدليل الشرعي الذي ثبت أنه من عند الله، لم نجد اختلافاً. أما أنه يعتمد على أحدث ما وصل إليه العلم، فليست الحداثة والقدم من موجبات القبول أو الرد، وإنما هي الصحة أو البطلان. ثم إنهما أمران نسبيان:

إن ذاك القديم كان جديداً وسيغدو هذا الجديد قديماً

وليس كل جديد خيراً من كل قديم، ولا كل قديم أفضل من كل جديد، إلا في العلم. فإنه لا يمر يوم على العلم إلا صحح فيه خطأ، أو أكمل فيه نقصاً، أو ازداد فيه معرفة.

فإن كانت الأمم كالأفراد، تغتني وتفتقر، وتقوى وتضعف، وتتقدم وتتأخر، فإن العلم يتقدم دائماً، كحجر الشطرنج لا يرجع إلى الوراء أبداً، لذلك كان الجديد فيه أصح من القديم.

لما جاء عصر النهضة، وأولى أن نسميه عصر البعث، لأن المعنى الحرفي لكلمة renaissance هو الولادة من جديد، وقد استعملتُ الكلمة

قبل وجود حزب البعث، وأخرجت مجلة اسمها البعث سنة ١٩٣٠ صدر منها خمسة أعداد.

لما كان عصر البعث (أو النهضة) تبين أن في علوم اليونان التي كانت الأساس العلمي للناس، أموراً تحتاج إلى تصحيح، فقد كانوا يظنون أن الهواء والماء والتراب والنار (مثلاً) هي الأجسام (البسيطة). وبنوا على ذلك تقسيمهم الأشياء إلى حارة وباردة، ورطبة ويابسة، ثم قسّموا الطبائع البشرية تبعاً لذلك إلى أمزجة، وتصوروا علماً للتشريح والفسيولوجيا يعرف الآن طالب الثانوية أنه غير صحيح، وأخذ ذلك الناس عنهم كالذي تجدونه عند ابن قيم الجوزية وغيره.

* * *

بدّل عصر النهضة كثيراً من الأمور التي كانت تعد من الحقائق. فبيّن أنها خطأ أو أنها حقيقة ولكنها ليست الحقيقة الأخيرة. ثم جاء إنشتاين بنظرية النسبية، فكان تطور جديد في نظرنا إلى الحقائق العلمية، ثم جاءت (الفيزياء الكميّة) فكان بعض التطور.

فأين مكان القرآن من هذه التطورات؟

ما أنزل الله القرآن ليكون كتاباً مدرسياً، يشرح قوانين الله في الوجود، ولا كان هذا موضوعه، وما أُنزِل لهذا، إنما كان الموضوع الأصلي في القرآن الذي أُنزِلِ من أجله هو الإيمان بالله واليوم الآخر، وما جاء فيه من الإشارات العلمية إلى سنن الله في هذا الوجود، أي ما نسميه بالقوانين الطبيعية، إنما جاء ليثبت هذا الإيمان، وكذلك ما جاء فيه من أخبار الأمم السابقة.

وفي هذه الإشارات ما يقوم حجة دامغة على من لا يؤمن برسالة محمد ﷺ. من ذلك إخباره عن مراحل تشكل الجنين بتفصيل.

إن لم يكن هذا من عند الله، فمن أين جاء به محمد؟ مِمَن تعلمه ولم يكن على ظهر الأرض في عهده، ولا كان بعده بألف سنة من عرفه على حقيقته التي جاءت في القرآن، فمن أين جاء به إن لم يكن من عند الله؟

إن الذي يقوله (المعلم الأول) أرسطو، الأستاذ الأكبر للعلوم، شيء يضحك منه التلاميذ، فخبِّروني كيف وصل محمد إلى الحقيقة التي لم يعرفها إلى عهده أحد فضلاً عن أن يشاهدها؟؟

* * *

لكن السؤال الوارد: هل هذه الإشارات كلها بوحي من الله أم هي آراء للرسول ﷺ بصفته البشرية؟

يذكر أهل السن من القراء المعركة التي نشبت في مصر حول حديث الذباب إذا سقط في الإناء، وأمر الرسول بأن يغمس قبل أن يرمى لأنه في أحد جناحيه داء وفي الآخر الدواء.

وكان ميدان هذه المعركة (المنار) عند السيد رشيد رضا، ثم امتدت إلى ميادين أخرى، واشتجرت فيها الأقلام، وتعارضت الآراء. فمن قائل بأن العلم استطاع الآن التحقق من صحة هذه الآراء أو بطلانها، ومن قائل أن الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، كل ما يقوله وحي يُوحى علّمه شديد القوى أي جبريل، وما تلقاه الرسول عن جبريل ولقنه أصحابه لا يكون إلا حقاً.

وكتبت يومئذ أقول ما خلاصته:

إن الرسول ﷺ بشر مثلنا يوحى إليه، فما جاءه عن طريق الوحي فهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه (أي من أمامه) ولا من خلفه، وما قاله بصفته البشرية، فهو مثل كلام البشر.

وقد صرّح الرسول ﷺ بهذه الحقيقة في حادثة (تأبير النخل)،

وبيّن لهم أن ما قاله مبيناً شرع الله، وما دلنا عليه مما يرضي الله ويكافىء عليه، وما لا يرضي الله ويعاقب من أتاه، وما خبّر عنه من المغيبات مما كان قبل الولادة، كمراحل خلق الإنسان في بطن أمه، وما يكون بعد الموت، من سؤال الملكين إلى انتهائه إلى الجنة أو النار، ونعوذ بالله منها، أي أن ما يتصل بالدين لا يكون إلا حقاً. فالقرآن والحديث كلاهما وحي من الله، وهما سواء في الاستنباط منهما، والاحتجاج بهما. ولكن هذا في الصحابي الذي سمع بإذنه من فم رسول الله. أما بالنسبة إلينا فإن القرآن يأتي أولاً ثم الحديث، لا لأن القرآن يختلف في ذاته عن الحديث، بل لأن القرآن نقل إلينا نقلاً متواتراً بحيث أنه لو تبدّل فيه حرف لتنبّه الآلاف من الناس إلى هذا التبديل، ولرفضوه وأبوه، لأن الله هو الذي تعهد بحفظ القرآن، وما حفظه الله لا يضيعه أحد.

أما الحديث فقد نقل أكثره واحد عن واحد، وقد بذل المحدثون في تصحيح روايته، ما لا يصل الجهد البشري إلى أكثر منه، ولكنا لا نجزم مع ذلك بأنه نقل إلينا كما نقل القرآن، ولا نكفّر من ينكر شيئاً منه كما نكفّر من ينكر شيئاً من القرآن.

وهذا التفريق ما جئت به من عند نفسي، ولا هو بدعة أبتدعها، بل هو ما نصّ عليه الحديث الصحيح، وقد صار ذلك عند الصحابة بمنزلة البديهية المسلّمة. ولما صفّ الرسول ﷺ المسلمين يوم بدر سئل: أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر أم هو الرأي؟ فلما أخبرهم أنه رأي رآه (أي بصفته البشرية) وليس بوحي من الله، أُبدي له رأي غيره وأخذ به. ولما كانت المفاوضة مع غطفان خلال معركة الأحزاب، على أن يعطيهم من تمر المدينة، قالوا له مثل مقالتهم يوم بدر، أي أنهم كانوا يفرقون بين ما يقوله الرسول على أنه وحي يبلغه عن الله، وبين ما يقول على أنه رأي رآه.

وهنا يحضر السؤال عما يُدعى (الطب النبوي)، هل هو وحي من الله أم من قبيل الرأي؟ الجواب واضح، وقد بيّنه الرسول ﷺ نفسه. ولو كان من الدين، لكان غمس الذباب الذي سقط في الإناء واجباً لقوله: (فليغمسه) ولم يقل أحد بذلك، لأنهم عرفوا أن الرسول ﷺ يقوله بصفته البشرية.

* * *

العلم لا يزال يسعى إلى الكمال، ولا يزال عرضة للزيادة وللتصحيح. أما الشريعة فهي كاملة مكملة، ليس لنا ولا لأحد أن يزيد شيئاً على أصولها، وعلى نصوصها، ولا تحتاج إلى زيادة. وقد كانت الشرائع السابقة لأمة واحدة من الأمم، ولوقت من الأوقات، وشريعة الإسلام للناس كلهم، في الزمان كله. فبماذا تختلف عن غيرها من الشرائع؟

بأمرين: أحدهما في أحكامها، والآخر في حال الزمان الذي جاءت فيه. فأحكام الشرائع السابقة جاءت مفصّلة، أي أنها أحكام فرعية للحوادث الفرعية، وشريعتنا فيها مبادىء عامة وفيها تطبيقات لهذه المبادىء.

فالمبادىء لا تحتمل التبديل بل تبقى صالحة لكل زمان، والتطبيقات متروكة لنا، نقرر لكل عصر ما يناسبه.

مثال ذلك: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾. فإن العدل مبدأ يبقى دائماً هو المقصود، ولا يتصور أن يأتي على الناس زمان يكون العدل فيه شراً والظلم خيراً، والعدل مرفوضاً والظلم مفروضاً. أما الطريق الموصل إليه، من نصب القضاة، وترتيب المحاكم، وتنظيم المرافعات فمتروك لنا نتخذ في كل عصر ما يناسبه.

والمبدأ الذي لا بد منه في الحكم، أن يكون شورياً لا استبدادياً، وأن يتقيد بقيود الشرع لا يخرج عنها ولا يخالفها، وأن يبتعد عن الظلم، وأمثال ذلك مما هو مطلوب دائماً.

أما شكل الحكومة هل هو ملكي أو جمهوري، وما يشبه هذا فهو متروك لنا.

وقد وضع في (علم الصحة) قواعد عامة، لا تختص بزمان بعينه ولا بمكان، فيها أن من الواجب اتخاد أسباب البقاء من التغذية الصحيحة التي تقيم الصلب، وتحفظ الصحة، وأن كل ما يضر الجسد، بل كل ما يضر مهما كان الضرر، يكون حراماً أو مكروهاً، وأنه أباح لنا الطيبات وحرم الخبائث؛ وأنه أمرنا بالتداوي واتخاذ الأسباب، وعلّمنا أن اتخاذها لا ينافي التوكل على الله.

وبذلك كانت شريعة الإسلام هي الشريعة الباقية التي لا تحتاج يوماً إلى أخرى تعدلها أو تبدلها.

أما زمان الرسالة المحمدية وما بعده، فيختلف عن الأزمان السابقة، بأنها كانت أيام عزلة، كل أمة تعيش في جانب من الأرض لا تدري ما حال جاراتها، لا تعرف التي في جزيرة العرب شيئاً عن التي في الصين، ولا التي في الصين عن التي في أمريكا، بل لم يكن يعرف أحد أن في الدنيا قارة ستكتشف وستسمى أمريكا. لذلك احتاجت كل أمة إلى بشير ونذير ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾. فصار العالم كله الآن كالبلد الواحد، يلقي رئيس أمريكا خطبة يسمعها من هو في أقصى الأرض قبل أن يسمعها من هو في الصف الأول جالساً أمامه، وهذه حقيقة، لأن الجالس معه يسمعها عن طريق الهواء، والبعيد يسمعها بالموجات الكهرطيسية (أي الكهربائية المغنطيسية).

* * *

مثلنا مع تقدم العلم وهذا القرآن كمثل مسافر بسيارته في السهل الأفيح، يرى القمر أمامه فوق الجبل، وكلما أسرع السير ليدنو منه رآه لا يزال في مكانه. فكلما ازددنا علماً بهذا الكون العجيب الذي خلقه الله، نزداد فهماً للقرآن.

قرأ أجدادنا قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ففسروها بما يعرفون. وازددنا نحن معرفة ففسرناها بما لم يخطر لهم على بال، عرفنا أن الزوجين ليسا المختلفين في الذكورة والأنوثة فقط، بل إن الأجزاء الدقيقة التي تتألف منها الذرة والتي ما رآها أحد بعينه وإنما وصل إلى علمها بعقله، منها ما هو ذو شحنة كهربائية سالبة وما شحنته موجبة. وأن العالم يتألف من أجزاء منفصلة تتحرك أبداً، وأن الله يمسكها بَعَمَدٍ لا نراها هي الجاذبية، إحدى الأسرار الكبرى التي أودعها الله في هذا الوجود. عرفنا آثارها ولكن ما عرفنا ما هي. إن ماهيتها مجهولة، لا نعرفها ولكن يعرفها من خلقها. إن علومنا محدودة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من عرف ما هي الجاذبية؟ من عرف ما هي الكهرباء؟ عرفنا أنها إن قطعت الأسلاك انقطع التيار، ولكن هل الأسلاك هي الكهرباء؟ كما عرفنا أنها إن تخربت بعض خلايا المخ اختل التفكير، ولكن ما هو الفكر؟ ما صلته بخلايا المخ؟ لقد قال في القرن الماضي هيكل أوسترنر: (إن الدماغ يفرز الفكر، كما يفرز الكبد الصفراء)، يريد أن يجعل كل شيء مادياً، ولكن هذا المذهب المادي باد أو كاد، قضى عليه هنري بركسون وأمثاله، وعاد فعاش مدة مع اشتراكية كارل ماركس، ثم ذهب وذهبت معه، قضى عليها أهلوها، ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾. اعتبروا، وما أكثر العبر وأقل من اعتبر.

وبعد، فقد قلت هذا كله، ولم أتكلم عن الكتاب الذي أقدم له، ولم أقل لماذا أقسم الله بالزيتون؟ وما حكم القسم بالمخلوق، وما هو الزيتون الذي أقسم به؟

لقد قال بعض العلماء بأنه الثمر الذي نأكله، وقد ذكره الله في الآية الأخرى (في سورة النور)، وقال عن زيته بأنه ﴿يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، وسمى شجرة الزيتون بالشجرة المباركة، ولكن يرد عليه

بأن الكلام البليغ هو الذي يأتي مؤتلف الأجزاء، متماسك الأطراف، فكيف إن كان كلام رب العالمين؟ وكيف يأتلف ذكر الزيتون، الثمرة التي تؤكل، مع طور سينين ومكة البلد الأمين؟ وتذهب الفكرة الأصلية في هذا السياق، وبيانها أن الله عز وجل ليقيم الحجة على الكفار الذين لا ينكرون نبوة موسى وينكرون نبوة محمد ﷺ وعلى موسى، فكأنه يقول لهم: إن الطور مكان ومكة مكان، وما يصدق على أحد المكانين يصدق على الآخر إذ لا فرق بينهما، فلماذا تصدقون بنزول الوحي وبعث الرسول في الواحد وتكذبونه في الآخر؟

وتقدير الكلام أنه مكان التين والزيتون، أي بلاد الشام، كما عرفها الأولون، وهي كل ما كان شمالي تبوك، وجنوبي جبال طوروس. كله شام. وفي هذه البقعة كان مبعث أكثر الأنبياء قبل محمد ﷺ وهي تتوسط العالم القديم.

لقد حُرّم علينا أن نحلف بغير الله متعمدين لأن الحلف يقتضي غاية التعظيم والتقديس. ولكن الله الذي لا يُسأل عما يفعل، قد أقسم بالشمس وبالقمر، وبالسماء وبالأرض، لأن قسم الله لا يقتضي تعظيماً للمقسم به، بل التنبيه على مزية فيه، فقد أقسم بالضحى والليل عند حزنه ﷺ لانقطاع الوحي، تنبيهاً إلى أن كل شيء له ميعاد، وأنه لا يأتي شيء قبل ميعاده، كالليل لا يأتي عند الضحى، ولكن عند المساء، وأقسم بالعصر، تنبيهاً إلى قيمة الوقت وأن خسارة العمر هي الخسارة التي لا تعوّض إن عوّض المال.

فإن جاء الحلف بغير الله عفواً بلا تعمد، وكان يجري على اللسان كما يجري اللغو من القول، لم يؤاخذنا به الله، بنص القرآن، ومنه هنا ما روي من أن الرسول ﷺ قال: «أفلح وأبيه إن صدق» والمسألة مبسوطة في (فتح الباري)[1].

* * *

---

(١) انظر: «فتح الباري» ١:١٠٧ ـ ١٠٨، ١١:٥٣٣ ـ ٥٣٤، وشرح مسلم للنووي ١:١٦٨ (م).

ولو أني سرت في المقدمة إلى آخر الشوط، لجاء منها كتاب كالكتاب الذي أقدم له، وإن لم يكن مثله في موضوعه، وإن لم أوفق فيه مثل توفيق المؤلف فيه، وفي كتبه الأخرى، ومثل توفيق الدكتور محمد علي البار الذي كتب في مثل هذه الموضوعات فأفاد وأجاد، وإني أسأل الله دوام التوفيق لهما، وأن يكثر من أمثالهما، وأن ينفع القراء بهما وبما يكتبان ويكتب أمثالهما.

جدة في ١٠/٦/١٤١١ هـ

٢٧/١٢/١٩٩٠ م

علي الطنطاوي





تأليف

محمد بن أحمد سيد أحمد
المدرس بدار الحديث الخيرية

عبده بن أحمد العلوي
المستشار الثقافي برابطة العالم الإسلامي

تقديم
جماعة من العلماء

المكتب الإسلامي

تقديم(1)

أحسُّ الآن وأنا أكتب هذا الفصل كأني في جدة سنة ١٣٥٥هـ. ولكن لا البلد هو البلد ولا أهله هم أهل جدة الآن، كانت كالنائم في فراش الشتاء البارد، ينضم بعضه إلى بعض حتى ليسعه الفراش الضيِّق، ويغطيه اللحاف الصغير. كانت نائمة وسط السور، وكانت تغلق أبوابها كل عشية، حتى أننا لما أردنا أن نخرج منها إلى مكة بعد صلاة العشاء لم يفتحوا لنا الباب حتى رأوا أوراقنا، وأوراق سياراتنا.

كانت جدة قرية أو كالقرية، تمشي فيها الآن ثلاثين كيلاً فلا تخرج منها، وكنت تقطعها من طرفها إلى طرفها في ربع ساعة، لأن طولها لم يكن يزيد على كيل واحد، وعرضها أقل من طولها، ما كان فيها شارع تمشي فيه السيارات، وما كان فيها سيارات تمشي في الشوارع، جدة التي تحسب وأنت تجول فيها من كثرة الأشجار كأنك في غوطة دمشق قبل أن تأكلها الشوارع، وتدفنها العمارات الحديثة، ما كان فيها يومئذٍ إلا شجرة واحدة أمام دار الشيخ، وقد خبرني أن (قابل أفندي)، الذي سمي باسمه شارع قابل، غرسها له. وكانتا شجرتين ولكن الآجال التي كتبها الله للناس وللأشياء، ذهبت بإحداهما وبقيت الأخرى، وكانت علامة على دار الشيخ، وإن كانت داره يستدل بها ولا يُدلّ عليها، كانت

---

(1) نشرت هذه الكلمة في كتاب (محمد ناصيف) وأدرجت ضمن الكلمات التي كتبها أصدقاء الشيخ محمد ناصيف وعارفوه، فاستحسنت ذكرها مع هذه المقدمات لوثيق ارتباطها بما كتبه الشيخ من المقدمات (مجد).

أكبر دار في جدة، وكان هو أوجه وجهائها، وكان عين أعيانها.

وصلنا إليها بعدما وصلت أرواحنا إلى التراقي، في رحلة بالسيارات من دمشق إلى مكة امتدت ثمانية وخمسين يوماً، اعتسفنا فيها الصحراء، واجهنا فيها الموت، عرفنا فيها الضياع، ما كنا نمشي على طريق معبد، ولا على جادة واضحة، فما كان فيها طريق، ما فيها إلا الرمال، والآكام، والجبال، وكانت رحلتنا لكشف طريق للسيارات، فالطريق الذي يسلكه الناس اليوم آمنين، كنا نحن الذين كشفناه.

وكانت رحلة ليس لها مثيل في الرحلات، مرَّ عليها يوم كتابة هذا الفصل، سبع وخمسون سنة، ولا أزال أذكرها وأتحدث عنها، وسلكت بعدها هذا الطريق عشرات من المرات، ما أجد ما أتحدث به عنها، لأننا كنا ندخل فيها الطيارة في الشام فأستلقي فيها في المقعد المريح حتى أصل إلى جدة، أطيب الطعام يوضع أمامي وألذّ الشراب، أطلب كل ما يطلب مثله في الطيارة فيكون بين يديّ، ولكني لم أجد لهذه الرحلات كلها عُشر ما وجدته في تلك الرحلة، ربحت الراحة ولكن خسرت المشاعر والذكريات.

كانت رحلة مغامرة وإقدام على مجهول، وتخبط في البوادي على غير هدى، كان معنا أدلاء ولكنهم أدلاء لقوافل الإبل لا للسيارات، يصل بنا الدليل إلى صخرات معترضات كأنهن درج من الحجر، فيقول: من هنا! فنقول: إن السيارات لا تصعد السلالم والأدراج، فيقول: هذا هو الطريق، فنقول: إنه طريق الإبل، إن الجمل يرفع رجله فيصعد الدرجات ولكن السيارات ما لها أرجل ترفعها.

ونرجع بعد أن مشينا ست ساعات، فنمشي ستاً أخرى حتى نجد مكاناً يمكن أن تمشي فيه السيارات.

وطالما اعترضتنا بحرة من الرمل الناعم الذي يحركه النسيم، لا يحمل السيارات، فتغوص فيه دواليبها، فننزل لنجرّها بالحبال، فنخرجها

مما علقت فيه، وما أكثر ما كنّا نمرُّ به من هذه البحرات[1]، ولقد رأينا الموت قرب (العلا) عند (مدائن صالح) من بحر كان فيها من الرمل، وكان عند (الشميسي) قرب (الحديبية) تلال من الرمل يمرّ بها الراكب الآن بالسيارة فلا يكاد يلتفت إليها، كنا نبقى فيها ساعات حتى نقطعها.

كنا نمضي على الطريق من جدة إلى مكة إحدى عشرة ساعة، ولا تعجبوا من هذا الكلام، فإني أحدثكم عمّا رأيته قبل نحو ستين سنة.

وكنا في أول الطريق ننصب الخيام، ونعد الطعام، ثم ضاق الوقت، وكَلَّ العزم عن هذا، فصرنا إذا جاء الليل سقطنا من الإعياء كالموتى، ومددنا ما معنا من البسط ونمنا في مكاننا، ولقد بتنا ليلة بين الحرمين في أرض كلها عقارب فلم أستطع المنام، وكيف لي أن أنام بين العقارب، ثم غلبني التعب، فاستعذت بالله، ودعوته ونمت، وشعرت قبل أن أغفى بشيء يمس قدمي، فوثبت وأشعلت عود كبريت، وكان هذا كل ما معي، فلم أجد شيئاً فعدت إلى المنام.

وكنا مرة نهم بالنوم، وكان معنا دليل شيطان من شياطين الإنس أو عفريت من عفاريت الجن، اسمه (ولا أزال أذكره) محمد الأعرج، فرأيت نوراً كأنه نور سيارة صغيرة، ورأيته وبندقيته في يده، فقلت: ما هذا؟ وكان قليل الكلام فقال: نمر[2]، وأطلق طلقة من بندقيته فاختفى النور واستلقى لينام، وبقيت لوحدي في الظلام أخاف أن أخبر أصحابي فأخوفهم، وأخاف النمر، إنه نمر لا ثعلب! فبقيت ساهراً أرعى النجوم، كلما سمعت حركة أو صوتاً قمت أنظر حتى طلع النهار.

---

(١) البحرة في اللغة مجمع الخيام ولعل منه اسم (بحرة) بين مكة وجدة.

(٢) ولست أعلم هل هو نمر حقاً أم هو وحش آخر، ولكن شيء مخيف على كل حال.

لا لن أضيع الوقت في وصف تلك الرحلة، فارجعوا إن شئتم إلى الجزء الثالث من ذكرياتي تجدوا خبرها، خبر الرحلة التي وطئت فيها سياراتنا أرضاً ما وطئتها سيارة قبلها منذ برأها الله.

* * *

توجهنا حين وصلنا جدة إلى دار الأفندي: الشيخ محمد ناصيف رحمة الله على روحه، وكانت داره محطة لكبار الحجاج من أهل العلم وأهل الصدارة في كل بلد، فكأنها دار خرقاء التي قال فيها ذو الرمّة:

تمام الحج أن تقف المطايا   على خرقاء واضعةَ اللثام

وكنت أعرف عنه الكثير من خالي محب الدين الخطيب الذي كان في تحرير (القبلة) على عهد الشريف حسين، الجريدة الرسمية التي حلّت محلها (أم القرى)، ومن الشيخ محمد بهجة البيطار الذي كان مع الشيخ كامل القصاب الذي وضع أساس التعليم الرسمي في المملكة أوائل عهد الملك عبد العزيز رحمه الله رحمة واسعة، ورحم كل من ذكرت.

فلما التقينا وجدت الشيخ أنبل وأفضل مما سمعت عنه وما كنت أحسبه مبالغة في المدح.

أصفه في كلمات قبل أن يتشعب بي الحديث فأضيع وأضيّع القرّاء بين شعابه:

كان نبيلاً نبلاً أصيلاً لا متكلفاً، كان طبعاً فيه لا تطبعاً، فلو أراد العدول عنه لما استطاع، فكأن حاله تشير إلى قول أبي تمام:

تعوّد بسط الكف حتى لو أنه   ثناها لقبض لم تطعه أنامله

وكان عالماً بالحجاز وأهله وحكامه، فكأنه تاريخ حيّ يمشي على قدمين، يعرف الدول والناس، كما يعرف الكتب، وعنده مكتبة من أنفس ما عرفت من المكتبات، ولقد عرفت مكتبات أساتذتنا: محمد

كرد علي في دمشق، وإسعاف النشاشيبي في القدس، وأحمد تيمور باشا، وأحمد زكي باشا في مصر، ومكتبة ندوة العلماء في (لكنو) في الهند، ومكتبة الحاج حمدي الأعظمي في بغداد، ومكتبات لا أحصيها الآن، فوجدت مكتبة الشيخ محمد نصيف من أكبرها، وكانت مكتبته مثل مائدته مفتحة الأبواب لكل قادم.

كانت المائدة منصوبة كل يوم، لا يسأل الداخل إليها عن اسمه، وكانت في داره غرف معدة للمنام من زاره وشاء أن ينام فيها نام.

ولما أقمت في مكة (من سنة ١٣٨٣ إلى الآن) كنت أنزل إلى جدة كل أسبوع لأحدّث في الإذاعة. ولم يكن قد أنشىء الرائي (التلفزيون)، فكان أول مكان أقصده إن دخلتها دار الشيخ، وآخر مكان أتركه إن خرجت منها دار الشيخ، ولم يكن من طبعي أن أنطلق على سجيتي عند الناس فآكل وأشرب إلاَّ عند الشيخ وقلّة من أصدقائي ومَنْ هُم بمثابة مشايخي، فكنت أشعر عنده كأني في بيتي، وكنت حيناً أجد عنده كلما جئت جدة رجلاً، ينام في الدار، ويأكل على مائدة صاحبها، ويأخذ حريته كاملة فيها، فسألته عنه، فقال: ما أعرفه ولكني لقيته مرة في بيروت!

وإذا كان موعد الحج، وتجهز له، حج معه كل من كان حاضراً، ومنهم من لا يعرف أسماءهم، يذهبون ويرجعون، ويأكلون ويشربون، ينفق هو عليهم، ويعلمهم مناسك الحج ويرشدهم، ويوليهم من كرم نفسه وكرم يده أكثر مما يبلغه أمل الآملين.

وكان متبعاً للسنة، محارباً للبدع، وكان سلفياً من قبل أن يدخل آل سعود الحجاز حاكمين، وكان كلما اطلع على كتاب نافع اشترى منه ووزع نسخه هدية على من ظنَّ أنه ينتفع بها، فأفاد بذلك المؤلفين وأعانهم، ونفع القارئين وأفادهم.

* * *

لم يكن في جدة فندق، فكانت داره هي الفندق الكبير، ولكنه كان فندقاً بالمجان، لا يكلف النزيل فيه مالاً، ولم تكن فيها دار ضيافة رسمية، فكانت داره دار الضيافة، ينزل فيها كل من أمّ جدة من عظماء الرجال، فيها كان ينزل الوالي على عهد العثمانيين، وخبرني أن آخر سلاطينهم نزل فيها بعد أن قضى مصطفى كمال الذي دعوه أتاتورك (أي أبا الأتراك) على الخلافة، وسلب قومه أشرف ما كانوا يعتزون به، وحكم على أكثرهم بالأمية لما ترك الحرف العربي الذي شرفه الله فكتب به القرآن، وألزمهم بالحروف اللاتينية التي لا تغني عنها ولا تسد مسدها، ولكنه لم يستطع إبعادهم عن الدين، ولا يزال الشعب التركي متمسكاً بالإسلام، وسيأتي يوم قريب تسقط فيه هذه البدعة الجديدة، ويعودون إلى دينهم كما عاد الأذان بالعربية، وقد خبرني من شهد عودته أنهم لمّا سمعوا (الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله) باللفظ العربي المبين، كما جهر به بلال يوم الفتح على ظهر الكعبة، لا ترجمته التركية التي لا روح فيها ولا جلال، لما سمعوه كان يوم عيد لهم تبادلوا فيه التهنئات.

وفي دار الشيخ نصيف نزل الشريف حسين (الملك حسين) وابنه الملك علي في أواخر عهدهما، كما نزل فيها الملك عبد العزيز في أوائل عهده رحمه الله ورحم الجميع.

وقد كنت أزور الشيخ في أيام السنة كلها، فما كان يتخذ ولا كان يحتاج إلى اتخاذ وسيلة للتبريد، بل كان يقول للخادم: يا ولد افتح هذه الطاقة، واغلق تلك الطاقة، فإذا النسيم ما ينفك ناعشاً يملأ المجلس روحاً ونعيماً، وتلك وسيلة قديمة عرفها أجدادنا فاستغنوا بها عن أكثر الوسائل التي يتبعها الناس اليوم، وقد رأيت مثلها لما زرت أنقاض قصر المتوكل الصيفي في مدينة (سُرَّ من رأى) فمن شاء قرأ خبره في كتابي (بغداد).

وقد أمر الملك فيصل رحمه الله بشراء القصر والمكتبة، فصار ملكاً للدولة، لا طمعاً فيه وفيها، بل تخليداً له ولاسم صاحبه.

وخبرنا الشيخ رحمه الله أن جده كان كلما فرغت طائفة من البنائين من عملها فيه دعاهم هم وأصحابهم إلى وليمة ضخمة يقيمها لهم. كان مجلس الشيخ ندوة علمية دائمة، لا يخلو من ضيف كبير، وحديث الشيخ درساً فيه منفعة وفيه متعة وفيه طرائف وظرائف، ليس بالمجلس الجادِّ الصارم، بل إن سماحة نفس الشيخ ولطفه تسيطر عليه وتملؤه لطفاً وإيناساً.

ويقولون عندنا بالشام: (الذي يفعل لا يقول والذي يقول لا يفعل). فمن بلغ به الكبر، وعلو السن، ما يبعده عن الرفث وعن النساء، يحب في العادة أن يسمع من الأخبار التي لا فحش فيها ما يسلّيه عمّا أعجزته الأيام عنه، وقد بلغت أنا الآن هذه السن، فلذلك كنا نتحفه[١] ببعض الطرائف، نجمعها له فيسمعها كما يحب كل شيخ سماع مثلها، مع الحفاظ على منزلته، وعلى هيبته، وعلى مكانته.

كانت معرفته بالرجال، مضرب الأمثال، حتى إنه ليقل في أعلام الناس من لا يمت إلى الشيخ بود أو معرفة أو زيارة له في أيام الحج، وكان إذا حل الصيف واشتد الحر، رحل إلى بلد من البلدان المجاورة كالشام أو عمّان أو لبنان، وقضى الصيف فيه وأخذ معه أحد أحفاده، ثم لم يكن يخرج من غرفته إلا لجولة بالسيارة يجولها في البلدة أو ضواحيها، ولكن يزوره فيها كرام أهلها ممن عرفه أو سمع به، وقلّ من الكرام من لم يعرفه أو يسمع باسمه، ولقد زرته في فندق الأردن الكبير في عمّان، وفندق بوريفاج (أي الشط الجميل) في بيروت، وتفضل فزارني مرات في داري في دمشق، داري التي عزَّ عليّ الوصول إليها، في جبل قاسيون، تشرف من نافذتها على دمشق كلها، وعلى غوطتها، في منظر عرضه على الأرض أكثر من عشرة أكيال (كيلومترات).

---

(١) أنا وبعض الإخوان كالصديق الأستاذ عمر الأميري.

وكنت أصحبه إلى ضواحي دمشق، إلى غوطتها التي أكلت العمارات والشوارع أكثرها، وإلى وادي بردى، وهو من أجمل أودية الدنيا، ما رأيت أجمل منه إلاّ وادي الآزِدِن الذي يصل بلجيكا بفرنسا، من عند (دينان)، والذي دخل منه الألمان في الحرب الكبرى.

وقد ذهبنا مرة مع الشيخ ومع صديقه شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار إلى (الفيجة)، حيث النبع الكبير الذي تستقي منه دمشق، والذي يمد نهر بردى بأكثر ما فيه من ماء، فاخترت أحلى مقصف على العين، وما كنت أرتاده من قبل ولا الشيخ بهجة يعرفه، فإذا هو مما لا يليق بنا دخوله، وقد عجب رواده لما رأوا ثلاثة مشايخ يدخلون فيه، وجاءنا النادل يسألنا عما نطلب فطلبنا (شاياً) فبان على وجهه أن طلبنا لم يعجبه، ولكنه سكت ومضى، وحان وقت الصلاة فسألنا عن المكان الذي يصلون فيه، وارتبكوا وما بالينا بهم، وأقمنا الصلاة، وسمع الإقامة بعض من كان في المقاهي المجاورة فجاؤوا يصلون معنا، وتكلم الشيخ بهجة فنصح بما يحتمله المقام، وعقبت عليه بكلمة مناسبة، فتحول المكان بحمد الله إلى مسجد، ومن قرأ لي قصة (شيخ في مرقص) علم أن كلمة الحق تقال في كل مجال، وأن إسماعها للضالين أولى من إسماعها للصالحين المهتدين.

* * *

ورث السيادة من جده الأفندي عمر نصيف، وأورثها حفدته وكلهم من وجوه الناس وأفاضلهم.

مرضت لما وصلت جدة فلم يكن فيها كلها طبيب واحد، لا في وزارة الصحة ولا في العيادات الخاصة، بل لم تكن في المملكة وزارة صحة ولا كان فيها عيادات خاصة، وفي جدة اليوم أكثر من عشرة

مستشفيات[1] كبار، وأكثر من عشرين مستوصفاً كل واحد منها كأنه من كبره وكثرة أطبائه مستشفى. ولم يكن في المملكة سبع مدارس ابتدائية وفيها اليوم سبع جامعات، ولم تكن فيها جريدة وفيها اليوم سبع جرائد كبيرة، منها ما هو بست وعشرين صفحة، لو كانت بحجم صفحات الكتاب، لزادت على. . . عفوكم يا أيها القراء فأنا لا أحسن الحساب فاحسبوها أنتم.

كل شيء قد تبدل، كل شيء قد نما وازداد، وحين يصل التبديل والإصلاح إلى (القضاء) تتم النعمة إن شاء الله.

* * *

وبعد، فهل ترونني أحسنت الكتابة عن الشيخ؟ هل استطعت أن أنقل إليكم صورة ولو باهتة عما في نفسي عنه من الإكبار، وما له من الحب؟

هل عرضت عليكم طرفاً من ذكرياتي عنه؟ هيهات! وهل تدخل ستون سنة من أحلى العمر في ستين سطراً من كتاب؟

هل نختصر البحر في قطرة، والروض في زهرة؟ وأيامي مع الشيخ في مجالسه مع الصفوة المختارة من الناس، وفي انفرادي به في أيام زياراتي جدة، وفي ليالي رمضان، وما سمعت منه، وما استفدته من معرفته ومن ذكرياته ومما مرّ به من الأحداث؟ لو دوّنت ذلك لكان منه كتاب من أنفس ما قرأ الناس من كتب.

ولكن لماذا أشارككم ذكرياتي وهي ملكي وحدي، أتعلل بها،

---

(١) قلت: عشرة مستشفيات لأن لفظ مستشفى مذكر والناس يخطئون فيؤنثونه، كما يقولون (هذه الرأس) والرأس مذكر، والعرب لا يؤنثون الرأس ولا يرئسون الأنثى.

وأسترجعها، ولا ترجع لي أيامي معه فما مضى لا يعود، ولكن أعود أنا إليها بالذكرى.

فلماذا أفرط فيها وقد جمعتها ساعة فساعة كما يجمع البخيل ماله قرشاً إلى قرش، فأجعلها تسلية للقراء؟

وبعد، مرة ثانية، فرحم الله الشيخ الذي لا أحسب أنه سيخلفه الزمان. قد نجد في الكرم، كرم النفس، وكرم اليد، مثله، وقد نلقى من له مثل مكتبته ومثل ولعه بالكتب، ومن له مثل معرفته بالرجال، ولكن أين من جمع من هذه كلها ومن خلال الخير مثل ما كان للشيخ؟

وبارك الله في أحفاده: عبد الله الذي كان أستاذاً في الجامعة كأحسن الأساتيذ، ثم صار مدير الجامعة، ثم رفعه الله فصار الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي التي تمثل مسلمي الأرض، وعبد العزيز الذي يصفي للناس ماء البحر وهو ملح أجاج فيجعله بتوفيق الله (وما أعطى هذه المملكة من العزة ومن المال) عذباً فراتاً، وأختهما الدكتورة فاطمة أخت الرجال، ومعملة الأجيال، الداعية إلى الله والهادية إلى رضاه، وإخوتهم جميعاً الذين ورثوا الكثير من مزايا الشيخ، رحمه الله، وأيّدهم، وثبّتهم على الحق.





علي الطنطاوي

طبعة ثالثة منقحة

دار المنارة
جدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله ـ الحمد لله ـ لا أقولها من طرف اللسان ـ بل أقولها بلساني وقلبي وجوارحي وكل خلية في جسدي ـ وكل ذرة من نفسي، لأن نعم الله تغمرني كلي، فاللهمّ لك الحمد.

هل كان بالإمكان أن أعرف لما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب قبل ثلاث وخمسين سنة، أني سأتزوج وأرزق بنات، وأن صديقي تيسير حتاحت الرجل الطيب الصالح رحمة الله على روحه، يهب الله له بنين، ثم يتزوج أحد أبنائه نادر صغرى بناتي. وأن الله سيوفقه ويأخذ بيده حتى ينشىء داراً للنشر هي (دار المنارة)، جعلها الله منارة هدى ورشاد، وأن يعتزم طبع هذا الكتاب. ويطلب مني مقدمة لهذه الطبعة الجديدة؟.

هل كان بالإمكان أن أتخطى حجب الغيب التي أسدلها الله دونه، فلا يرى أحد ما وراءها. إلاّ أن يكرم الله نبياً مرسلاً، أو ملكاً مقرباً، أو عبداً صالحاً؛ فيكشف له طرف الستار. حتى يريه ما يأذن الله له بأن يراه.

لقد كتبت مقدمات لأكثر من أربعين كتاباً، من مؤلفيها من هو مبتدىء يعتمد على مقدمتي ليقوم فيرى الناس كتابه، ومنهم من هو مثلي لا يحتاج إليّ، ولكن ينوّع مائدته، حين يضع مقدمتي مع كتابه، ومنهم

من هو أفضل مني ولكنه كرمني، حين جعلني أقدم كتابه للناس وكتابه متقدم بلا تقديم....

... ولكني لم أجد مثل الصعوبة التي أجدها اليوم في كتابة هذه المقدمة، ذلك أني أكتب وأخطب من ستين سنة كاملة (من سنة ١٣٤٥ هـ)، ولكل كاتب طريقته، وطريقتي أني أجمع المعاني والأفكار وهي مرحلة فيها متعة وفيها لذة، أجمعها في ذهني أو في ورقة في يدي، أشير فيها إشارات إلى رؤوس الموضوعات، وأبو تمام يوصي من يريد أن ينظم (أو يكتب) بأن يرتاد الرياض، وحفافي الحياض، وأن يفرغ لذلك ذهنه، ويحشد له انتباهه، وأنا لا تأتيني الأفكار إلاّ إن وقف (عقلي الواعي) ـ فانطلق (العقل الباطن)، حين اضطجع للمنام وأنا نعسان، قد نال مني التعب، وبلغ مني الجهد، أو كنت في الترام وسط الزحام، أمسك الفكرة فأودعها هذا العقل الباطن وأدعه يشتغل هو بها، كما يشتغل المحساب (الكمبيوتر) إذا وضعت فيه المعلومات.

ثم أعمد إلى ترتيب ما جمعت ـ وكتابته، وهذه أصعب المراحل التي أمر بها، لأني ربما كتبت الفكرة الواحدة مرتين أو ثلاثاً، كل مرة بأسلوب. واحدة تزيد من هنا وتنقص من هناك، وأخرى تزيد من هناك وتنقص من هنا، فلا أستطيع جمعها معاً، ولا تطيب نفسي بالتفريط بشيء منها.

ثم أبيضها، وهذه مرحلة فيها لذة، ثم أرسلها للنشر وأرقب نشرها، فإن تأخرت اشتغل ذهني بها، وسألت عنها، فإن جاءت منشورة قرأتها مرة أصحح تطبيعاتها (أي أخطاء الطبع فيها)، ولي مع التطبيعات حديث طويل طويل ـ ثم أقرؤها مستمتعاً بها ـ ثم لا أستطيع أن أعود إليها، ولا أن أنظر فيها.

فكيف أعود الآن إلى كتاب أبي بكر؟ كيف يا نادر؟ أبعد نصف قرن تطلب مني أن أسترجع حالة نفسي التي كانت يومئذ عليها، والتي

كتبت الكتاب فيها؟ ولو رجعت إلى أول كتاب الذكريات التي توليت أنت نشرها لرأيت أني لست واحداً وإن لم أكن متعدداً، لأن الإنسان يتبدل وهو نفسه، كماء النهر تطل عليه من فوق الجسر: لا تمر بك قطرة واحدة مرتين، والتي مرت لا ترجع أبداً، فهو يتغير دائماً، ولكنه يبقى هو نفسه، فلا يصير الفرات النيل، ولا النيل الأمازون.

أي أنني أعمل أعمالاً متباينة، ولكن لا أقسم لها نفسي، بل أقسم وقتي. أي أنني أتبع أسلوب (المهايأة). هل تعرف ما المهايأة؟ إذا كان للدار مالكون هم شركاء فيها، ولا يمكن أن تقسم بينهم، فما يصنعون؟ يستعملها كل شريك مدة من الزمان، هذه هي المهايأة. فأنا أكتب الفتاوى، وأكتب القصص، وأؤلف في التاريخ، ولقد عملت في التعليم وفي القضاء، ولي اطلاع (اطلاع فقط) على الموسيقى والرسم، أعرف ذلك نظرياً وإن لم أمارسه عملياً، فكيف أصنع؟ إنني حين أكون في شيء أفرغ نفسي له، وأشغلها كلها به، فإذا فرغت منه، وجهت قوتي كلها إلى غيره.

لذلك أعجز عن أن أعود إلى ما فرغت منه، ولذلك صعبت علي هذه المقدمة.

* * *

إذا تداول المستأجرون الدار أفيحق لك أن تقحم بابها على مستأجريها اليوم ـ لأنك كنت ساكنها بالأجرة منذ سنين؟ فكيف بموضوع كان يشغل ذهني قبل ثلاث وخمسين سنة؟ إذا وضعت زورقك على وجه النهر الجاري فمشى بك ثلاثاً وخمسين كيلاً (كيلومتر)، ثم بدا لك[١]، فهل تستطيع أن تعود فتسير ضد التيار، حتى تصير حيث بدأت المسير؟.

* * *

---

(١) أي غيرت رأيك.

لقد كنت شاباً، متوثب النشاط، متفجر الهمة، كفرس السباق، تقيده ليقف، وهو يتململ في قيده، ويتحرك في محبسه، يريد أن ينطلق لأنه لا يطيق السكون، فصرت كالحصان العجوز، ما نسي عراقة أصله، ولا كرم محتده، ولا أمجاد صباه، ولكن فقد طاقة الشباب.

أنا الآن أنضج ذهناً، وأوسع اطلاعاً، وأصح على الأمور حكماً، وقد مال أسلوبي إلى البعد عن المبالغات، وهجر الصناعة اللفظية، وصار أقرب إلى العفوية[1]، ولكن مثلي مثل سيارة، قوية المحرك، كاملة العدة، ممتلئة الخزان بالوقود، إلا أن زنادها (المارش) ضعيف، فهي لا تمشي حتى يدفعها الناس بأيديهم ـ لقد ذهبت همتي ـ ولا يزال الناس يتكلمون في الشباب والشيخوخة، وفرق ما بينهما. وأنا أقرر بعد أن عشت الشباب والكهولة، وبعد أن صرت شيخاً، أن الاختلاف ليس في الطبيعة، فكلاهما يبتغي بطبيعته الكمال، وكلاهما يحرص على اللذة ويحب الجمال، ويعيش بالآمال، لكن الفرق في السرعة، الشيخ يمشي إلى غايته حذراً متمهلاً ـ وكدت أقول أنه يمشي خائفاً، والشاب لا يفكر في العواقب، ولا يبالي الأخطار. وأنا أنظر إلى نفسي الآن ـ ويوم ألفت هذا الكتاب، فأرى أني تغيرت، ولكن الجوهر لم يتغير، فكري اليوم هو فكري بالأمس، ما بدلت خط سيري، ولا مبدئي الذي صدرت عنه، ولا غايتي التي أمشي لها.

فأنا (وأنتم) كالشجرة تطرح ورقاً قد اصفرّ، وتجدد ورقاً نبت واخضرّ، وتثمر ثمراً جديداً، وتلقي عنها ثمراً قديماً، ولكن الجذع قائم... غير أن الإنسان شجرة عجيبة، وثمرها تختلف ألوانه ولكن يبقى طعمه، لقد أثمر قلمي خلال هذه السنين(التي زادت على الخمسين) كثيراً، ولقد كتبت كثيراً، وإن الباقي مما كتبت يزيد في العد عن ثلاثة عشر ألف صفحة، ما أعرف من أهل عصرنا من كتب أكثر

---

(١) ويدعونها في مصر التلقائية.

مما كتبت إلاّ الأمير شكيب أرسلان والعقاد ـ وكتبت كثيراً على هامش التاريخ، قصصاً وحكايات، وفي صلب التاريخ أحاديث ودراسات، وكتبت كثيراً عن الخلفاء الراشدين الذين كانوا لُباب البشر، وكانوا نخيلهم. لو نخلت البشر جميعاً بأدق المناخل ما جاء معك أصفى ولا أنقى ولا أنعم منهم. ولولا أنهم بشر لقلت إنهم ملائكة يمشون على الأرض.

وكتبت عن أبي بكر خاصة كثيراً، وحاضرت كثيراً، فلما جئت أكتب هذه المقدمة ترددت: هل أضع هذا الذي كتبت في المقدمة، أم آخذ الأفكار التي تضمنتها، وأحول المسائل إلى عرض لها، فألخصها وأشير إليها، فأطمس بذلك جمالها، وأمحو رونقها.

أم أصنع بالكتاب كما صنعت بأخيه كتاب أخبار عمر بن الخطاب، حين هذبت حواشيه، وبدلت أسلوبه، وصُغت أكثره صياغة جديدة سميتها (أخبار عمر) وهو الذي يتداوله الناس.

ثم رأيت أن أبقي الكتاب على حاله ـ لأنه وإن لم يطبع إلاّ طبعتين، مر على أحدثهما ثلث قرن (كانت الطبعة سنة **١٣٧٢** هـ)، فلقد وضع في المكتبات العامة والخاصة، وقرأه من لا يحصي عدده إلاّ الله، وصار ملكاً للتاريخ.

وشيء آخر قلته من قبل، ونشرته في الصحف، وأيدته بالدليل، هو أن كثيراً ممن كتبوا عن أبي بكر، حتى الأجلاّء منهم، كالعقاد ومحمد حسين هيكل، أخذوا الأخبار التي تعبت في جمعها، ولم يذكروني ولم يشيروا إلى كتابي.

* * *

ولقد قلت في مقدمة (أخبار عمر) أني قرأت سير آلاف العظماء من المسلمين وغير المسلمين، فوجدت فيهم من هو عظيم بفكره، ومن

هو عظيم ببيانه، ومن هو عظيم بخلقه، ومن هو عظيم بآثاره، ووجدت عمر قد جمع العظمة من أطرافها، فهو عظيم الفكر والأثر والخلق والبيان.

وأقول اليوم: إن أبا بكر كان أعظم من عمر في كل شيء. حتى في القوة التي كانت شعار عمر، وكانت عنوان شخصيته، فإن أبا بكر الضعيف الجسد، الرقيق العود، لما بارى عمر في القوة كان هو الأقوى.

إن عمر عظيم عظيم، ولكن لا يعدل أبا بكر.

إن أبا بكر هو أعظم العظماء بعد الأنبياء. ولقد أقر عمر بذلك بلسانه على منبر رسول الله ﷺ، وتاريخه كله إقرار بذلك، ولا يعرف الفضل إلاّ ذووه، رضي الله عنهما.

وحسبكم أن أبا بكر كان أسبق الرجال إلى الإسلام، وأنه كان أحبهم إلى رسول الله ﷺ كما خبر بذلك ﷺ.

* * *

الفريق المتماسك في الرياضة الجماعية يعمل معاً، الواحد للكل والكل للواحد، تجد فيه نخبة من الأبطال، لا تستطيع أن تحكم أيهم أقوى، إلاّ إن تنازل في مباراة ودية اثنان منهم.

كذلك كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، وكان الخلفاء الراشدون، والعشرة المبشرون، خيار الصحابة، وكان الشيخان أبو بكر وعمر. كما كانت خديجة وعلي، خيار الخيار، وأبطال الفريق.

ولقد تواجه أبو بكر وعمر، لا مواجهة المتباريين فما كانا يختلفان ولا في المزاح، بل مواجهة المتنافسين على (درجة الامتياز) في السباق إلى رضا الله.

تواجها يوم قبض رسول الله ﷺ - ويوم السقيفة، ويوم بعث جيش

أسامة، ويوم الردة، وكلها نوازل نزلت بالمسلمين، وفي النوازل الثقال توزن أقدار الرجال، فكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه وعن عمر - أثبت في الشدائد، وأشجع في اقتحام الأهوال، وأكثر علماً بالله، وكان هو الأرجح في الميزان.

وإذا كان العاشق يصدع قلبه، ويكاد يذهب رشده، موت حبيبه، وهو عشق أرضي - فماذا يصنع موت رسول الله ﷺ بالصحابة، وحبهم رسول الله ﷺ حب سماوي، من طراز نادر ما عرفه العشاق، ولا ذاقه المحبون - العاشق إنما يحب في المعشوق لذة نفسه، وهم أحبوا رسول الله أكثر من حبهم أنفسهم، لذلك طاشت عقولهم لما رأوا أن رسول الله ﷺ كان حياً بين أظهرهم فغدا ميتاً أمام أنظارهم، وكان ينقل إليهم الخبر من السماء، فانقطع بموته خبر السماء، وكان يحمل إليهم كلمات الله فلم يعد يتنزل الوحي بكلمات الله.

لم يصدق عمر أن رسول الله قد مات، وحمله حبه إياه أن يحسب أنه ذهب لميعاد من ربه كميعاد موسى، إذ غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم، وسلَّ سيفه وقام يخطب، يقول: (والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدي رجال زعموا أنه مات)، وكأنه عدها من الشائعات الضارة التي لا أصل لها، فهدد من يرويها ويشيعها.

وأخذ أكثر القوم بقول عمر، حتى جاء أبو بكر فجاء معه اليقين، وجاءت السكينة، وكان عمر يكلم الناس، فما وقف عليه حتى دخل على رسول الله ﷺ وهو مسجى مغطى بثوب يمان[1]، في بيت عائشة - فكشف عن وجهه ثم أقبل عليه فقبله ثم قال: بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن يصيبك بعدها موتة أبداً. ثم رد الثوب على وجهه، ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال: على رسلك يا عمر فأنصت. فأبى إلاَّ أن يتكلم. فلما رآه أبو بكر لا ينصت

(١) يمان نسبة إلى اليمن.

أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ قال (الراوي، أبو هريرة) فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حتى تلاها أبو بكر يومئذ وأخذها الناس عن أبي بكر فإنما هي في أفواههم (قال أبو هريرة): قال عمر: فوالله ما هو إلاّ أن سمعت أبا بكر يتلوها فعقرت حتى وقعت على الأرض ما تحملني رجلاي وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات.

* * *

الله قادر على كل شيء، يبدل إن شاء نظام الكون، فيطلع الشمس في جوف الليل، وينقل ماء البحر فيغطي به رمال الصحراء، ويرجع الشيخ شاباً، ويجعل الطفل في لحظة شيخاً، لا يعجزه شيء وهو خالق كل شيء. ولكنه جلت حكمته، وضع لهذا الكون سنناً، وقدر لكل شيء سبباً. ولقد كان هذا الموقف من أبي بكر سبب بقاء عقيدة الإسلام.

إننا إذا أردنا أن نقوّم شيئاً، وندرك قيمته، تصورنا عدمه، ورأينا ماذا نخسر بخسرانه، وإنني لأفكر ماذا كانت حال المسلمين لو لم يقف أبو بكر هذا الموقف؟

وأنا أقيس بالمقاييس البشرية، لا بمقياس القدرة الإلهية التي لا يحدها حد.

ماذا يكون لو لم يأت أبو بكر في هذه اللحظة الحاسمة، واستمر

عمر يقول إن محمداً ﷺ لم يمت ولكنه غاب مثل غيبة موسى، ويهدد بالقتل من يقول إنه قد مات؟.

* * *

ويوم الردة؟ إنه ما مات رسول الله ﷺ حتى عمّ الإسلام الجزيرة كلها، ودخل فيه العرب جميعاً، وامتدت الدعوة إلى البلدان المجاورة وكان أقربها إلى الحجاز وأشدها صلة به دار الشام التي كان يحكمها البيزنطيون.

ولقد وجه الرسول ﷺ الدعوة إلى ملوك هذه البلدان، وكتب إليهم ليدخلوا في الإسلام، وقاد بنفسه قوة عسكرية إلى تبوك، ثم بعث قوة أخرى إلى مؤتة، وكانت فرقة صغيرة لا يجاوز عدد جنودها ثلاثة آلاف، فواجهها جيش ضخم للعدو، يزيد عن مئة وخمسين ألفاً، واستطاعت هذه الفرقة مع ذلك الانسحاب انسحاباً شريفاً سليماً.

وكأن رسول الله ﷺ عزم بعد ذلك على حماية الدعوة في الشام بالقوة، فأعد جيشاً كبيراً، استنفر له الناس استنفاراً عاماً، وكان فيه كبار الصحابة، وشيوخ الإسلام، وكأن الرسول ﷺ أراد أن يعلمهم أن عماد الحياة العسكرية الطاعة، وأن على المسلمين أن يقبلوا إمارة أيّ مسلم صغيراً كان أو كبيراً، ما دام قد انتخبه أو عيَّنه من له حق الانتخاب أو التعيين، وما دام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينفذ أحكام الشرع، فولّى على هذا الجيش الذي فيه أمثال أبي بكر وعمر شاباً صغيراً عمره سبعة عشر سنة هو أُسامة بن زيد.

وتوفي رسول الله ﷺ والجيش مرابط على أبواب المدينة يتهيأ للمسير، وانتخب أبو بكر، فوقف أسامة أمير الجيش، يتلقى الأوامر الجديدة من الخليفة الجديد.

في ذلك الظرف... كانت الردة، وانتقض أمر الناس فاستشرى

النفاق في المدينة، ورفع المنافقون رؤوسهم التي كان الرسول ﷺ قد أذلّها بالحق، وجعلت الأخبار تصل إلى المدينة تباعاً، بأن العرب ارتدوا، قبيلة بعد قبيلة، وانتشرت الردة انتشار النار في الهشيم، حتى لم يبق في الجزيرة كلها إلاّ ثلاثة مساجد، لم تصل إلى أهلها الردة، وهي مكة والمدينة والبحرين.

وقبل أن أعرض عليكم الموقف العظيم الذي وقفه أبو بكر، أحب أن أبين لكم معنى الردة في العرف الإسلامي، وكيف كانت ردة العرب.

أما الردة فهي الكفر بعد الإيمان، والمرتد هو الذي آمن ثم كفر مرة ثانية، وحكم المرتد في ديننا أشد من حكم الكافر.

فالكفار من أهل الكتاب - يجوز أن نعاشرهم بالحسنى ما لم نكن معهم في حالة حرب، ويجوز أن نتزوج بناتهم... أما المرتدون فمهلتهم ثلاثة أيام، ليرجعوا إلى الإسلام، ويتوبوا ويعلنوا البراءة من الكفر، فإن أبوا وجب الحكم عليهم بعقوبة الموت.

والردة على وجهين: ردة كاملة، بأن يخرج المرتد من الإسلام جملة واحدة، وردة بحكم الكاملة هي أن ينكر جزءاً من الإسلام.

فمن أنكر جزءاً من الإسلام، كأن يرفض آية من القرآن، أو يجحد كلمة منه، أو يستحل محرماً ويقول إنه ليس بحرام، أو ينكر واجباً ويقول إنه ليس بواجب كان حكمه حكم المرتد.

أما المرتدون من العرب على أثر وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام فكانوا فريقين:

فريق (وهم الأقل) كفروا بالدين كله، وآمنوا برسالة الشيطان إلى أنبيائه مسيلمة وطليحة والأسود وسجاح...

وفريق (وهم الأكثر) لبثوا على إيمانهم بنبوة محمد ﷺ وإقامة

الصلاة والحج وتلاوة القرآن، ولكنهم منعوا الزكاة. فاعتبرهم أبو بكر مرتدين بمنع الزكاة.

وكان عمر في جيش أسامة، فبعث به أسامة إلى أبي بكر وقال له: إن معي وجوه الناس، ولا آمن على خليفة رسول الله وعلى أهل المدينة أن يتخطفهم المشركون، فاستأذن لي بالرجوع، وتأجيل السفر. وقالت له الأنصار: بلغ الخليفة إذا أصرّ على توجيه الجيش أننا نطلب قائداً أكبر سناً من أسامة.

فخرج عمر بأمر أسامة حتى أتى أبا بكر فأخبره بما قاله أسامة. قال له: يا خليفة رسول الله إن العرب قد ارتدت على أعقابها كفاراً كما قد علمت وأنت تريد أن تنفذ جيش أسامة، وفي جيش أسامة جماعة العرب وأبطال الناس، فلو أبقيته عندك لتقويت به على من ارتد من هؤلاء العرب.

فقال أبو بكر: والله لو علمت أنَّ السباع تجر برجلي إن لم أرده ما رددته، ولا حللت لواء عقده رسول الله.

قال عمر: إن الأنصار أمروني أن أبلغك أنهم يطلبون أن تولي أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة.

فوثب أبو بكر وكان جالساً فأخذ بلحية عمر، وقال: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب... ولاّه رسول الله وتأمرني أن أعزله؟.

فرجع عمر إلى الناس فقالوا: ما وراءك؟ قال: امضوا ثكلتكم أمهاتكم، ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله.

* * *

وقام أبو بكر فخطب الناس، فكان مما قال: إنما أنا متبع ولست بمبتدع، ولست بخير من أحدكم، فراقبوني فإن رأيتموني استقمت فتابعوني، وإن رأيتموني زغت فقوِّموني، ألا وأن لي شيطاناً يعتريني

(يريد أن عنده حدة مزاج) فإذا أتاني (أي إذا غضبت) فاجتنبوني لئلا ينالكم مني ما تكرهون.

هذه. لا الديمقراطية التي يعرفها غيرنا. هذه التي لا يعرفها التاريخ إلا عندنا.

وذهب يودع الجيش، وكان يمشي مع أسامة على رجليه وأسامة راكب، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأنزلن، قال: والله لا تنزل ولا أركب، وما عليَّ أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة... حتى إذا انتهى الوداع قال لأسامة: إن رأيت أن تعينني بعمر، فافعل، فأذن له.

ووصى الجيش وصيته المشهورة، التي أجمل بها قواعد الحرب الإسلامية التي وضعها رسول الله ﷺ، فقال لهم: لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلاّ لمأكلة...

* * *

وتوجَّه الجيش، وجعل لا يمر بقبيلة تريد الارتداد إلاّ قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج هذا الجيش من عندهم.

والتفت أبو بكر إلى أهل الردة، وكانوا قد بعثوا بوفود إلى المدينة فقالوا: نؤمنُ بالله ونشهد أنَّ محمداً رسول الله، ولكنا لا نعطيكم أموالنا.

ونزل الوفد على وجوه الناس، وتوسَّلوا بهم إلى أبي بكر، فكلموه وقال له عمر: كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإن قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها. فقال أبو بكر: والله لو منعوني عقالاً (وفي رواية عناقاً)[1] لجاهدتهم عليه.

---

(١) أي جذياً صغيراً.

قال عمر: يا خليفة رسول الله تألّف الناس وارفق بهم.

فقال له أبو بكر: رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك، أجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام؟ إنه قد انقطع الوحي، وتم الدين، أو ينقص وأنا حي؟.

وواجه أبو بكر هذا الموقف بإيمان أثبت من الجبل وأعصاب أمتن من الحديد.

أما إيمانه فقد منعه أن ينقض أمراً كان أبرمه رسول الله، ولو نقضه لكان لذلك مسوّغ شرعي، ولكنه لم يفعل.

وأما قوة أعصابه، فقد ثبّتته في هذا المضطرب الذي يميل فيه أشد الرجال.

ولم يدخل داره، ويغلق عليه بابه، مستريحاً إلى أنه أمضى أمر رسول الله، بل حصّن المدينة بعد خروج الوفود منها، وعيّن علياً والزبير وطلحة وابن مسعود قواداً للدفاع عنها من جهاتها الأربع، وألزم الناس جميعاً الاجتماع في المسجد كل يوم، على أهبّة الاستعداد، وقال لهم: إن الأرض كافرة، قد رأت وفود المرتدين قلّتكم، وإنكم لا تدرون أيأتونكم ليلاً أم نهاراً فاستعدوا وأعدوا...

ولم تمض ثلاث ليال، حتى وصلت أوائلهم المدينة، فهاجموها ليلاً، يحسبونها لقمة سائغة، فوجدوا الحاميات أمامهم فكان اصطدام... ووصل الخبر إلى أبي بكر فأمرهم بالثبات، وخرج مع الجند المجتمعين في المسجد، فردوهم، وانهزموا، ولكنهم عمدوا إلى حيلة معروفة عند العرب، فأخذوا قرب السمن، فنفخوها وربطوها بالحبال، ودحرجوها تحت أرجل جمال المسلمين ليلاً، والجمال لا تفزع من شيء فزعها منها... فنفرت بالمسلمين حتى دخلت بهم المدينة وسلّم الله فلم يصب منهم أحد.

وظن المرتدون أن المسلمين ضعاف، فجمعوا جموعهم، وعزموا على غزو المدينة واحتلالها، ولم يفزع أبو بكر، ولم يتحصن في البلد ويغلق أبوابه، بل أعد حملة عسكرية، قادها بنفسه، وانتقل بها بسرعة وكتمان، فهاجم بها المرتدين ليلاً، وهم يزيدون أضعافاً مضاعفة على المسلمين، فما شعروا إلاّ والسيوف فوق أعناقهم، فما طلع النهار حتى ردوهم وهزموهم، وكسر الله بهم شوكتهم، وكان هذا كله، وسلسلة الانتصارات التي جاءت بعده ثمرة من ثمار إيمان أبي بكر الذي هان عليه معه كل عزيز في الدنيا. شهد له سيد الخلق ﷺ بأنه وحده الذي دخل الإسلام قلبه لما عرضه عليه بلا تردد، وما أحد غيره إلاّ تردد شيئاً قليلاً، إلاّ خديجة شريكة حياته، وعلياً ربيبه وابن عمه. وقبل منه الرسول ماله كله، وما قبل من عمر إلاّ نصفه، وقال لسعد وللمسلمين: الثلث والثلث كثير، وولاّه لما مرض الصلاة بالمسلمين. وأثبت الله صحبته بنص القرآن، فمن أنكرها خرج من زمرة أهل القرآن... ولن أفيض في سرد مناقب أبي بكر فهذا الكتاب كله في مناقب أبي بكر (أعظم العظماء بعد الأنبياء).

* * *

ولقد آثرت أن أتركه على حاله لا أبدل اليوم فيه شيئاً، وكيف أبدله والناس يقرؤونه من أكثر من نصف قرن؟

ولئن قلتم إن سرد الأخبار أسلوب قديم. قلت: إنه أيضاً جديد، وأقدر كتاب العصر على التعريف بالرجال، أو أقدر من أعرف منهم أندريه موروا الفرنسي وإميل لودفغ الألماني.

ولقد قرأت فصلاً لإميل لودفغ عن فولتير. فما رأيته زاد على اختيار عشرة أخبار من قصة حياته سردها سرداً، وعرضها كما هي، ليجد القارىء بنفسه معالم حياته من هذه المشاهد.

أقول هذا لمن لا يرى الحق حقاً، ولا الفضل فضلاً، إلاّ إن جاء من الغرب وكان عليه الدمغة الغربية.

وأسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب قارئيه اليوم كما نفعهم بالأمس، وأن يكتب لي ولأخي الأستاذ أحمد عبيد الثواب عليه، فلقد كان هو الذي اقترح عليّ تأليفه، وأعانني على الوصول إلى المصادر، وكان له فيه جهد ظاهر.

وآخر الدعوى أن الحمد لله رب العالمين.

مكة المكرمة: يوم الوقفة الكبرى في عرفة سنة ١٤٠٥ هـ علي الطنطاوي

مقدمة الطبعة الثانية

هذا كتابٌ ألَّفتُه من عشرين سنة، لم أستطع النظرَ فيه قبل تجديد طبعه، ولم أُبدّل حرفاً واحداً فيه. وأنا راض عن أُسلوبه البياني، وعن وجهته الإسلامية، وإن كانت الأيام قد مالت بأسلوبي إلى (البساطة) والوضوح، وبآرائي إلى القصد والاعتدال. أما الأفكار والآراء فأحسب أني لو أعدتُ النظر فيها، لعدَّلتُ بعضاً منها.

أقدِّم الطبعة الجديدة بهذه الكلمة، شاكراً الناشر راجياً منه جودَة الطبع، شاكراً القارىء راجياً له الفائدة والنفع. ولله الحمد أولاً وأخيراً، وأسأله التوفيق في العمل، والإخلاص في النية، وأستغفر الله وأصلي على رسوله محمد وعلى آله وصحبه.

منتصف رمضان ١٣٧٢

علي الطنطاوي
المستشار في محكمة النقض

مقدمة الطبعة الأولى

اللهمّ لك الحمد، وبك الاستعانة، ومنك التوفيق، ولا حول ولا قوة إلاّ بك. اللهمّ صلّ على سيدنا محمّد خاتم المرسلين، وعلى خلفائه الراشدين، الهادين المهديين، وعلى آله وصحبه وسلم وبارك.

وبعد، فإن مما قويت به الأمم الغربية علينا، وضَعُفنا به عنها، إجلالَها عظماءها، وتدوينها سيَرهم، واقتفاءها آثارهم، وذهابها في ذلك إلى أقصى ما يبلغ «الغرور القومي»... فهي تسمو بهم إلى ذروة العظمة، وتسلك إلى إحياء أسمائهم شتى الطرق، فتنشىء المعاهد على ذكراهم، وتفتح المدارس بأسمائهم، وتَنْحِت التماثيل على صورهم[1]، وتؤلف الكتب في سِيَرهم وأخبارهم، وتكثر منها حتى تَخصّ الخُلُقَ من أخلاق العظيم... والصفة من صفاته، والعمل من أعماله بالكتاب الضخم. فينشأ الشاب من شبانها وقد ألمّ بسير العظماء من قومه، واستقرّ في نفسه ـ لطول ما سمعَ من الثناء عليهم بالحق وبالباطل ـ أنهم عظماء الدنيا وأباطل العالمين...

أما الشابّ العربيّ، فإنه ينشأ نشأة يكاد يجهل معها عظماء أمته،

---

(١) أردنا من ذكر التماثيل بيان ما للقوم من عناية بعظمائهم، أو ما يحسبونه عناية، ويظنون أن فيه فائدة ونفعاً، ونحن بحمد الله مسلمون نعتقد أن نصب التماثيل حرام في ديننا، وأن كل ما يقال في تجويزه لا طائل تحته، وأن إنفاق المئات من الدنانير على نحت صنم في أمة لا تزال تعوزها المدارس والمصانع ضرب من الجنون.

لا يدري ما خبرهم، لأن أخبارهم متفرقة في بطون «الكتب القديمة»، وقد نشّؤوه على احتقار هذه الكتب، والزراية عليها، والانصراف عنها، ثم علّموه تعظيم «الكتب الجديدة» والإقبال عليها، والإيمان بكلّ ما فيها... فقرأها وآمن إيماناً لا شكّ فيه، بأنّ العظمة والعلم والخير كله إنما هو الذي يأتي من هناك... وأنّ الضعة والجهل والشرّ كله إنما هو الذي يأتي من هنا.

وأفهموه أن تاريخ نابليون ولويس الرابع عشر، هو تاريخ الإنسان الراقي المهذّب. وأنّ تاريخ الصدّيق والفاروق هو تاريخ البداة المتأخرين المتوحشين. فعرف من تاريخ نابليون أو لويس الرابع عشر كلّ صغيرة وكبيرة، وقرأه مفصّلاً ومختصراً، وحفظه وأعاده وناقش فيه... وهو لا يعرف بعدُ، سيرة سعد بن أبي وقاص، ولم يسمع قطُّ باسم القعقاع بن عمرو.

هذه الحال المخزية التي لا يَصْبر عليها مسلم، ولا تبلغها أمة إلاّ أوشكت أن تبلغ حافة القبر الذي تدفن فيه تاريخها ومجدها وحياتها... هي التي حفزت همم السادة آل عبيد «أصحاب المكتبة العربية في دمشق» إلى نشر التاريخ الإسلامي مرّة ثانية، ليعرف الشبّانُ المسلمون أبطالهم وعظماءهم، وجلال ماضيهم وسموّ تاريخهم، وبدأت بنشر سيرة نابغة الدنيا في فنّ الحرب «خالد»، وأرادت أن تقفّي على أثرها بسيرة أعظم العظماء بعد الأنبياء «أبي بكر»، وانتدبتني لكتابة هذه السيرة الجليلة، فأجبت على عجزي وضعفي، آملاً أن أكون عاملاً صغيراً في هذا العمل الكبير، ويكون لي شرف مؤازرة «المكتبة العربية» في هذا المشروع.

وكنت على أن أسلك في هذا الكتاب، سبيل «الدراسة التحليلية» فأصف «الحياة العقلية والاجتماعية والسياسية» للعصر الذي عاش فيه أبو بكر رضي الله عنه، والبيئة التي نشأ فيها، وما كان لذلك من الأثر فيه.

وأدرس أخلاقه وسجاياه، وأبحث العوامل التي عملت في تكوينها، وأبيّن أثر الإسلام فيها، وأثرها في التاريخ الإسلامي... وما إلى ذلك من «عناصر الدراسة التحليلية»[1].

ولكنّ «المكتبة العربية» ترى أن هذا الأسلوب لا يمثل إلاّ رأي صاحبه، وأنّ الرأي قد يخطىء الحقيقة، وقد يصيبها، وهي لا تحب أن تخرج للناس «درساً» فيه الخطأ وفيه الصواب، بل «تاريخاً» صحيح السند، مضبوط الرواية، على مثال الكتاب الذي أخرجته من قبل في سيرة «الخليفة العبقريّ» عمر بن عبد العزيز، ووفقت فيه التوفيق كلّه، ولم تسألني إلاّ كتابة سيرة الصدّيق الأعظم على منواله، وأن أجمع في كتاب واحد ما تفرّق من هذه السيرة في عشرات من الكتب لا يعرفها ولا يصل إليها إلاّ رجل له بصر في التاريخ، وصَبْرٌ على البحث، وباع في الأدب، ومشاركة في العلوم الإسلامية كلها... ثمّ لا يحصل منها في يده إلاّ روايات مقَطّعة مكرّرة، لا تخلو أحياناً من التضارب!

وقد كرهت بادي الرأي هذا الأسلوب، وكنت امرءاً لا صَبْر له على المراجعات الكثيرة، ولم يألف من الكتابة إلاّ الكتابة الأدبيّة الوصفية، ولم يُقبل على غيرها من سنين طويلة... حتى صارت هيّنة عليه، بمقدار ما رأى هذه صعبة. وقلت: كيف أحبس نفسي على كتاب واحد، وأحمل همّه أياماً طويلة، وأنا لا أحمل همّ ما أكتب ولا أفكر فيه إلاّ حين أكتب، ولا أطيق أن أعود إليه، بتصحيح أو تنقيح؟.

وإذا أنا فعلت، فكيف أجوز أصعب الشقتين، فأجمع المواد

---

(١) وقد أفردت هذا البحث بالتأليف، ولي فيه رسالة عنوانها «التحليل الأدبي»، لطلاب البكالوريا، أودعتها كتابي (فكر ومباحث).

وأفحصها وأنقحها، وأسبكها وأؤلف بينها، ثم أثبتها في الكتاب كما هي، فيأتي «آخر...» فيأخذها هيّنة ليّنة، فينشىء منها كتاباً تحليلياً، تكون فاتحته انتقاصي وذمّي، بأني لم أنشىء منها كتاباً تحليلياً...؟.

ألست إذن كمن يقطع الأحجار ويصقلها، ويعدّ الخشب وينجره، ويخط الأرض ويشقها، ويهيءُ كل لازم للدار، حتى إذا لم يبق إلاّ جمع هذا إلى ذلك، تركه ليجيء «غيره...» فيعمل منه داراً، ويغلق دونه بابها؟

وأزمعت الانصراف عن هذا العمل.

ثم بدا لي. فقلت: لا بأس. فإنه مهما يكن للأسلوب التحليلي من المزايا، ومهما يكن للأسلوب العربي من العيوب، فإن الصحة ليست في غير الأُسلوب العربيّ، وليس لأُمة من الأُمم، ما للأُمة العربية من الضبط في الرواية، والتحقيق فيها، والتثبت منها. ولا يدري أكثر من نعرف من الشبان من أمر هذه الرواية شيئاً، بل إنهم ليجهلونها مرّة واحدة، وينبزُونها حماقة وجهلاً... «بالكتب الصفراء»[1]، لما وضعوا في نفوسهم من أن الخير لا يكون خيراً لذاته، ولكن للطابع الغربيّ الذي (يشترط أن يكون) عليه... وأن الشر لا يكون شرّاً لذاته ولكن للسمة الشرقية التي يتّسم بها، فكل ما كان من الغرب فهو الخير وإن كان شراً، وكل ما كان من الشرق فهو الشرّ وإن كان خيراً.

وذكرت أن اتباع الأسلوب العربي ـ على ما سينالنا من لوم على اتباعه! ـ خير لشباننا ـ، وهم جمهرة القراء، وأجدى عليهم، وأنّ في طوق كثير من الناس، أن يكتبوا التاريخ التحليلي لأبي بكر، إذا وجدوا الصحيح من أخباره مجموعاً في كتاب واحد، ولكنه يُعجز الكثير منهم

---

(١) يعنون بالكتب الصفراء الكتب الإسلامية التي تحوي أجل تراث علمي وفيها خلاصة ما أنتجته عقول أربعة عشر قرناً، وذلك أنهم جهلوا هذه العلوم ثم لم يستروا جهلهم بسكوتهم، بل ضموا إليه الوقاحة والرقاعة والإلحاد...

أن يجمعوا هذه الروايات ويتفحصوها ويرتبوها.

فنزلت على إرادة «المكتبة العربية». وكان سبيلي في هذا الكتاب أني جمعت من أخبار أبي بكر رضي الله عنه ما وجدته في هذه الكتب التي قرأتها، وأثبت أسماءها في قائمة المصادر. ثم عارضت بعض هذه الأخبار ببعض، وتحرّيت الصحيح منها ـ على مقدار ما وهب الله لي من قوّة ـ ثم جمعت ما صحّ عندي من الروايات الكثيرة وجعلتها كالحديث الواحد، ونبّهت إلى مصدر كل رواية، ودرجة كل حديث؛ إلاّ ما لم أقف على تخريجه من الأحاديث. ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لنبّهت إلى الجزء والصفحة التي أخذت منها الخبر، ووفرت على من يريد الرجوع إلى الأصول مشقة كبيرة[1]، ولكني غفلت عن هذا الأمر، ولم أنتبه إليه إلاّ في آخر الطريق.

وقد بذلت جهدي في التثبت من النقل، والانتباه عند العزو، ولكني لا أزعم لكتابي الخلوّ من الخطأ، ولا أدّعي لنفسي العصمة من الغلط.

فإذا رضي القراء عن عملي فلّله الحمد، وإن غضبوا فما أردنا إلاّ رضاء الله وخدمة دينه، والله حسبنا ونعم الوكيل. ونسأله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به. وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليماً كثيراً.

دمشق: رجب ١٣٥٣ هـ

علي الطنطاوي

(١) وقد صنعت ذلك في كتابي عن عمر.

بين يدي الكتاب

فصل وضع في صدر الطبعة الأولى

هذه حياة فخمة... ليست حياة واحد، ولكنها حياة أمة، أمة حملت مصباح النور، حين عمّ الكونَ الظلام، وأرشدت العالم التائه في عُباب الجهل إلى شاطىء العلم، وكانت حضارتها المدرسة التي خرّجت العقل البشري وثقّفته، كما خرّجته المدرسة اليونانيّة من قبلُ وثقّفته.... فكان لها الفضل على كلّ إنسان، وكانت حضارة أساسها التوحيد والفضيلة، وأساس حضارة اليونان الشرك والرذيلة، ينسبونها إلى آلهتهم المزعومة، ويودعونها الميتولوجي التي فيها أخبارهم.

حياة أبي بكر هي الصفحة الأولى من التاريخ الإسلامي، الذي بهر كل تاريخ وبذّه، والذي لم تَخْوِ تواريخ الأمم مجتمعةً بعض ما حوى من الشرف، والمجد، والإخلاص.

ذلك لأنه تاريخ الكمال الإنساني على وجه الأرض... تاريخ المعجزة التي ظهرت في بطن مكة على يد رجلٍ واحدٍ؛ فلم تلبث حتى عمت مكة، ثمّ امتدت حتى شملت الجزيرة، ثم امتدت حتى بلغت أقصى الأرض... فكانت أكبر من الأرض، فامتدت في الزمان... وسَتَبْلى الأرض، ويفنى الزمان، والمعجزة باقية:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

ذلك لأنه تاريخ الإسلام، الذي بدا سرّه في هذه الأُمة البادية الجاهلة المتفرقة، فجعل منها أمّة لم يكن ولن يكون لها نظير... امتزجت روح الإسلام بأرواح المسلمين، وغلبت عليها، ثم استأصلت منها حبّ الدنيا، وانتزعت منها الطمع والحسد، والغشّ والكذب، وأنشأت من أصحابها قوماً هم خلاصة البشر، وغاية ما يبلغه السموّ الإنساني.

أنشأت من أصحابها قوماً يغضبون لله، ويرضون لله، ويصمتون لله وينطقون لله، قد ماتت في نفوسهم الأهواء، وبادت منها الشهوات، ولم يبق إلاّ دين يهدي، وعقل يستهدي.

قوم كان دليلهم الدين، وقانونهم هدي سيد المرسلين، وشعارهم شعارَ المساكين، وعيشهم عيشَ الزاهدين، ثم كانت فتوحهم فتوح الملوك الجبّارين، وكانوا سادة العالمين؛ لم يمنعهم زهدهم من أن يكونوا أبطال الحروب، وسادة الدنيا، ولم يفتنهم ما نالوا من مجد، وما بلغوا من جاه، عن دينهم وتقواهم.

قوم ينصب لهم أميرهم قاضياً، فيلبث سنة لا يختصم إليه اثنان![1]. ولم يكونوا ليختصموا وبين أيديهم القرآن، وكل واحد منهم يعرف ما يحقّ له، فلا يطلب أكثر منه، ويعرف ما يجب عليه، فلا يقصر في القيام به، ويحبّ أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويسعى ليسلم الناس من لسانه ويده: إذا مرض المسلم عاده المسلمون، وإذا افتقر أعانوه، وإذا أحسن شكروه، وإذا ظُلم نصروه، وإذا ظَلم ردعوه، دينهم

---

(١) الأمير أبو بكر والقاضي عمر رضي الله عنهما. وهذا مثال على أنّ في تاريخنا المثل الأعلى لكل فضيلة في التاريخ، فلا يعجبن شبابنا بأنّ سويسره قليل من يرتاد المحاكم من أهلها، ولا يروا هذا من مخترعات القرن العشرين الذي يقولون إنّه قرن النور! فإنّ المدينة قد سبقت فيه جنيف... كما سبقت في غيره، ولكن شبابنا بتاريخهم جاهلون.

نصيحة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر؛ ففيمَ يختصمون؟.

أما إنهم لا يختصمون إلاّ على مكرمة وإحسان، ولقد كان عمر يتعاهد عجوزاً عمياء، في بعض حواشي المدينة، فكان يجيئها سحراً، فيجد امرءاً قد سبقه إليها فبرّها وأحسن إليها، واستسقى لها وأصلح من أمرها، فيعجب منه ويزيد في البكور، فلا يسبقه، فرصده مرّة من أوّل الليل، حتى جاء فإذا هو أبو بكر الصديق، وهو يومئذ خليفة![1].

أبو بكر وعمر يستبقان إلى برّ عجوز عمياء، في بعض حواشي المدينة... الله أكبر! عقمت أم التاريخ أن تلد مثل هذا الخلق الذي يأتي بسيد الأمة، في ثوب خادم الأمة، حتى يفتش في الليل عن عجوز عمياء، أو رجل مقعد، أو أسرة محتاجة، أو مظلوم ضعيف، أو ظالم عاتٍ ـ ليخدم العجوز، ويحمل المقعد، ويساعد المحتاج، وينظر المظلوم، ويأخذ على يد الظالم، لا يبتغي على ذلك جزاءً ولا شكوراً، لأنه يعمل لله، ولا يرجو الثواب من غير الله.

الله أكبر! ضل قوم زعموا أن الإِسلام إنما انتشر بالسيف، لا والله! إنما انتشر بمثل هذه الأخلاق السماوية. إنما فتح المسلمون ثلاثة أرباع العالم المتمدن، بهذا الإِيمان الذي ملأ قلوبهم، وهذا النور الذي أشرق على نفوسهم، وهذه القوة التي عادت بها عليهم عقيدة التوحيد.

علموا أن الله هو الفعال لما يريد، وأنه المتصرف في جميع الأكوان، وأن كل شيء بقضاء منه وقدر، وأنهم إن غُيِّب عنهم القدر، وخفي عليهم علمه، فقد أنزل عليهم القرآن ووضح لهم سبيله. فاتبعوا القرآن ووقفوا عند أمره ونهيه فكتبوا في سجل القدر من السعداء.

---

(١) منتخب كنز العمال، قال: رواه الخطيب.

والمؤمن الذي يعلم أن الله هو الفرد الصمد الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وأنه لا يجير عليه من نبي ولا رسول ولا يشفع عنده إلاّ بإذنه، وليس بينه وبين العبد واسطة ولا نسب، ويعلم أنه يَنصُر مَن ينصره وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، هذا المؤمن لا يسأل إلاّ الله ولا يستعين إلاّ بالله، ولا يبالي بشيء إذا كان مع الله، ولا يطمع في جوار أحد إذا كان جاراً لله، ولا يحفل بالدنيا وما فيها إذا باع نفسه من الله راضياً مختاراً بأن له الجنة. . .

* * *

كانت هذه العقيدة أصل كل خير ناله المسلمون الأولون، وكان وهنها في النفوس أصل كل شرّ نال المسلمين المتأخرين، الذين أفسدوا عقيدة التوحيد بما شرعوا لأنفسهم من البدع والعقائد فتفرقوا أيدي سبأ وذلّوا في أرضهم وهوجموا في عقر دارهم. وحفظ المسلمون الأولون على هذه العقيدة صفاءها وجمالها ففتحوا ما فتحوا وكان فتحهم أعجوبة التاريخ يقف أمامها العقل خاشعاً للعظمة والجلال، حائراً للغموض والخفاء.

أمة بدوية على غاية ما تكون عليه الأمم البادية من الخلاف والجهل. لا دين يوحد قبائلها ويهذب من نفوسها، ولا جامعة تجمعها، ولا حكومة تدير أمورها. اللهمّ إلاّ حكومة في العراق تخضع لملوك العجم، وحكومة في الشام تطيع ملوك الروم. وتلبث على ذلك عصوراً. . . ثم تنهض نهضة الأسد تحمل في يمناها نور القرآن تضيء به للشعوب طريق المجد في الدنيا والسعادة في الأخرى. وفي يسراها السيف تردُّ به الضالين المعاندين المصرّين على الضلال إلى سبيل الحق والهدى.

ويبدو فيها سر الإسلام بيّناً جليّاً، فإذا هذا التفرق وهذه

الجاهلية أخوَّة في الإسلام وتمسّك بالفضائل. وإذا هذا الضعف قوَّة لا تعدلها قوَّة، وإذا هذه الحميّة الجاهلية تواضع لله ورضا بأحكامه ونزول عند أوامره ونواهيه، وإذا بدوي من بني وُهيب[١] يكون بسرً الإسلام - قائداً من أعظم قواد الدنيا. يهدُّ أقوى صرح للظلم، ويدك أكبر بنيان للجور على وجه الأرض، ويغرس في (القادسية) مكان الجبروت الفارسي بذور الحضارة الإسلامية التي نمت وأزهرت حتى أظلّت الدنيا.

وإذا بدويّ قاسٍ غليظ من بني عديّ[٢] يكون بسرّ الإسلام عظيماً من عظماء التاريخ يبرّز في العلم والسياسة والبلاغة ويكون له القِدح المُعَلّى في فنون الفكر وفنون الحرب وفنون القول، ويسوس وحده الجزيرة وسورية والعراق ومصر وإفريقية، فلا يعرف التاريخ أعدلَ ولا أقومَ ولا أفضلَ منه - حاشا رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار.

وإذا تاجر من تجار مكة[٣] يكون بسرّ الإسلام أعظم العظماء بعد الأنبياء.

* * *

هذه أعجوبة التاريخ، وهذا هو الفتح الأعظم!.

أجل! إن الفتح الإسلامي لهو الفتح الأعظم الذي لم يعرف التاريخ فتحاً مثله. وكثيرٌ هم الفاتحون الذين فتحوا بلاداً واسعة بسيوفهم وأخضعوها بجندهم، وحكموها بقوتهم وسطوتهم، ولكن ليس فيهم مثل المسلمين الذين فتحوا البلاد بإيمانهم، وفتحوا القلوب بعدلهم، وفتحوا العقول بعلمهم، فكانوا أصحاب السلطان،

---

(١) سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
(٢) عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٣) أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وكانوا دعاة الإيمان، وكانوا بُناة المجد والحضارة والعمران.

طبّقوا في القرن السابع قواعد الحرب الإنسانية ـ التي علمت بها أوروبة في القرن التاسع عشر وسعت إلى تطبيقها في القرن العشرين، فلما لم تفلح وغلبت طباعها الذئبية على إنسانيتها المصطنعة اكتفت فيها بتسطيرها في كتب الحقوق الدولية، وأخذ المجدّدين من الشرقيّين... ببريقها ولمعانها.

لقد فتحنا ثلاثة أرباع العالم المتمدن، ولكنا كنا نحمل العلم والهدى والعدل والغنى إلى البلاد التي نفتحها، وكنا لا نعمد إلى الحرب إلاّ إذا اختار أعداؤنا الحرب، وأبوا أن يلبوا داعي الله ـ ثم لا نخون ولا نغدر ولا نغل ولا نمثل ولا نقتل رسولاً ولا نهدم منزلاً ولا ننازل عُزلاً ولا نهيج معتزلاً ولا نمس عابداً متبتّلا(١).

ثم إذا صَالَحنا أعداؤنا ودخلوا في ذمتنا حميناهم مما نحمي منه أولادنا وأهلينا، وإذا أسلموا كانوا إخواننا لهم مالنا وعليهم ما علينا، لا يفرّق بين المسلمين عرق ولا لغة ولا جاه ولا نسب؛ ولا فضل لأحد على أحد إلاّ بالتقوى(٢).

فأين هذه الفتوح من فتوح الاستعمار التي أثارتها أوروبا؟ فتحنا البلاد فتركنا أهلها أحراراً في دينهم ومعابدهم، أحراراً في قضائهم ونظمهم، أحراراً في أموالهم وأولادهم، فملكنا بالعدل قلوب الناس،

---

(١) اقرأ وصية أبي بكر رضي الله عنه لأسامة وجيشه في كتاب أبي بكر الصديق.

(٢) أي أنّ الوطنية في الإسلام هي الدين، والأخوة أخوة الإسلام. أمّا هذه البدعة الجديدة، بدعة القوميات والوطنيات التي فرقوا بها بين المسلمين، وقالوا: تركي وعربي، ومصري وعراقي فليست من الإسلام في شيء. والغرب نفسه بدأ يعدل عن الجامعة القومية الضيقة إلى جامعة إيمانية واسعة، أي أنّه يرجع لقواعد الإسلام.

وأسعدناهم بالعلم، وبسطنا عليهم ظلال الأمن، ونشرنا فوقهم لواء الحضارة، حتى لقد صار أهل البلاد يستصرخون المسلمين على حكوماتهم ويبذلون لهم عونهم على ملوكهم[1]، لا بغضاً بملوكهم ولا عداء لأوطانهم ولكن حبّاً بالعدل ورغبة في الإسلام وشوقاً إلى العلم والحضارة والعمران.

فتحنا الحِيرة فأهدى أهلها طائعين مختارين هدية إلى أبي بكر فقبلها وعدها من الجزية عدلاً وتعففاً، وخشية أن يظلم أهل ذمّته أو أن يكلفهم شططاً، وتفتحون البلاد فَتَبْتَزُّون أموالها ابتزازاً، وتمتصون دماءها امتصاصاً وتمدون أيديكم إلى كل خير فيها.

هكذا كانت فتوحنا وهذه فتوحكم:

مَلكْنا فَكانَ الْعَدْلُ مِنَّا سَجِيَّةً ... فَلَمَّا مَلَكْتُمْ سالَ بِالدَّمِ أَبْطَحُ
وحَلَّلْتُمُ قَتْلُ الأُسارىٰ وَطالَمَا ... غَدَوْنَا عَلَى الأَسْرَىٰ نَمُنُّ ونَصْفَحُ
فَحَسْبُكُمُ هذا التَّفَاوُتُ بَيْنَنَا ... فَكُلُّ إناءٍ بِالَّذي فِيهِ يَنْضَحُ

* * *

ولم يظهر سر الإسلام في الفتوح وفي الخلفاء والأمراء فقط، بل لقد ظهر في المسلمين جميعاً، فجعل من نفوس النساء والعجائز

---

(١) كما وقع في حمص أثناء الفتح، وفي الأندلس من بعد: روى البلاذري في «فتوح البلدان» أنّه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج، وقالوا: قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم... فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم، فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود، وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه، وإلاّ فإنّا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد.

والأطفال مناراً يهتدي به الناس ومثلاً أعلى للنفوس الكبيرة، حتى إن أبا بكر ليقسم مالاً بين النساء ويبعث إلى عجوز من بني النجار بقسمها من هذا المال مع زيد بن ثابت فتقول:

- ما هذا؟
- فيقول: مال قسمه أبو بكر بين النساء.
- فتقول: أترشونني عن ديني؟
- فيقول: لا.
- فتقول: أتخافون أن أدع ما أنا عليه؟
- فيقول: لا.
- فتقول: والله لا آخذ منه شيئاً[1].

لا تأخذ منه شيئاً لأنها لم تسلم رغبة ولا رهبة ولكنها أسلمت لله فهي تبتغي ما عند الله.

لا تأخذ منه شيئاً لأنها لا تحب أن يدخل المال بينها وبين ربها فيشغلها عن الإخلاص لدينها، ويطمعها المال في المال فتزيد في العبادة وتبالغ في التديّن فتكون كأنما تعبدت للمال. وعقيدة التوحيد التي استقرت في نفس هذه العجوز كما استقرت في نفوس كبار الصحابة وعلمائهم تدفعها إلى أن تعمل لله وحده، وتسأل الله وحده، وتؤمن بالله وحده.

وتجتمع فئة من المسلمين معارضة تريد أن تستأثر بالحكم لأنها ترى لها فيه حقّاً ولا تقبل في ذلك هوادة، ثم يأتيها ثلاثة رجال من الفئة التي تعارضها وتجتمع لتناوئها فترجع عما اعتزمته بكلمة واحدة تبصر فيها ضياء الحق.

---

(١) ابن سعد في الطبقات.

قال عمر للأنصار يوم السقيفة:

- ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قدَّم أبا بكر للصلاة؟

- قالوا: بلى.

- قال: فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم من قدّمه رسول الله ﷺ؟

- قالوا: لا أحد!.

- ثم قاموا يبتدرون البيعة[١].

فأين هذا من منازعات الأحزاب على الحكم في الدول الراقية في القرن العشرين؟ وأين ديمقراطية أوروبا ودعواها الخلاص من الحكم الفردي من ديمقراطية المسلمين الأولين؟.

أما إن استبداد لويس الرابع عشر هو استبداد روبسپيير وهو هو استبداد هتلر، لم تنجُ أوروبا من الاستبداد في الحكم يوماً واحداً، ولم يحقق النظام البرلماني شيئاً من أمانيها الديمقراطية ومبادئها البراقة التي تخدع بها الأطفال الكبار من الشرقيين[٢].

أما نظام الحكم في الإسلام فهو النظام الديمقراطي الصحيح الذي لا يجعل من أمير المؤمنين أكثر من منفذ للقانون الإلهي الثابت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وكان المسلمون الأولون يفهمون هذا النظام أصح فهم وأجودَه، وكان العامل من عمالهم يعلم أنه إنما يسأل عن عمله بين يدي الله وإنما يقوم به لمصلحة المسلمين لا لرضاء

---

(١) رواه النسائي والحاكم وصححه.

(٢) يقول ذلك الأستاذ جيز أحد جهابذة الحقوق العامة الإفرنسية ويثبته بالحجج والأرقام، في مقال له ممتع، في الصفحة ١٦٦ من العدد الثاني من مجلة الحقوق العامة والعلم السياسي في السنة ١٩٢٧ .وهذا المقال صفعة قوية لأنصار هذا النظام.

أمير المؤمنين. وقد يبالغون في ذلك حتى إن معاذَ بن أيمن يقدم المدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ فيقول له أبو بكر: ادفع حسابك، فيقول: أحسابان: حساب من الله وحساب منكم؟ والله لا أَلي لكم عملاً أبداً[1].

ويطلب أمير المؤمنين عثمان من خازنه مالاً فيأباه عليه. فيقول: «إنما أنت خازن لنا، إذا أعطيناك فخذ وإذا سكتنا عنك فاسكت».

فيقول الخازن لأمير المؤمنين: «ما أنا لك بخازن ولا لأهل بيتك إنما أنا خازن المسلمين» ثم يجيء يوم الجمعة وأمير المؤمنين يخطب فيقول: «أيها الناس! زعم عثمان أني خازن له ولأهل بيته وإنما كنت خازناً للمسلمين وهذه مفاتيح بيت مالكم» ويرمي بها...

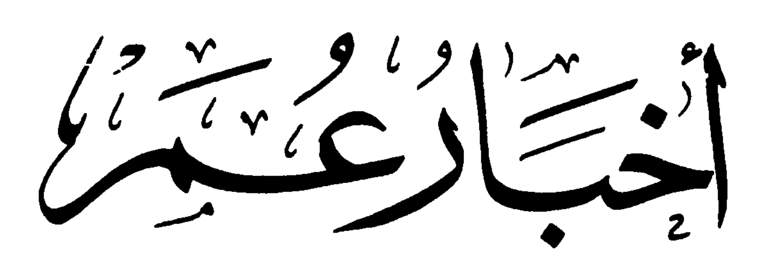
* * *

هذا هو تاريخ المعجزة التي جاء بها سيد العالمين محمد رسول الله ﷺ، وهذا هو تاريخ الإنسانية الكاملة، تاريخ المسلمين الأولين خلاصة البشرية. فطالعوه يا شبان المسلمين، وتدارسوه، واسعوا لتكتبوا هذا التاريخ مرة ثانية على صفحة الحياة... وتقولوا للعالم بأفعالكم لا بأقوالكم: نحن أبناء أولئك الآباء...

علي الطنطاوي

---

(١) عيون الأخبار.



أخبار عمر

وأخبار عبد الله بن عمر

تأليف

علي الطنطاوي

ناجي الطنطاوي

المكتب الإسلامي

مقدمة

أنا كلما ازددت اطلاعاً على أخبار عمر، زاد إكباري إياه وإعجابي به، ولقد قرأت سير آلاف العظماء من المسلمين وغير المسلمين، فوجدت فيهم من هو عظيم بفكره، ومن هو عظيم ببيانه، ومن هو عظيم بخلقه، ومن هو عظيم بآثاره.

ووجدت عمر قد جمع العظمة من أطرافها، فكان: عظيم الفكر، والأثر، والخلق، والبيان.

فإذا أحصيت عظماء الفقهاء والعلماء، ألفيت عمر في الطليعة، فلو لم يكن له إلا فقهه لكان به عظيماً.

وإن عددت الخطباء والبلغاء، كان اسم عمر من أوائل الأسماء.

وإن ذكرت عباقرة المشرعين، أو نوابغ القواد العسكريين، أو كبار الإداريين الناجحين، وجدت عمر إماماً في كل جماعة، وعظيماً في كل طائفة.

وإن استقريت العظماء الذين بنوا دولاً، وتركوا في الأرض أثراً، لم تكد تجد فيهم أجلّ من عمر.

وهو فوق ذلك عظيم في أخلاقه، عظيم في نفسه.

وكل ناحية من هذه النواحي يؤلف فيها كتب كثر لا كتاب واحد.

كتب في تحليل نفسه وأخلاقه، وبيان العوامل في تكوينها، وكتب في فتاواه وأقضيته وسبل تفكيره واستنباطه، وكتب في درس بيانه وشرح بلاغته، وكتب في أسلوبه في الإدارة، وطريقته في قيادة المعارك وتوجيه القواد، إذ كان يرسم لهم الخطط الحربية، ويقوم مقام القائد العام، للجبهات الثلاث، جبهة الشام وجبهة العراق وجبهة مصر، وهو في مكانه في المدينة.

وأنا قديم النظر في سيرة عمر، ولقد كنت ألفت أنا وأخي ناجي، كتاباً كبيراً في سيرته، وكان ذلك قبل ربع قرن، فلما رجعت إليه الآن وجدت فيه عيوباً لا يجوز معها أن يعاد طبعه، منها أن فيه أخباراً باطلة لا أصل لها، كقصته (المطوّلة) مع البطريق في الصفحة الثالثة والعشرين منه، وأخباراً ضعيفة السند، وأخباراً مكررة معادة، ووجدت في الأخبار المروية بألفاظ رواتها، ما تنبو عنه اليوم أذواق القراء وأفهامهم، من غريب اللفظ أو معقد الأسلوب، ووجدت فيه تطويلاً لا داعي إليه واستطراداً يدعو إلى الإملال ووجدت تعليقاتي عليه تعليقات الشباب فلم أرتض أكثرها، فعمدنا إلى الأخبار فأعدنا جمعها وتحقيقها، وحذفنا الباطل منها والموضوع، وأخذنا أصح ما وجدناه، لا أعني الصحة باصطلاح المحدثين، فهذا أمر بعيد المنال، ولقد تساهلوا في رواية الأخبار بما لم يتساهلوا بمثله في رواية الأحاديث، ولكن أعني الصحة على طريقة المؤرخين، ثم جئت إلى الأخبار فهذبت أسلوبها، ووضحت غامضها وطرحت من الكتاب ما هو تطويل ليس من صميم الموضوع، وقصصت الحواشي كلها ثم ألحقت به فصلاً عن (عبد الله بن عمر) كتبه أخي ناجي، فجاء كتاباً جديداً.

وسأتبعه إن شاء الله بكتاب آخر، فيه دراسة لنواحي عظمة عمر، وبحث في كل واحدة منها، فيكمل كل من الكتابين الآخر، ويجمعان القديم والحديث، فمن شاء الخبر وجد الخبر، ومن أراد البحث والتعليق وجد ما أراد.

على أن كتابنا القديم موجود، فمن آثر أن ينظر فيه على ما فيه من العيوب، التي نجد من الأمانة الإشارة إليها والتحذير منها، استطاع أن يعود إليه.

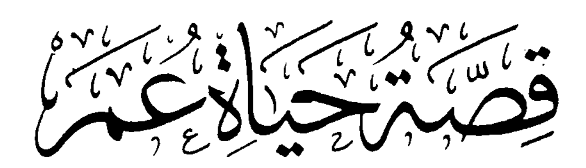
علي الطنطاوي

مستشار محكمة النقض

في الجمهورية العربية المتحدة

دمشق ٢٥ جمادي الأولى سنة ١٣٧٩

٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩٥٩



عليّ الطنطاوي

الطّبعة الثانية

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار المنارة للنشر والتوزيع هاتف: ٦٦٠٣٦٥٢ - فاكس: ٦٦٠٣٢٣٨ - المستودع: ٦٦٧٥٨٦٤
جدة ٢١٤٣١ - ص.ب: ١٢٥٠ - المملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

اشتغلت شهوراً من سنة ١٣٥٢ هجرية، بسيرة عمر بن الخطاب، أَعْكِفُ على مراجعها، وأَرْجِع إلى مصادرها، حتى مَلأَتْ نفسي، فكتبت لوحةً قلميَّةً، فيها إلمام بها شامل، وعرض لها سريع، بَدأْتُها بيوم إسلامه، لأنه اليوم الذي ولد فيه عمر العظيم، عمر التاريخ.

وقد أَلْحقتها بكتابي (عمر بن الخطاب)، الذي كان قد اقترحه عليَّ ونشره لي، الصديق العالم، الشاعر، أحمد عبيد رحمه الله، ثم نَقَضْتُ هذا الكتاب، فبدَّلت فيه وحذفت منه، وزدت عليه، فكان كتاب (أخبار عمر) الذي يتداوله الناس، وبقيت هذه المقالة مهملة، حتى قيَّض الله لها ولدي، الأستاذ محمد نادر حتاحت، صاحب دار المنارة في جدَّة، فنشرها في جزء مستقل، دعاه (قصة حياة عمر).

وهذه كلمات أكتبها لِتُنْشَر بين يدَيْها، فتكون كالمقدمة لها والمدخل إليها.

نظرتُ، فإذا القصة قد كُتبت في دمشق في منتصف المحرَّم سنة ١٣٥٢، وأنا أكتب هذه الكلمات في مكَّة، في منتصف المحرَّم سنة ١٤١٣، وبين التاريخين إحدى وستون سنة، تَبَدَّلَتْ فيها الأرض غير

الأرض، والنّاس غير النّاس، بلْ لقد تبدلت أنا نفسي، حتى كأنّي كنت غيري.

كنت ابن خمس وعشرين سنة، شاباً في قُمَّةِ الشباب، فَصِرْتُ ابن خمس وثمانين، شيخاً في حضيض الشيخوخة، وكنت فتى في ربيع العُمْر، فَصِرْتُ في الخريف منه، بل في الشتاء، وكنت قد نَسيتُ هذه المقالة، فلمّا قرأْتُها قبلَ دفْعها إلى المطبعة، رأيتُني كمن يقرأ شيئاً جديداً عليه، ليس له، وليس هو كاتبه، فأعجبتني.

ولا تعجبوا من قولي: (إنها أعجبتني)، فأنا في العادة، لا أستطيع أن أعود إلى شيء مما كنت كتبت ونشرت، وإذا عُدْت إليه وقَرَأْتُه، لم يعجبني، ولم أَرْضَ عنه، ولكني رضيت اليوم هذه المقالة، وأَحْسَسْتُ أني سَمَوْتُ إلى جَوِّهَا، وأَني عُدْتُ إلى عصر عمر، عصر العزَّة، والمجد، والعلاء، كالضّال في البَيْداء، في القَفْرة التي تتلظى من وَقْدِ الشمس، وجفاف الأرض، بين الحشرات، والهوام والوحوش، نَقَلْتَهُ إلى روضة غنّاء، فيها الشجر والماء، وعاطر الزهَر، ويانع الثمر.

عُدْتُ إلى عصر الجيل المثاليّ (كما دعاه خالي مُحبُّ الدين الخطيب رحمه الله)، الجيل الذي لم تَرَ البشريةُ، ولا أظنها سترىٰ مثله أبداً، وأَنا أُحِسُّ دائماً عَظَمَةَ هذا الجيل، ولقد كتبت في تمجيده آلاف الصفحات، آلاف حقاً، ولكنها تزداد اليوم بهاءً وسموّاً، حين أَضَعها إلى جَنْب حالنا معشر المسلمين اليوم.

لقد كان البَوْنُ بين ما كنّا فيه، وما انتهينا إليه بعيداً، فازداد اليوم بُعْداً، كُنّا نحمل المصاحف بأَيْماننا، والسيوف بشمائلنا، وأَذَّنَ في الناس مؤذنٌ منّا: من كان يريد الهداية والفلاح، ويريد السعادة في الدارين، فالقرآن هو الدليل الموصلُ إلى ما يريد، ومن أبىٰ وآثر العمىٰ على الهدىٰ، فإنّ السيف دواؤه، وفيه شفاؤه.

فكنّا بذلك أساتذة الدنيا، وكنّا نحن سادتها، تهاوت على أقدامنا تيجان الجبّارين، ودُكَّتْ بأَيْدينا عروش الظالمين، وخضعت للحقِّ الذي نحمله أَعناق الطاغين، فماذا كان حتىٰ حالَتْ بنا الحال، وضلَّ عنّا المجد الذي كان يمشي في ركابنا، فتطاولت علينا أَخَسُّ الأُمم، فاستباحت ديارنا، وعَدَتْ علينا، ثم بَلَغَ بنا الهوان، أَنْ تجَرأ علينا من أقوام أوربا، من ليس في العير ولا في النفير، من ليس له من حضارة أوربا وعلمها إلاّ أنّهُ مُقيمٌ فيها، كما تُقيم الحشرات والجرذان في البيوت مع السكان.

أولئك هم الصِّرْب. متىٰ كان الصِّربُ من كرام الناس؟ ومتى كان شعبهم من الشعوب الحيَّة الكريمة؟ وأيُّ تاريخٍ نبيل هو لهم؟ وأيّ مجدٍ هو مجدهم؟ حتى هؤلاء يتجرؤون على المسلمين، يُذبّحون أبناءهم، ويُدنِّسون نساءهم، ويَجْتاحون أرضهم وبلادهم.

أيا عجباً، حتىٰ كُليبٌ تَسبُّني؟ كأنّ أباها نَهْشَلٌ وَمُجَاشِعُ

* * *

العزَّة لله، ولرسوله، وللمؤمنين، فما بالنا نرىٰ المسلمين في كلّ أرض يَذِلُّون، ويُعتدىٰ عليهم؟ ما بالهم لا يجدون لهم نصيراً؟ إنّ الله وعَدَ المسلمين النَّصر، فما بالُنا لا ينصرنا الله؟ ونحن ندعو على المنابر كل جمعة: (اللهمَّ أعزَّ الإسلام والمسلمين)، ونحن ندعو علىٰ الكفار: (أن يُشَتِّتَ الله شملهم، ويُفَرِّقَ جمعهم، وأن يجعل تدميرهم في تدبيرهم)، أَلِأنّنا ندعو عليهم ونحن نَتْبعُ خُطواتهم؟ ونترك أحكام شرعنا ونقتدي بهم؟ ندعو ونحن قاعدون والرسول ﷺ، يوم بَدْرٍ أعدَّ الجيش وصفَّ الجند، وهيّأَ كُلَّ وسيلة للنصر، ثم دعا حتىٰ سقط رداؤه عن منكبه، وكذلك يكون دعاء المسلم.

الله ربط نَصْرَه إيّانا، بِنُصْرَتِنا شرعه ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾، فهل نصرناه حتى ينصرنا؟ هل كنّا معه في الرّخاء، حتىٰ يكون معنا في

الشدَّة؟ هل عرفنا للمسلمين المُعذَّبين في البوسنة (البُشْناق)، والمسلمين الجائعين في الصومال، والمسلمين المُحارَبين، في كلّ أرضٍ، لمجرَّدِ أنَّهم يقولون: (ربنا الله)، هل عرفنا لهم حقَّ الأُخُوَّة بيننا وبينهم؟ الأُخوَّةِ التي عقدتها يَدُ الله حين قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾؟ أمْ نحن نلهو، ونلعب، وإخواننا يُقتَّلون؟ ونحن نشتغل بالعبث، وهم تستباح أرضهم، وديارهم، وتُهرق بسيف البَغْي والعدوان دماؤهم.

ما لنا نبتغي عندهم العزَّة، وننسىٰ أن العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين؟ أمْ نحن نخشاهم؟ فالله أَحقُّ أنْ نخشاه إن كنّا مؤمنين. إنَّ ما عندهم من القوَّة زائل، وما عند الله باقٍ، أفَلاَ نطلب ما يبقى ونُؤْثره على ما يزول؟ أنسينا أنَّ الدَّهْر دولاب، وأنَّه يَنْزِلُ الذي هو فَوْق، ويَعْلو الذي هو تحت؟ فما بالنا نَيْأَس من نصر الله؟

لقد أرانا الله رأْيَ العين، ما لم نكن نظنُّ أن نتصوره بالخيال. لقد صار حقيقة ما كنا نَحْسَبُه كالمستحيل.

كانت بلاد الشرق كلها مستعمرةً لأوربا. حتى الدول الصغار فيها، كانت تملك من أرض الشرق ما هو أكبر منها أضعافاً.

أما كانت بلجيكا تحتلُّ الكونغو؟ أما كانت هولندا تحكم أندونيسيا؟ ضفدع يبتلع فيلاً!...

كان العالم إلى عهد قريب تتقاسمه كتلتان، فمحا الله إحدى الكتلتين، وترك الأخرى إلىٰ أجلٍ مسمّىٰ، تركها ينخرها السُّوسُ من الداخل لتموت وهي قائمة!...

من كان يظن أَنَّ الاتحاد السُّوفييتي سيذهب من الوجود؟ من كان يُصدِّقُ أَنَّه سيُهدم بأيدي أبنائه؟ ومِنْ قبلُ، من كان يُرْقُب أنْ يخرج الإنكليز من الهند دُرَّةِ التاج البريطاني؟ فذهب التاج وعادت الدُّرَّة إلى أصحابها.

لقد شغل المؤرخين زمناً انهيار دولة روما، ولكنَّ انهيار الاتحاد السُّوفييتي أكبر وأعجب، لأنه أكبر وأقوىٰ من روما، ومن كل دولة كانت معها، أو تقدمت عنها.

من كان يُصدق أنَّ قوماً لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، أعجزوا أمريكا، بمجرد أنّ لديهم إيماناً؟ ولو كان إيماناً بالجبت والطاغوت، لأن الإيمان في ذاته قوة.

أو أن شعباً مؤمناً حقاً، يُؤمن بالله، وبرسله، وكتبه، يَقْوىٰ على القُوَّة الثانية، علىٰ السُّوفييت، أيام مجدهم، وسلطانهم؟

أو أنَّ رجلاً نصف مَيِّت، ما فيه حيٌّ إلا رأسه، يُؤلِّفُ في فلسطين، القوَّة المُجاهدة حقاً (قوَّة حماس)؟ وأنَّ أولاداً ما معهم إلا حجارة أرضهم، وقوَّةُ سواعدهم، يقفون في وجه دولة إسرائيل؟ وما لدولة إسرائيل شأنٌ في ذاتها، ولكنَّ قوَّتها بقوَّة الذين يُظاهرونها ويُؤيِّدونها، ويُمِدُّونها بالسلاح وبالمال.

كان المسلمون في بَدْرٍ ثلاثمائة رجل، فوضعوا الأساس الراسخ للجيش الإسلامي الذي فتح بالحقِّ، ثُلُثَ المسكون من الأرض، في ثلث قَرْن، فصاروا اليوم ألف مليون، ولكنهم كما خبَّر الرسول الصادق الأمين، غُثاءٌ كغُثَاءِ السَّيْل. كانوا يحرصون على الموت في سبيل الله، كحرص أعدائهم علىٰ الحياة. كان الموت في سبيل الله أسمىٰ أمانينا، فصار أَكْرَهَ شيء إلينا. كان بَأْسُنا على عدوِّنا، فصار بَأْسُنا بيننا. والَيْنا حزب الشيطان، شياطين الإنس. أفما لهذا الليل من نهاية؟ بلىٰ، وكل شيء في الدنيا له نهاية.

إن الليل ينتهي إذا أَذَّن الفجر، فحينما يُؤَذِّن المؤذِّن بيننا صادقاً، ونسمعه صادقين، نتدبر ما يقول، ونعمل بما نسمع، ونجعله دستور

حياتنا، الله أكبر، لا إله إلا الله، يكون قد طلع الفجر، وانتهى الليل، وجاء نصر الله والفتح.

فيا أيها القرّاء، إن الذي نصر أجدادكم، هو الله الذي ينصركم، فهل تريدون أن تنتصروا؟ فاذكروا إِذَنْ قانون الله الذي وضعه في الوجود، وهو أنّه ينصر من يُحكِّم شرعه، ويُقيم شعائره، ولا يَعْدل عن حكمه ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

ما لي؟ لقد جانَبْتُ طريقي، وبَعُدْتُ عنه.

إني كنت أكتُب عن عمر، وعن عهد عمر، عهد العزَّة والنُّور، فما لي أَصِفُ عهد المذلَّة والظلام؟ مالي أَوْغَلْتُ في الكلام على ظُلمة الليل البهيم، وأنا إنّما بَدأت الكلام عن الضحى المشرق، عن النهار المضيء.

الرسول عليه الصلاة والسلام شبَّه المسلمين بالجسد الواحد، إذا تألَّم عضو منه، تداعىٰ له سائر الجسد بالحمّىٰ والسَّهَر. إننا نسمع هذا الكلام دائماً، يُرَدِّدُهُ الخطباء، والمدرسون، والواعظون، ونحن نَتْلو قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، ثم نرى المسلمين يُقتَّلون، ويُذبَّحون، ويُعتدىٰ على أعراض نسائهم، ويؤخذ أطفالهم من بين أيديهم ليُنشَّؤوا على الكفر، فيكون منهم (أيْ من أبنائنا) من هو عدوٌّ لنا، كافر بديننا، يعين خصومنا علينا.

أما والله لا طريق للنجاة إلا بالعودة إلى الله. لقد سُدَّت في وجوهنا طرق الأرض كلّها، ولم يَبْق مفتوحاً إلا طريق السماء، فعودوا إلى الله يَعُدْ لكم نصر الله، وأعدّوا لعدوِّكم ما استطعتم من القوَّة، ومن العتاد. إنكم تتلون قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، وقد جاءت كلمة (قُوَّة) مُنكَّرةً لتشمل كل ما يُتقوى به على العدوّ، لكن

فكِّروا معي، لماذا نُعِدُّ هذه القوَّة؟ للنصر؟ لا، بل لمجرد الإرهاب، ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

الله أَنزل ملائكة تُقاتل مع المسلمين، فلماذا أنزل الله الملائكة؟ للنصر؟ لا، بل جعله الله بشرى ولتطمئنَّ به القلوب ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

فيا أيها المسلمون: عودوا إلى الله يَعُدْ لكم النصر، عودوا إلى الله بالعمل، لا بمجرد القول، عودوا إلى الله في أنفسكم وفي أُسركم وفي جماعاتكم، وفي حربكم وفي سِلْمِكم فإنَّه لا يأتيكم النصر إلاّ من عند الله.

* * *

وبعدُ، فإنَّ أبردَ ساعة في ليل الشتاء الساعة التي تسبق بزوغ الشمس، فإذا طلعت نَسِيَ الناس من دفئها ما قاسوا من البرد. وأشدَّ ما تكون الظُّلمة إذا دنا الفجر، وكلَّما اشتدَّ الضِّيق واستحكمت حلقاته فَأَمِّلِ الفرجَ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾.

اشتدّي أَزمةُ تَنفرجي قد آذَنَ صُبْحُكِ بالبَلَجِ

وقد أَطَلْت في وصف ما نحن فيه لِأُحِسَّ بعظمة عصر عمر، حين نعود لقراءة هذه الرسالة عن عهد عمر، فلا يَخْلو حديث الصِّحة إلاً عند ذكر المرض، فاقرؤوا هذه الصفحة عن حياة عمر، واعلموا أنَّ المدرسة التي تخرّج فيها عمر (مدرسة محمد) لا تزال مفتوحة، والطريق الذي مشى فيه عمر لا يزال لاحِباً مَسْلوكاً، والنِّبراس الذي استضاء به عمر لا يزال مُشتعلاً مُضيئاً، فاهتدوا به يَهدِكُم إلىٰ عِزِّ الدنيا، وإلىٰ نعيم الجنَّة في الآخرة.

منتصف المحرم ١٤١٣

علي الطنطاوي



علي الطنطاوي

طبعة جديدة ، منقحة ومزيدة

دار المنارة
جدة

بين يدي الطبعة السابعة

كلُّ ما في هذا الكتاب بقية من أحاديث كانت تذاع لي من دمشق قبل أكثر من خمس وثلاثين سنة. استمرّت إذاعتها أعواماً، وتعبت في إعدادها كثيراً، واستمتع بها واستفاد منها (من السامعين) كثير. بلغت ثلاثمئة حديث أو تزيد، ضاعت فيما ضاع مما كتبت، وأرجو ألاّ يضيع عند الله ثوابها، إن كتب الله لي بكرمه الثواب عليها.

كنت إذا أردت الحديث عن رجل، قرأت كل ما تصل إليه يدي مما كتب عنه، وقيّدت في ورقة ما أختار من أخباره، وربما بلغ ما أقرؤه عنه عشرات أو مئات من الصفحات، ثمَّ أعمد إلى خبر منها، فأجعله مدخلاً إليها، وأحاول ما استطعت أن اتبع فيها أسلوباً ينأى بي عن جفاف السرد التاريخي، ويخلص من تخيُّل الكاتب في القصة الأدبية، لعلي أصل إلى الجمع بين صدق التاريخ وجمال الأدب، فأوفق حيناً، ويجانبني حيناً التوفيق.

وكنت كلّما أعددت (حديثاً) عن رجل من الرجال، فتح لي الباب للكلام على أقرانه وأمثاله، فحديث عن صلاح الدين يجر إلى آخر عن نور الدين، وحديث عن أبي حنيفة يدفعني إلى آخر عن مالك، ولو أني استمررت أحدث عن أبطالنا وعظمائنا خمسين سنة، في كل أسبوع حديثاً، وجاء مئة مثلي يصنعون مثل صنعي، لما نفدت أحاديث هؤلاء العظماء الأبطال. وأنا لست من المولعين بجمع الكتب، ورصِّها في

الخزائن، لأُزهى بها، وأفخر بكثرتها، ولا أقتني إلاّ الكتاب الذي أحتاج إليه، أرجو النفع به، أو المتعة بقراءته، وقد اجتمع لي (على هذا) في مكتبتي الصغيرة، هنا وفي دمشق، أكثر من تسعين مجلدة في تراجم الرجال والنساء، فلو أنَّ في كل واحدة منها سيرة مئة منهم، لكان من ذلك تسعة آلاف من سِيَر العظماء.

ومن نظر في مقدمة الطبعة الثانية من كتابي (قصص من التاريخ) لقرأ فيها هذه الفقرة التي أعيد نشرها هنا بعد كتابتها بنحو نصف قرن، قلت فيها:

إن في كتب التاريخ والأدب، والمحاضرات والرحلات، آلافاً من سِيَر العظماء ليست في كتب التراجم على كثرتها.

من ذلك أنني كنت أتسلَّى مرة بالنظر في (رحلة ابن بطوطة) فاستخلصت منها تراجم كثيرين، منهم السلطان المسلم العادل طرمشيرين من حَفَدَة جنكيز خان المسلمين، وكان يحكم مملكة واسعة المدى، مترامية الأطراف، كثيرة الجيوش، واسعة الخيرات. فهل سمعتم باسم طرمشيرين؟ وهل سمعتم بمن حكم روسية من ملوك المسلمين، وكان لهم فيها حكومة عظيمة القدر، عاشت حيناً من الدهر، كانت تسمى دولة البلغار، وكانت عاصمتها بقرب «ستالينغراد»؟

ولن أسرد عليكم كل ما قلت فيها، فارجعوا إن شئتم إليه، واطّلعوا عليه.

ولمّا كتب لي أن أزور القارة الهندية، وأندونيسيا، رأيت للمسلمين فيها تاريخاً ما كنت أعرفه، ولا كان ممّا يدرس في المدارس، ولا ممّا يوجد في الكتب التي اطّلعنا عليها. تاريخاً ينتظر الباحث المخلص الذي يحيط به، والقلم البليغ الذي يكتبه، وفي هذا الكتاب مثال صغير عليه في سيرة: أورنك زيب (ص ٢٢٧)، والملك الصالح (٢٣٩)، وسلطانة

الهند (٢٥٥)، ومن نظر في كتابي عن أندونيسيا، وقرأ قصة دخول الإسلام إليها، لرأى فيها شاهداً آخر على ما أقول.

* * *

والعجب ممن يزعم أنَّ الإسلام إنما انتشر بالسيف، هل كان مع الرسول ﷺ في مكة سيف؟ والمجتمع الإسلامي الأول، الذي كان فيه مع محمد أبو بكر وعلي وخديجة وسلمان وصهيب وبلال، وآخرون ممن شرَّفهم الله بالسبق إلى الإسلام، هل كان معهم سيف؟!

هل تنبَّهتم إلى أسمائهم؟ هل أدركتم الرمز الذي تشير إليه؟ لقد مُثِّل فيه الرجال بأبي بكر، والنساء بخديجة، والأولاد بعلي، وهل المجتمعات إلاَّ رجال ونساء وأولاد؟ ومُثِّل فيه العرب بهؤلاء، والفرس بسلمان، والحبشة ببلال، والروم بصهيب، وهؤلاء هم قطَّان هذه البقعة من الأرض.

الإسلام انتشر بالسيف! إنَّها دعوى بلا دليل، والدليل القائم، عليها لا معها. انشروا مصوّر العالم الإسلامي وانظروا، هل البلاد التي دخل إليها الإسلام عن طريق الفتح أكبر وأوسع وأكثر سكاناً، أم البلاد التي دخلها بعد انقضاء عهد الفتوح، وانطواء راياته، ولا يزال يدخل إلى اليوم بلاداً جديدة؟

هل وصلت الفتوح إلى أندونيسيا وماليزيا وأواسط إفريقية؟ وهل بلغت كوريا واليابان، أم انتشر فيها الإسلام وحده؟

وهل أكره الفاتحون الأوَّلون أحداً على الإسلام؟ لقد عرف التاريخ قواداً فاتحين، كالإسكندر، وجنكيز، وبونابرت، وهتلر، وأمثالٍ لهم كثير، فأين الآن ما فتحوه؟

لقد كان زيتاً صببته على ماء، وهززته هزاً حتى حسبته قد مازجه

وخالطه وصار معه سائلاً واحداً، فلمّا بطل الهز عاد الزيت زيتاً والماء ماء. بقي في البلاد غالبون ومغلوبون، مفتوحة بلادهم وفاتحون.

أمّا الفتح الإسلامي فقد كان كاختلاط الماء بالخل، صُبَّ ماءً على الخل، ثمّ انظر هل تقدر أن تفصل الخلَّ عن الماء؟ هذه الشام ومصر والعراق والبلاد التي بلغها الفتح هل تميِّز فيها الآن أبناء الجند الفاتحين، من أبناء البلاد الأولين؟

لقد جعلهم الإسلام أمة واحدة، ليست أمة العرب، ولا أمة الفرس، ولا أمة الترك، ولكن أمة محمد ﷺ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

الإسلام انتشر بالسيف! إنَّها مقالة جاهل بالطبع البشري، على قائلها أن يخجل منها وأن يتوارى بها.

إنَّ الإسلام عقيدة، والعقيدة مزيج من عقل وعاطفة، فمن سمع أنَّ العاطفة تَجيء بالقوة والبطش؟ إذا فَرَكَتك امرأتك (أي كرهتك) فهل تحمل العصا فتقول لها إما أن تحبيني وإما أن أكسر أضلاعك؟ وهل تحسبها تحبك بالإكراه؟ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾. لقد عرف التاريخ حكاماً طغاة جبارين، يُكرهون الناس حتى يكونوا لهم تابعين طائعين، يخضعون أجسادهم وجوارحهم حتى يعملوا لهم ما يريدون، ولكن هل يستطيعون إخضاع قلوبهم، حتى تمتلىء بحبهم؟ وعقولهم حتى ترى الحق معهم؟

أقمت في أندونيسيا شهراً، نهاري فيه مع العلماء والأدباء، وسهري في المحاضرات والندوات، زرت الجامعات والمكتبات، ووقفت في آخر جزيرة «جاوه» على قبر الرجل الذي حمل الإسلام إلى هذه البلاد واسمه إبراهيم، وهم يعظِّمونه فيقولون: (سلطان إبراهيم).

فمن إبراهيم هذا؟ ما وجدت ممَّن لقيت من الناس، ولا فيما قرأت من الكتب من عرف من هو ولا من أين جاء. فكيف إذن دخلت

هذه البلاد في الإسلام، حتى صار فيها اليوم دولة سكانها اليوم مئة وخمسون مليوناً، كلهم مسلم بالقيد الرسمي، مسلم بالإحصاء الجغرافي، نسأل الله أن يخلِّصها من مكر الملحدين، والبانجاسيلا (المبادىء الخمسة) التي جاؤوا بها بدلاً من الأركان الخمسة للدين، ومن كيد المكفِّرين المنفِّرين المنصِّرين الذي يدعون افتراء بالمبشِّرين.

إنَّ في تاريخ الإسلام في أندونيسا رجالاً أبطالاً، ما تعرفونهم ولا سمعتم بهم.

إن عنوان (رجال من التاريخ) يمكن أن يجتمع تحته كتاب من خمسمئة مجلد. نعم وأكثر من ذلك، لا أبالغ، ولا ألقي القول جزافاً، صدِّقوني.

إن تاريخنا أعظم تاريخ، ولكننا أمَّة تجهل تاريخها. هذا التاريخ الذي ليس لأمة مثله، هذا التاريخ الذي يفيض بالحب والنبل والتضحية والبطولة والإيمان.

ولست أعني التاريخ السياسي وحده، بل التاريخ العلمي أولاً. تاريخ القوم الذين باعوا نفوسهم مجاهدين في ميدان الطروس، بأسنَّة الأقلام، وهجروا لذلك لذائذهم، ونسوا حاجات بطونهم وغرائزهم، واطَّرحوا رغبات الغنى والجاه، وكل ما يتزاحم عليه الناس، واستهانوا في سبيله بكل صعب، حتى إنَّهم كانوا يرحلون الإبلَ أربعين ليلة من مشرق الأرض من خراسان، أو من مغربها في الأندلس، إلى مكة أو المدينة أو الشام أو مصر أو بغداد، في طلب مسألة مفردة، أو حديث واحد. أحرقوا أدمغتهم فجعلوها مشاعل للقرون الآتيات، فسارت البشرية على ضوئها. كانوا في عصرِ الحُكمُ فيه حكم مطلق، وكانت حياة الناس معلَّقة بكلمة ينطق بها الحاكم، فاستطاعوا أن يجعلوا لأنفسهم بإيمانهم وعدالتهم وأخلاقهم حصانة دونها الحصانة التي يعتز بها القضاة ويكفلها

لهم القانون الآن[١]. تاريخ المجاهدين الذين خرجوا من بيوتهم، وفارقوا أهليهم وخلّفوا دنياهم وراء ظهرانيهم، أداء لحقّ الله وإعلاء لكلمة الله. ما كانوا عادين ولا باغين، ما كانت حربهم حرباً هجومية ولا حرباً دفاعية كما نفهم اليوم من كلمة الدفاع، فما كانت دفاعاً عن أرض ولا احتل الفرس أو الروم المدينة أو مكة، فنهدنا[٢] ندافع عنها، إنّما هي حرب دفاع عن العقيدة.

أرأيتم الجائعين في أفريقية، الذين تسمعون أنباءهم في الإذاعات، وتقرؤونها في الجرائد... إذا جاء من يحمل إليهم الماء والغذاء والدواء، وما يدفع عنهم البلاء، فوقف ظالم في طريقه يمنعه أن يوصل ذلك إليهم، يريد أن يميتهم في دورهم حتى تصير هي قبورهم.

ألا تقاتله؟

هذا ما صنع المسلمون المجاهدون. نزل عليهم المصباح الهادي في (حِرَاء) والدنيا تتخبط في الظلماء، فحملناه لينير لهم طريقهم، فاعترضنا من يمنعنا.

قلنا: تعَالَ فاحمل النور معنا، تكن منّا، لك ما لنا وعليك ما علينا. قال: لا.

قلنا: فَدعْنا نمرُّ ونحن نحميك من عدوِّك، ونرد عنك من يعتدي عليك، ونبذل نحن أرواحنا دونك، لا نريد منك إلاَّ أجرة يسيرة من مالك، مقابل ما نبذل من دمائنا، قال: لا.

فما الذي نصنعه معه إلاَّ أن نقاتله؟ هذا هو الجهاد.

---

(١) فقرة من مقدمة (قصص من التاريخ).

(٢) نهد أي نهض.

إنَّ تاريخنا السياسي أنظف من كل ما يماثله من تواريخ الأمم، ولكنه (على ذلك) لا يخلو من أمور لا يحسن أن ننشىء عليها أولادنا، أمور تقتضيها طبيعة البشر الذين يخطئون ويصيبون، ويحسنون ويسيئون، ليسوا ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

حتى المجتمع الذي كان أسمى مجتمع بشري، الذي كان (ظاهرة) لم تُسْبق ولم تتكرر، مجتمع الصحابة لم يَخْلُ من منازعات ومصادمات لم يتعمدها الصحابة، ولكن من دسّ الدسائس بينهم، وفرّق بالكذب جمعهم. فلماذا ندرسها لأولادنا؟ لماذا، وقد كره علماؤنا الخوض فيها؟ وكيف نسمح لمدرس غرّ قد يكون قليل الدين، أن يقيم من نفسه حكماً بين عائشة أم المؤمنين وعلي أمير المؤمنين؟

تقولون: ما الحل؟ لقد بَصُرت بالحل أيام الوحدة لمّا كنت قاضي دمشق، ورئيس عمدة المدارس الشرعية التي تديرها الأوقاف[١]، وكتبت بذلك إلى الوزير[٢]، فكلفني وضع مناهج جديدة لهذه المدارس، فوضعتها وأحدثت فيها أموراً، كان منها: أني رفعت من المنهج التاريخ السياسي ووضعت مكانه مادة سميتها (أعلام الإسلام). ندرس فيها مناقب العظماء، ونكشف عن مواطن العظمة فيهم، وأمضى الوزير ما اقترحت، وأحسب أنه لا يزال باقياً إلى الآن.

أنا مدمن القراءة، يومي كله إلاّ ساعات العمل، أمضيه في المطالعة ومحادثة الكتب. من يوم أتقنت القراءة، قبل سبعين سنة، وأنا أقرأ. وأكثر ما أولعت به التاريخ. وذلك بعد إقامة لساني بتعلم العربية، وضمان آخرتي (وما تُضْمن إلاّ برحمة منه) بمعرفة الشرع. فأنا أقرأ كل

---

(١) أي رئيس مجلسها الأعلى.

(٢) عبد الحميد السراج.

ما أصل إليه من تواريخ العرب وغيرهم، ومن المذكِّرات والرحلات والمشاهدات، ولقد كتبت كتاب (قصص من التاريخ) وما ضمّ كل ما كتبت، و(رجال من التاريخ) و (حكايات من التاريخ) التي حسب قوم أني كتبتها للأطفال فعدُّوها من أدب الأطفال، مع أني لم أكتبها لهم، وأسلوبها يعلو (كثيراً) عن أفهامهم.

بدأت بهذه الأنواع كلِّها من سنة **١٩٣٠**، من حين كنت (محرراً) في جريدة (فتى العرب). بل لقد بدأت في الفتح والزهراء سنة **١٣٤٧** هـ. وهذا الكتاب ثمرة باقية، مما فقد.

وهذه هي الطبعة السابعة (الشرعية) لهذا الكتاب. أمَّا الطبعات المسروقة فلا أحصيها. ومن اقترفها فسيجد عند الله حسابها.

وقد وقفت أنا على طبعها، وعدّلت فيها، وزدت عليها شيئاً لم ينشر من قبل في مجلة ولا صحيفة ولا كتاب، بل لم يذع من الإذاعة، لأنه لم يكمل وقد آثرت أن أنشره ناقصاً قبل أن يضيع.

وليس لأحد في هذا الكتاب ولا في غيره من كتبي حق من حقوق الطبع، ومن ادَّعى ذلك كان كاذباً.

وكل طبعة آذن بها ويمر عليها الوقت الذي تنفد فيه عادة وعرفاً يسقط حق المأذون له فيها. أقول هذا لِمَا فشا من عدوان بعض الناشرين على المؤلفين، لا يردعهم عنه الدين، ولا الخلق المتين، حتى صار همهم دنياهم لا يفكرون إلاَّ فيها، ولا يحرصون إلاَّ عليها. يلبسون للمؤلف عندما يَلْقَوْنه جلد الحمل الوديع، فإذا صار الكتاب في أيديهم، خلعوه فبدا من تحته شعر الذئب الكاسر. وهذه تذكرة لمن شاء أن يذّكر، ما سميت فيها أحداً ولا أشرت إلى أحد.

أما أنا فإن خسرت بهذا العدوان بعض المال فقد أبقى الله لي منه

ما يكفيني، وسآخذ حقي يوم أكون محتاجاً إليه، لا من ريالات المعتدي ودولاراته، بل من حسناته التي هي وحدها الطريق يومئذ إلى نجاته.

نسأل الله أن يحيي قلوبنا، حتى نراقب ربنا، ونذكر آخرتنا، وأن يهدينا جميعاً: الناشرين والمؤلفين.

أمّا (دار المنارة) التي تنشر هذا الكتاب اليوم، فهي منّي ليست غريبة عني، وصاحبها ديِّن أمين على حين قلَّت في الناس الأمانة، وأنا لا أزكّيه على الله ولكن أزكّيه للناس. وأنا أعلم أنّ هذه التزكية شهادة أنا مسؤول عنها.

أمّا جَوْدَة الطبع ونفاسة الورق وحسن الإخراج فإنك تراه أمامك.

وبعد: فما أردتها مقدمة للكتاب، ولكن تعريفاً بهذه الطبعة استرسل فيه القلم، وانبسط المجال فطال المقال.

مكة المكرمة رجب ١٤٠٥.

علي الطنطاوي

علي الطنطاوي



دار المنارة
جدة - السعودية

مُقدّمة الطبعة الخامسة[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله.

هذه طبعة جديدة من الكتاب الذي أكاد أفضِّله على سائر كتبي، إذ عرضت فيه صوراً من أجمل صفحات التاريخ، أبقيتُ على جوهرها التاريخي، وأعملت قلمي في (الأعراض) والتفاصيل، فما جعلتها تاريخاً التزمت فيه بالواقع، ولا أدباً خالصاً أصدر فيه عن الخيال وحده.

ولقد طبع مرات، ولكن هذه هي الطبعة الأولى التي تصدرها (دار المنارة) التي أخصُّها منذ اليوم بنشر كتبي وما أذمُّ من نشر لي قبلها، وأفرد بالثناء ولدي الأستاذ (زهير الشاويش) و(المكتب الإسلامي) وولدي الأستاذ (عدنان سالم) و(دار الفكر).

وأسأل الله أن يكتب لي ولكل من نشر لي الثواب، وأن ينفع الله الناس بهذا الكتاب.

مكة المكرمة

غرة سنة ١٤١١

علي الطنطاوي

(١) صدرت عن دار المنارة سنة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

بين يدي الكتاب

لم تكتب هذه الفصول في يوم واحد، بل كتبت في أزمان متباعدات[1]، لذلك كان ما ترون من الاختلاف بين أساليبها، ولم أتعمد أن أجعلها قصصاً كما جاء في عنوان الكتاب، ولم أتقيّد بقيود القصة، وأقفْ عند حدودها، بل كنت آخذ الخبر أقعُ عليه، فأديره في ذهني، وأتصور تفاصيله، ثم أحاول أن أعرضه موسعاً واضحاً، فكان يقترب من القصة حيناً، ويكون أشبه بالعرض (الريبورتاج) حيناً، وربما غلبت عليَّ الرغبة في التحليل النفسي فأطيل، وربما وقفت عند الحقائق فأقصر، ولو رجعتم إلى أصول هذه الفصول في التاريخ لوجدتم أن أكثرها لا يجاوز بضعة أسطر، جاءت متوارية في حاشية من الحواشي، أو زاوية من الزوايا، لا يتنبه إليها القارىء، ولا يقف عليها، وليست أجمل ما في تاريخنا، ولا هي من أجمل ما فيه، وإنما هي أخبار عادية، استطاع هذا

---

(١) نشر الكتاب أول مرة سنة ١٩٣٩ م باسم «من التاريخ الإسلامي». أما القصص فقد كتب كثير منها ما بين ١٩٢٩ م و ١٩٣٦ م، وفي بعضها أثر من أساليب من كنت مولعاً بهم يومئذ من الأدباء، ففي قصص الحجاج (هجرة معلم، وليلة الوداع، ويوم اللقاء) أثر من أسلوب معروف الأرناؤوط، وفي قصة (عالم) أثر من أسلوب الرافعي، وسائرها مكتوب بأسلوبي. وقد كتب النقاد عن الكتاب فصولاً كثيرة أجمعها وأوسعها ما تفضل به الأستاذ شاكر مصطفى في كتابه «القصة في سوريا»، والأستاذ أنور الجندي.

القلم (على ضعفه وعجزه) أن يعرضها على الناس شيئاً جديداً أو هو كالجديد، فكيف إذا تولاها قلم أقوى من هذا القلم؟ وكيف إذا اختار لها مشاهد من التاريخ أعظم من هذه المشاهد؟

وإذا كان أصل هذا الكتاب الذي تفرع عنه، وأساسه الذي بني عليه، بضع صفحات من هذا التاريخ العظيم، فكم صورة رائعة، وكم قصة بارعة، وكم من الآثار الأدبية الخالدة، يمكن أن يستخرج من صفحاته كلها؟

أما إن ذلك ليزيد عن العد ويجل عن الحسبان، ولكن أدباءنا لم يردوا هذا المورد.

* * *

على أن هذا أسلوب من أساليب عرض التاريخ بقلم الأديب، وفي كتابي (رجال من التاريخ)[1] أسلوب آخر، وفي (على هامش السيرة) لطه حسين، وفي (وحي القلم) للرافعي، وفي (سيد قريش) لمعروف الأرناؤوط، و (محمد) لتوفيق الحكيم، و(في منزل الوحي) لهيكل، أساليب غير ذلك.

ولو أن كل كاتب وأديب، أخذ من تاريخنا على مقدار طاقته، وعلى أسلوبه وطريقته، ولو بلغ ما أخذ منه، وصدر عنه، ألف كتاب، لما نقص من كنوز تاريخنا شيء.

ولو أني بقيت خمسين سنة أحدث الناس كل أسبوع، عن علم من أعلام الإسلام، أو أعرض عليهم قصة من قصص

(١) الذي كنت أذعته من إذاعة دمشق، ثم زدت عليه حتى صار كتاباً كبيراً في ٤٨٨ صفحة، طبع مرات.

بطولاتهم وعبقرياتهم، لما انتهيت ولما قاربت الانتهاء، وكيف؟ وعندي في مكتبة بيتي الصغيرة أكثر من مئة مجلدة في تراجم الرجال، لو أن في كل مجلدة منها مئة ترجمة، لكان من ذلك وحده عشرة آلاف ترجمة، لعشرة آلاف علم من أعلام الإسلام. وما ليس عندي من كتب التراجم أضعاف ذلك.

ثم إن في كتب التاريخ والأدب، والمحاضرات والرحلات، آلاف أخرى لم تفرد في كتب التراجم.

ولقد كنت أتسلى من أيام بالنظر في (رحلة ابن بطوطة)، فاستخلصت منها تراجم كثيرين، لأجعل منها أحاديث. منهم السلطان المسلم العادل طرمشيرين من حفدة جنكيزخان، وكان يحكم مملكة واسعة المدى، مترامية الأطراف، كثيرة الجيوش، وافرة الخيرات، فهل سمعتم بطرمشرين؟

وهل سمعتم بالملوك المسلمين الذين حكموا روسية، وكان لهم فيها حكومة عظيمة، عاشت دهراً، وكانت تسمى دولة البلغار، وكانت عاصمتها بقرب ستالينغراد؟

وهل تعرفون سير الملوك المسلمين الذين حكموا الهند قروناً طوالاً، وكان منهم أورنك زيب أشبه الملوك سيرة بالخلفاء الراشدين؟

ودول الإسلام في جنوبي آسية، وسواحل إفريقية السوداء؟

لقد بلغ الإسلام بلاداً، تعجبون أنتم الآن إذا سمعتم بأنه بلغها، وأقام فيها دولاً، وأنشأ فيها حضارات، وترك فيها آثاراً، وأكثر القراء لا يعرفون شيئاً عنها.

بل إني أعترف أني لم أكن أعرف شيئاً عن تاريخ الإسلام في ماليزيا وأندونيسيا، وعن مراحل تاريخه في الهند، حتى زرت تلك

البلاد، ورأيت آثار الإسلام فيها، ولاسيما في دهلي وما حولها. لقد كنت أظنني في الأندلس، ولكنها أندلس أجل وأكبر. لقد حكمنا الهند ألف سنة، فمن يعرف دقائق تاريخنا في الهند؟

لقد كدت أقول: لا أحد!
إننا أمة تجهل تاريخها!

هذا التاريخ الذي ليس لأمة مثله. هذا العالم الذي يفيض بالحب والنبل والتضحية والبطولة والإيمان.

هذا السجل الأدبي الذي اشتمل على بذور مآس، وملاحم، وقصص، ودواوين، لو وجدت من يستخرجها، ويزرعها في الذهن الخصيب، لكان حصادها أدب جديد يزحم بمنكبيه آداب الأمم جميعاً. وإذا كان إسكندر دوماس وشارلز ديكنز، قد استخرجا من تاريخ فرنسا، وتاريخ إنكلترا، على قصر مدتهما وكثرة مخازيهما، هذا الأدب كله، فماذا يستخرج لعمري من تاريخنا الطويل الشريف الغني، لو رزقت العربية أديباً كدوماس أو كديكنز؟

ولست أعني التاريخ السياسي وحده، تاريخ القصور والملوك، بل أعني التاريخ العلمي أولاً، تاريخ القوم الذين باعوا نفوسهم لله مجاهدين في ميادين الطروس، بأسنة الأقلام، وهجروا لذلك لذائذهم، ونسوا حاجات بطونهم، وغرائزهم، واطرحوا رغبات الغنى والجاه وكل ما يتزاحم عليه الناس، واستهانوا في سبيله بكل صعب، حتى إنهم كانوا يرحلون الإبل، أربعين ليلة، من مشرق الأرض، إلى بغداد أو الشام أو الحجاز، في طلب مسألة مفردة، أو حديث واحد. أحرقوا أدمغتهم فجعلوها مشاعل القرون الآتيات، فسارت (البشرية....) في طريق الحضارة على ضوئها.

هذا التاريخ الذي أعنيه، هو تاريخ القضاة الذين استطاعوا في

عصر كان الحكم فيه في الدنيا كلها حكماً مطلقاً، وكانت حياة الناس معلقة بكلمة ينطق بها الحاكم، استطاعوا في هذا العصر، أن يجعلوا لأنفسهم منزلة، وأن تكون لهم بكفاياتهم وبأخلاقهم حصانة دونها حصانة القضاة اليوم التي ضمنها لهم القانون... فاقرؤوا أخبارهم في كتب التاريخ والأدب والمحاضرات، وفيما أفرد لهم من كتب، ككتاب الكندي في «قضاة مصر»، وكتاب «قضاة الأندلس» وكتاب «قضاة الشام»، تروا كيف كان أحدهم يستند إلى سارية المسجد، وما معه إلا كاتبه ـ ما معه جند ولا شرط، ثم يحكم على الخليفة، وعلى الأمير، وعلى صاحب السلطان، فلا يرد له حكم، ولا يستعصي على حكمه أحد. واقرؤوا مقدمة كتاب (الخراج)، لتروا كيف كان أبو يوسف القاضي، يخاطب أكبر ملوك الدنيا في عصره: هارون الرشيد!

هذه ناحية من أوسع نواحي العظمة في تاريخنا، لأن القضاء (منذ كان في الدنيا قضاء) هو مقياس الخير في الأمم، وهو معيار العظمة فيها، وهو رأس مفاخر كل أمة حية راشدة. وليس القاضي موظفاً كالموظفين[1]، فالموظفون، حتى الأمراء منهم والوزراء، أعوان الملك أو الرئيس وأتباعه، يأمرهم فيأتمرون، ويدعوهم فيلبون، أمرهم من أمره، وسلطانهم من سلطانه، يتكلم بألسنتهم، ويبطش بأيديهم، أما القاضي فلا حكم عليه إلا لربه، ولا استمداد له إلا من قلبه، يتكلم بلسان الشرع، والشرع فوق الناس، ويحكم بحكم الله، وحكم الله على الجميع.

هذا هو التاريخ الذي أعنيه، لا تاريخ القصور وأهلها، وهذا الذي عني به علماؤنا، فألفوا فيه آلاف الكتب، واستحدثوا منه علماً لم تعرفه أمة من الأمم، قبلهم ولا بعدهم، هو (علم الرجال)، الذي يميز صادق

(١) الوظيفة في اللغة المرتب، ولكنا آثرنا ما يقول الناس.

الرواة من الكاذب، والأمين من المزور، والمتثبت من المتساهل، وكان لأهل هذا العلم مثل (دوائر الاستخبارات) في الحكومات، وبها توصلوا إلى وضع قواعده، ورفع دعائمه.

وابدأ فانظر ما ألف في سيرة سيد البشر ومعلم الخير ﷺ، وكيف دونت حركاته وسكناته، وألفاظه وإشاراته، في مئات من الكتب ـ إذا شئت كتاباً يكاد يغني عن هذه الكتب كلها، ولا يغني عنه كتاب، فاطلب «شرح المواهب» للزرقاني.

ثم انظر سير الصحابة فاقرأها في «الإصابة» أو في «أسد الغابة» أو في «الاستيعاب».

ثم انظر العمل الذي قام به مؤرخو رجال الحديث، ومبلغ ما وصلوا إليه من الإحاطة والتدقيق والصدق، وانظر هل أفلت منهم خبر؟ أو خفيت عليهم حقيقة؟ وهل صنع علماء أمة كالذي صنعوا؟ أو تصوروا إمكان هذا الصنيع المعجز الهائل؟

لقد صنفوا في الرجال الكتب الجامعة[1]، وأفردوا الضعاف والمتروكين بالتأليف، ووضعوا الكتب في ضبط الأسماء، وبيان ما تشابه منها أو ما اشتبه، وبحثوا في تواريخ الوفيات، وحققوا الأسانيد. ثم انظر ما ألف من كتب الرجال في سائر العلوم والفنون، كطبقات الأطباء، وأخبار الخلفاء والوزراء والنحاة والأدباء، بل وفي أخبار الطفيليين والحمقى والمغفلين وعقلاء المجانين. وما ألف في رجال المذاهب، كطبقات الشافعية، والديباج في أعيان المذهب المالكي، وطبقات الحنابلة والحنفية.

---

(١) حسبكم منها كتاب «الكمال في أسماء الرجال»، الذي رأوه طويلاً فاختصره المزي في كتاب «التهذيب» ثم اختصروا هذا المختصر فكان الكتاب النفيس الممتاز كتاب «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر وهو في ١٢ مجلداً.

وما ألف منها في المدن، كتاريخ بغداد الذي ترجم لكل من دخل بغداد فلم يبق ولم يذر، والكتاب الذي لم يؤلف في بابه مثله، كتاب ابن عساكر العجيب، الذي عجزت دمشق عن طبعه وعن نشره. وما ألف على العصور، وعندنا سلسلة كاملة لأعيان كل عصر، من العصر السابع إلى الثاني عشر الهجري[1]. وما كان منها جامعاً كوفيات الأعيان، الكتاب النفيس الممتاز، وغير ذلك مما يتعسر الإحاطة به وتقصّي خبره في مثل هذا المقام. وفي كل صفحة من هذه الكتب مبعث إلهام للأديب، وأصل قصة للكاتب، وكنز من كنوز العقل والقلب لا يفنى.

ألفوا هذه الكتب كلها في (علم الرجال)، على حين لا نعرف من تصانيفهم في تاريخ الملوك إلا بضعة كتب كالطبري وابن الأثير وابن كثير والمسعودي واليعقوبي وابن خلدون وأمثالها. ويا ليت وزارات المعارف في بلاد المسلمين تدع هذا كله، فلا تجعله أكبر همها من درس التاريخ، وغاية مطلبها، وتنصرف إلى التاريخ العلمي، فتعنى به[2]. ورب عالم كان أبلغ أثراً في عصره من خليفة العصر، وكان أولى أن يعرف العصر به، وينسب إليه، فتقول عصر أبي حنيفة مثلاً، وعصر ابن أبي دؤاد، وعصر أحمد، وعصر الغزالي، وعصر ابن تيمية وابن القيم.

ولست أدري إلى متى يبقى تاريخنا عبداً واقفاً على أبواب الملوك، لا ينظر إلا إليهم، ولا يهتم إلا بهم، ولماذا لا يصير حراً، يخالط الشعب ويسجل مناقبه، ويصف أخلاقه؟

---

(١) وقد ألف أحد المشايخ في دمشق في أعيان القرن الثالث عشر كتاباً ينقصه التحقيق والترتيب. ثم طبع كتاب الشيخ عبد الرزاق البيطار جد شيخنا بهجة الشام رحمه الله، وهو كتاب جامع نافع.

(٢) حققت هذا بفضل الله لما عهد إلي وضع مناهج المدارس الشرعية في سورية أيام الوحدة، وجعلت مكان التاريخ درس (أعلام الإسلام).

ومن منا يعرف ماذا كان يأكل الناس في عهد الرشيد مثلاً أو الواثق، وماذا كانوا يلبسون، وماذا كانوا يصنعون في أفراحهم وأتراحهم، وجدهم ولهوهم، وكيف كانت حياة التاجر والصانع والجندي والزارع؟

إننا نستطيع أن نقف على ذلك، إذا بحثنا عنه وتصيدنا أخباره تصيداً، من كتب الأدب والأخبار، ككتب القاضي التنوخي. ولكن ذلك يحتاج إلى جد وكد، ونحن أهل كسل: نأكل ما وجدنا، ولو كان شر الطعام، ولا نكلف أنفسنا عناء الإعداد والطبخ.

ثم إن تاريخ ملوكنا وإن كان أشرف بمئة مرة من تواريخ أمم الغرب، فإنه لم يكن يرفع الرأس، وإذا استثنينا نفراً من الحكام كالخلفاء الأربعة وعمر بن عبد العزيز ونور الدين وصلاح الدين وأورنك زيب وأمثالهم، على ندرة أمثالهم، لم نكد نجد إلا حاكماً مستبداً، إذا وزنت سيرته بميزان الإسلام، لم ترجح في الميزان.

ثم إن رواية المؤرخين رواية عامية، والرواية العلمية هي رواية المحدثين، لذلك كان المرجع الأول لتاريخنا ما رواه المحدثون، وكان الجاهل بمصطلحهم وعلمهم، لا يعد مؤرخاً. وكتب التاريخ هذه هي المواد الأولية للتاريخ، وليست هي التاريخ، لأن تاريخنا لم يكتب، ولا بد من تنقيتها أولاً، ثم ترتيبها، ثم إدخالها المصنع، لتصير حينئذ تاريخاً، وإنها على ما هي عليه مخلوط فيها السم بالدسم، والقطن بالبرسيم.

وإن علمنا كان يعتمد على الرواية، والرواية تقوم على معرفة الرجال.

والطبري وغير الطبري، حين يذكر أن الخبر مروي عن فلان وفلان، يسقط التبعة عنه، ويلقيها عليك، وعليك أنت أن تعرف الكاذب من الصادق من الرواة، لتعرف الصحيح من الباطل من الأخبار، فإن لم تعرفه حفظاً عرفته مراجعة.

ومن هنا يتبين أن الباحث الذي يذيل بحثه بذكر صفحات الطبري (الطبري، صفحة كذا)، مقر على نفسه بأنه حاطب ليل لا يدري ما يأخذ وما يدع[1]، وأنه هو الذي يسميه علماؤنا (المقمش)!

ولذلك كان الاعتماد الأول على رواية المحدثين، ورواية المحدثين لها درجات، منها الرواية المتواترة الثابتة، والمشهورة، والعزيزة، والصحيحة، والحسنة، والضعيفة. ولها من جهة إسنادها درجات، منها المسندة، والموقوفة، والمرسلة، والمنقطعة، والمعضلة.

وكان لها من جهة انفرادها وتعارضها بغيرها أصناف، منها المتفق عليه، والغريب، والشاذ، والمنكر، والعاضد لغيره، والمخصص، والمقيد، والناسخ. والصحيح درجات، تختلف باختلاف المصححين واختلاف شرائطهم في التصحيح.

وليس يمكن أن يكون مؤرخاً إسلامياً، أو أستاذاً للتاريخ الإسلامي، إلا من كان عالماً بالرجال أو كان ممن يحقق عن أحوالهم. عارفاً بالحديث، ومظان وجوده، و (مصطلح) أهله. عارفاً بالعربية، ليفهم ظواهر الكلام وبواطنه، وإشاراته ومعاريضه. وكان متجرداً عن العصبية والهوى، مريداً ببحثه الحق ورضاء الله.

فإن لم يكن كذلك لم يكن إلا جاهلاً بالتاريخ أو دجالاً، ولو كان أستاذ الجامعة ولو كان صاحب الشهادات الكبار، لأن الدولة تستطيع أن تجعل الرجل أستاذاً بمرسوم، وتقدر أن تجعله دكتوراً بشهادة، قد تكون

---

(١) فكيف بمن يجعل مستنده كتاب «الأغاني»؟ وهو كتاب أدب ومحاضرة لا نظير له، لكن لا يعتمد عليه ولا يروى عنه، لأن أبا الفرج معروف بالكذب والوضع، وهو فاسد السيرة، بعيد عن العدالة، وهو فوق ذلك شيعي المذهب رغم أنه أموي النسب. وهذا من العجائب.

شهادة زور، ولكن الدولة لا تستطيع أن تجعل الجاهل عالماً، ولا العصبي نزيهاً، ولا الكاذب صادقاً.

وبعد، فهذه كلمة انجر القلم إليها، أردت فيها أن أستحث الأدباء، وأثير هممهم، علهم يقبلون على هذا المنجم البكر فيستخرجوا كنوزه، ويعرضوا على الناس جواهره.

والله الموفق للصواب.

كتبت في دمشق سنة ١٩٣٩

علي الطنطاوي

بَيْن يَدَي الكتاب[1]

نحن المسلمين!

سلوا عنا ديار الشام ورياضها، والعراق وسوادها، والأندلس وأرباضها،

سلوا مصر ووديها، سلوا الجزيرة وفيافيها، سلوا الدنيا ومن فيها،

سلوا بطاح أفريقية، وربوع العجم، وسفوح القفقاس،

سلوا حفافي الكنج، وضفاف اللوار، ووادي الدانوب،

سلوا عنا كل أرض في «الأرض»، وكل حي تحت السماء.

إن عندهم جميعاً خبراً من بطولاتنا وتضحياتنا ومآثرنا ومفاخرنا وعلومنا وفنوننا.

نحن المسلمين!

* * *

نحن المسلمين!

هل روى رياض المجد إلا دماؤنا؟ هل زانت جنات البطولة إلا أجساد شهدائنا؟ هل عرفت الدنيا أنبل منا أو أكرم، أو أرأف أو أرحم، أو أجل أو أعظم، أو أرقى أو أعلم؟

نحن حملنا المنار الهادي والأرض تتيه في ليل الجهل وقلنا لأهلها: هذا الطريق!

---

(١) فصل وضع في صدر الطبعة الأولى.

نحن نصبنا موازين العدل يوم رفعت كل أمة عصا الطغيان.

نحن بنينا للعلم داراً يأوي إليها حين شرده الناس عن داره.

نحن أعلنّا المساواة يوم كان البشر يعبدون ملوكهم ويؤلهون ساداتهم.

نحن أحيينا القلوب بالإيمان، والعقول بالعلم، والناس كلهم بالحرية والحضارة.

نحن المسلمين!

* * *

نحن بنينا الكوفة والبصرة والقاهرة وبغداد.

نحن أنشأنا حضارة الشام والعراق ومصر والأندلس.

نحن شِدْنا بيت الحكمة والمدرسة النظامية وجامعة قرطبة والجامع الأزهر.

نحن عمرنا الأموي وقبة الصخرة وسر من رأى والزهراء والحمراء ومسجد السلطان أحمد وتاج محل.

نحن علمنا أهل الأرض وكنا الأساتذة وكانوا التلاميذ.

نحن المسلمين!

* * *

منا أبو بكر وعمر ونور الدين وصلاح الدين وأورنك زيب.

منا خالد وطارق وقتيبة وابن القاسم والملك الظاهر.

منا البخاري والطبري وابن تيمية وابن القيم وابن حزم وابن خلدون.

منا الغزالي وابن رشد وابن سينا والرازي.

منا الخليل والجاحظ وأبو حيان.

منا أبو تمام والمتنبي والمعري.

منا معبد وإسحاق وزرياب.

منا كل خليفة كان الصورة الحية للمثل البشرية العليا.

وكل قائد كان سيفاً من سيوف الله مسلولاً.

وكل عالم كان من البشر كالعقل من الجسد.

منا مائة ألف عظيم وعظيم.

نحن المسلمين!

* * *

قوتنا بإيماننا، وعزنا بديننا، وثقتنا بربنا.

قانوننا قرآننا، وإمامنا نبينا، وأميرنا خادمنا.

وضعيفنا المحق قوي فينا، وقوينا عون لضعيفنا.

وكلنا إخوان في الله، سواء أمام الدين.

نحن المسلمين!

* * *

نحن المسلمين!

ملكنا فعدلنا، وبنينا فأعلينا، وفتحنا فأوغلنا، وكنا الأقوياء المنصفين، سَنَنْنا في الحرب شرائع الرأفة، وشرعنا في السلم سنن العدل، فكنا خير الحاكمين، وسادة الفاتحين.

أقمنا حضارة كانت خيراً كلها وبركات، حضارة روح وجسد، وفضيلة وسعادة، فعمَّ نفعها الناس، وتفيأ ظلالها أهل الأرض جميعاً، وسقيناها «نحن» من دمائنا، وشدناها على جماجم شهدائنا.

وهل خلت أرض من شهيد لنا قضى في سبيل الإسلام والسلام، والإيمان والأمان؟

* * *

نحن المسلمين!

هل تحققت المثل البشرية العليا إلا فينا؟

هل عرف الكون مجمعاً بشرياً (إلا مجمعنا) قام على الأخلاق والصدق والإيثار؟

هل اتفق واقع الحياة، وأحلام الفلاسفة وآمال المصلحين، إلا في صدر الإسلام؟

يوم كان الجريح المسلم يجود بروحه في المعركة يشتهي شربة من ماء فإذا أخذ الكأس رأى جريحاً آخر فآثره على نفسه ومات عطشان.

يوم كانت المرأة المسلمة يموت زوجها وأخوها وأبوها فإذا أخبرت بهم سألت: ما فعل رسول الله؟ فإذا قيل لها: هو حي، قالت: كل مصيبة بعده هينة.

يوم كانت العجوز ترد على عمر وهو على المنبر في الموقف الرسمي وعمر يحكم إحدى عشرة حكومة من حكومات اليوم.

يوم كان الواحد منا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويؤثره عليها ولو كان به خصاصة.

وكنا أطهاراً في أجسادنا وأرواحنا ومادتنا ومعنانا.

وكنا لا نأتي أمراً ولا ندعه ولا نقوم ولا نقعد ولا نذهب ولا نجيء إلا لله.

قد أمتنا الشهوات من نفوسنا فكان هوانا تبعاً لما جاء به القرآن.

لقد كنا خلاصة البشر وصفوة الإنسانية.

وجعلنا حقاً واقعاً ما كان يراه الفلاسفة والمصلحون أملاً بعيداً.

نحن المسلمين!

* * *

تُنظم في مفاخرنا مائة ألياذة وألف شاهنامه.

ثم لا تنقضي أمجادنا ولا تفنى، لأنها لا تعد ولا تحصى.

من يعدُّ معاركنا المظفرة التي خضناها؟

من يحصي مآثرنا في العلم والفن؟

من يستقري نابغينا وأبطالنا؟

إلا الذي يعد نجوم السماء.

ويحصي حصى البطحاء.

اكتبوا (على هامش السيرة) ألف كتاب.

و(على هامش التاريخ) مثلها،

وأنشئوا مئة كتاب في سيرة كل عظيم.

ثم تبقى السيرة ويبقى التاريخ كالأرض العذراء والمنجم البِكْر.

* * *

نحن المسلمين:

لسنا أمة كالأمم تربط بينها اللغة ففي كل أمة خيّر وشرير.

ولسنا شعباً كالشعوب يؤلف بينها الدم ففي كل شعب صالح وطالح، ولكننا جمعية خيرية كبرى.

أعضاؤها كل فاضل من كل أمة، تقي نقي.

تجمع بيننا التقوى إن فصل الدم، وتوحد بيننا العقيدة إن اختلفت اللغات.

وتدنينا الكعبة إن تناءت بنا الديار.

أليس في توجهنا كل يوم خمس مرات إلى هذه الكعبة، واجتماعنا كل عام مرة في عرفات. رمزاً إلى أن الإسلام قومية جامعة، مركزها الحجاز العربية وإمامها النبي العربي، وكتابها القرآن العربي؟

* * *

نحن المسلمين!

ديننا الفضيلة الظاهرة، والحق الأبلج.

لا حجب ولا أستار ولا خفايا ولا أسرار.

هو واضح وضوح المئذنة. أفليس فيها ذلك المعنى؟

هل في الدنيا جماعة أو نحلة تكرر مبادئها وتذاع عشر مرات كل يوم كما تذاع مبادىء ديننا نحن المسلمين، على ألسنة المؤذنين:

أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

نحن المسلمين!

لا نهن ولا نحزن ومعنا الله.

ونحن نسمع كل يوم ثلاثين مرة هذا النداء العلوي المقدس هذا النشيد القوي: الله أكبر.

البطولة سجية فينا، وحب التضحية يجري في عروقنا.

لا تنال من ذلك صروف الدهر، ولا تمحوه من نفوسنا أحداث الزمان.

لنا الجزيرة التي يشوى على رمالها كل طاغ يطأ ثراها ويعيش أهلها من جحيمها في جنات.

لنا الشام وغوطتها التي سقيت بالدم، لنا فيها الجبل الأشم.

لنا العراق لنا (الرميثة) وسهول الفرات.

لنا فلسطين التي فيها (جبل النار).

لنا مصر دار العلم والفن ومثابة الإسلام..

لنا المغرب كله، لنا (الريف) دار البطولات والتضحيات.

لنا القسطنطينية ذات المآذن والقباب، لنا فارس والأفغان والهند وجاوة.

لنا كل أرض يتلى فيها القرآن وتصدح مناراتها بالأذان.

لنا المستقبل.. المستقبل لنا إن عدنا إلى ديننا.

نحن المسلمين!

* * *



الجامع الأموي

في دمشق

وصف وتاريخ

بقلم

علي الطنطاوي

دار المنارة

للنشر والتوزيع

جدة - السعودية

مقدمة هذه الطبعة

كتبت مقدمة الطبعة الأولى في دمشق سنة ١٩٦٠، ومكتبتي أمامي وأوراقي تحت يدي.

وأكتب هذه المقدمة في مكة المكرمة سنة ١٩٨٩ م، وقد بَعُدت المكتبة عني، وضاعت الأوراق مني، والدرج الذي أودعته أخبار الأموي لم أعد أعرف ما فعل الله به، ولا بما كان فيه من أوراق، ولم أعد أستطيع أن أعوضه.

ومن أين لي أن أعود إلى الكتب التي طالعتها، والسنين الطويلة التي أمضيتها أتتبع أخبار الأموي من صفحات الكتب ومن أفواه العلماء، وكلما وجدت خبراً نقلته وذكرت من أين أخذته، أو ممن سمعته. ولعلها موعظة جاءتني من الله، إذ آثرتُ مصلحتي على مصلحة المسلمين، وضننتُ بما اهتديت إليه على الناس، وخفت أن يأخذوا المصادر التي جمعتها ولا ينسبوها إليّ. وكنت أؤمل أن أجعل منها كتاباً كبيراً عن الأموي، فضاع الأمل. ولم يبقَ إلا هذا المختصر.

أسأل الله أن ينفع به، وأن يثيب كاتبه وناشره عليه.

مكة المكرمة ١٤٠٩/٥/٣ هـ

١٩٨٩/١/١ م

علي الطنطاوي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله، وعلى سائر رسل الله وأنبيائه.

اللهم منك العون، وعليك الاتكال، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

وبعد، فإن من دأبي كلما ازدحمت عليّ المتاعب، وركبتني الهموم، وضاق صدري، وانقبض قلبي، أن أمشي حتى أجد مسجداً خالياً، فأدخله فأصلي ركعتين، وأقعد، أشعر بسكون المسجد من حولي، وبجلال الحق من فوقي، حتى أجد الطمأنينة والرضا، كأني نجوت من البحر الهائج إلى الجزيرة الآمنة، وتركت الصحراء المحرقة إلى الواحة الظليلة، وكأن ما كنت فيه من المشكلات، وما كان في صدري من الهموم، قد ذهب كله، لما دخلت حمى الله وصرت في بيته واعتصمت به من الناس وشرورهم، ومن نفسي وسوئها، ومن الشيطان ووسواسه.

وإذا كان العرف الدولي على أن بيوت سفراء الدول الأجنبية قِطَع من بلادهم ولو كانت في بلاد الناس، فإن بيوت الله رياض من رياض الجنة، وإن كانت في هذه الدنيا، فمن دخلها كان ضيف الله، وكان جاره. فهي أبواب السماء المفتحة دائماً إن سُدّت في

وجه البائسين اليائسين أبواب الأرض، وهي منار الهدى إن ضل بالسالكين الطريق. وإن كان في الدنيا الخير والشر، فهاهنا الخير الذي لا شر معه، وإن كان فيها الحق والباطل، فهاهنا الحق الذي لا باطل فيه.

ومن هنا تخرج الكلمة من حلوق المؤذنين، وأفواه الخطباء والمدرِّسين، فتمشي في الفضاء، من فوق رؤوس الملوك والكبراء، والأغنياء والأقوياء، كلٌّ يخضع لها ويصغي إليها، لأنها كلمة الخالق، وإن جاءت على ألسنة ناس من المخلوقين.

هذه قلاع الإيمان في وجه الإلحاد.

هذه حصون الفضيلة أمام الرذائل والشهوات.

والمسجد هو المعبد في الإسلام، وهو البرلمان، وهو المدرسة، وهو النادي، وهو المحكمة.

هو **(المعبد)**: يدع المسلمون أحقادهم ومطامعهم وشرورهم وفسادهم على الباب، ويدخلون إليه بقلوب متفتّحة للإيمان، متطلّعة إلى السماء، متحلّية بالخشوع، ثم يقومون صفّاً واحداً، يستوي فيه الكبير والصغير، والأمير والحقير، والغني والفقير، أقدامهم متراصّة وأكتافهم متزاحمة، وجباههم جميعاً على الأرض، يستوون في شرف العبودية، وفي شرعة العبادة.

وهو **(البرلمان)**: ما دهى المسلمين أمر، ولا عرض لهم عارض، إلا نودي: «الصلاة جامعة»، فاجتمع الشعب في المسجد. ففي المسجد يكون انتخاب الخليفة، وفيه تكون البيعة، وفيه تُبحث القوانين، تستمدّ من الشرع ثم تعلن فيه على الناس.

وهو **(النادي)**: إن قدم أمير بلداً كان أول ما يدخله من البلد

المسجد، على منبره يعلن سياسته، ويذيع منهاجه. وإن كانت حرب، عُقدت الرايات في المسجد. وليس في الإسلام حروب هجومية لمجرد الفتح والاستعمار والكسب، بل فيه الحرب الدفاعية فقط، حرب الدفاع عن العقيدة: أن يمنع أحد مسيرها، وعن أصحابها: أن يحول أحد بينهم وبين قيامهم بفرض الدعوة إليها. إنهم مكلّفون بحمل المصباح الذي أُضيء من غار حراء، لينوِّروا به الدنيا، ويبددوا به الظلام عن أهلها، فإذا انبرى لهم من يحاول إطفاء المصباح، ومن يريد منع نور الله أن يصل إلى عباده، حاربوه حتى يفيء ويرجع، فإن فاء ورَجَع إلى الحق كان واحداً منهم، له ما لهم وعليه ما عليهم، وإن أبى إلا عناداً فحارب فَغُلِب على أمره لم يُكرهوه على الإسلام، ولم يكلّفوه شططاً، ولم يحمّلوه إلا ضريبة محدودة، هي تكاليف الدفاع الذي يتولّوْنه هم وحدهم. ضريبة هي أشبه بـ (البدل العسكري)، يدفعه المغلوبون من أموالهم، ويدفع المسلمون الغالبون ضريبة الجهاد من أرواحهم.

والمسجد هو (**المدرسة**): وفي المساجد وُضعت أسس الثقافة الإسلامية، وفيها ارتفعت ذراها، وشُيِّدت صروحها. وكان يدرّس في المسجد كل علم ينفع الناس: من علوم القرآن، وعلوم السنة، وعلوم الشريعة، وعلوم اللسان، وعلوم سنن الله في الأكوان. وكل علم تحتاج إليه الأمة الإسلامية يكون تعلمه فرض كفاية في نظر الإسلام، حتى الكيمياء والفيزياء والرياضيات. ونجد بعد ذلك مَنْ تبلغ به الجهالة أن يَصِمَ بالجمود ديناً يجعل تعلّم الكيمياء فرضاً كفروض العبادات.

والمسجد هو (**المحكمة**): وعلى بُسُط المساجد وأمام أعمدتها وأساطينها أُصدرت أعدل الأحكام وأجرؤها، وفيها سُطِّرت أروع صفحات القضاء البشري، ولطالما أقام القضاة فيها الجَمَّال والحَمَّال مع

أمير المؤمنين[١]، والأجير والفقير مع الأمير الكبير[٢]، ثم حكموا له عليه، لا يبالون مع الحق صغيراً ولا كبيراً.

وقد تشرّفتُ فزرتُ آلافاً من المساجد، في الداني والقاصي من بلاد الإسلام، عامرها وداثرها، فرأيت المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، والمسجد الأقصى، والأزهر المعمور، ومسجد أبي حنيفة والجيلاني في بغداد، وابن طولون والمتوكّل في القاهرة، وسرَّ مَنْ رأى، وآثار مسجدَي الكوفة والبصرة، والمسجدين العظيمين: المسجد الجامع في دهلي، وآثار مسجد قوة الإسلام في دهلي القديمة، ومساجد الملايا وجاوه، فما رأيت فيها كلِّها بعد المساجد الثلاثة التي ميَّزها الله وجعل الصلاة فيها أفضل بدرجات، مسجداً هو أقدم قدماً، وأفخم مظهراً، وأجمل عمارة، وأحلى في العين منظراً، من الجامع الأموي في دمشق.

كان مدرسةَ دمشق، فيه الحلقات يدرّس فيها كل علم، وكان النادي يجتمع فيه الناس كلما دهم البلدَ خطب، وكان الأموي في عهد نشأتنا الأولى لبَّ دمشق، فكانت الدار القريبة هي القريبةَ من الأموي، والبعيدة هي البعيدةَ عن الأموي، وكانت الأرض الغالية هي التي جاورت الأموي، وكان الأموي ملعَبنا ونحن أطفال، ثم كان مدرسَتنا الثانية ونحن طلاب، ندخله إذا انصرفنا من المدرسة فنصلي فيه، ونقف على حلقاته، وما كان يخلو وقت فيه من حلقتين أو أكثر، وكنا نتبوأ مقاعدنا في بعضها، نأخذ الفقه والحديث واللغة والنحو، وكنا نؤمُّه في عشايا الصيف مع آبائنا، نتخذ من صحنه متنزَّهاً وأُنساً، وكنا نؤمُّه في ليالي الشتاء نتخذ من حرمه ملجأ وأمناً، وكان الأموي مثابة النضال الوطني

---

(١) منها دعوى الجمّال على أمير المؤمنين المنصور أمام قاضي مكة.

(٢) ومنها دعوى المرأة على عيسى بن موسى أكبرأمراء البيت العباسي ووالي العراق أمام القاضي شَريك.

على عهد الانتداب، فيه تُلقى الخطب، وفيه تُعَدّ المظاهرات، ومنه تسري روح النضال في الناس، فكان للدين والدنيا، وللعبادة والعلم، ولكل ما فيه رضا الله ونفع الناس، وكذلك يكون المسجد في الإسلام.

وأكثر ما كثر عليه تَردادي، واتصل به حبلي، لما كنت في المدرسة الجَقْمَقية، ثم لما صرت من بعد في مكتب عنبر، وأُولعت من أيام الجقمقية (سنة ١٩١٩ م) بأن أنقل كل خبر أجده عن الأموي، واستمر ذلك أكثر من أربعين سنة، من تلك الأيام إلى الآن[١]، فاجتمع لي من الأوراق والجذاذات والمذكرات ما يملأ درجاً كبيراً. وكنت كلما عزمت على تصفيته، وإخراجه في كتاب، تعاظمني الأمر فتهيَّبتُه، وقد جمعتُ كل ما وجدتُه عنه في ابن عساكر، و «الدارس»، و «محاسن الشام»، و «مسالك الأبصار»، و «البداية والنهاية»، و «الروضتين» وذيله، و «شذرات الذهب»، و «معجم البلدان»، و «النجوم الزاهرة»، وتاريخ ابن القلانسي، و «السلوك» للمقريزي، وكتب ابن طولون، وما كتبه القاسمي وبدران. ورأيت بعض الرسائل المخطوطة، وكتباً أخرى لا أريد الآن إحصاءها.

وكنت كلما تقادم العهد، ازدادت هذه الأوراق كثرة، وازددت لها تهيباً، حتى إذا صح مني العزم قليلاً، استخرجت سلسلة الأحاديث التي كنت حَدّثت بها من إذاعة دمشق عن الأموي من سنين ثم تركتُها، فلما طلبتْ مني المديرية العامة للأوقاف أن أكتب شيئاً عن الأموي، يكون كالدليل للسائح، استخرجتُ منها هذه الخلاصة التي أقدمها اليوم، ولم أعزُ كلَّ خبر فيه اعتماداً على أني سأُخرج إن شاء الله الكتاب الكبير عن الأموي وكلّ خبر فيه معزوٌّ إلى مصدره، ولأني جرّبت في كتابي عن أبي بكر وعمر أن أذكر كل مصدر، وأعيِّن الطبعة من الكتاب والجزء

---

(١) أي إلى وقت كتابة هذه الفصول.

والصفحة، فأخذ ناسٌ من (أكبر) كُتّابنا ومؤلِّفينا ما فيهما ولم يُشيرا إليهما، وادّعيا أنهما أخذا من الأصول التي نقلت منها.

وأنا أسأل الله التوفيق، وأن يجعلنا من المخلصين.

دمشق: ٤ رمضان ١٣٧٩

١ آذار ١٩٦٠

علي الطنطاوي

في سبيل الإصلاح

تأليف

علي الطنطاوي

نشر وتوزيع

دار المنارة

جدة - السعودية

مقدمة الطبعة الثانية[1]

السطور الأولى من هذه المقدمة كتبت في (مكتبة القدسي) في سوق الحميدية في دمشق، ووضعت في صدر الطبعة الأولى من رسائل (في سبيل الإصلاح) التي صدرت سنة ١٣٤٨ هـ، وتتمتها أكتبها الآن في دار صهري ـ زوج بنتي ـ الأستاذ زياد الطباع في جدّة سنة ١٤٠٧هـ، لأضعها في أول هذه الطبعة من كتابي (في سبيل الإصلاح). وبينهما مدى واسع في المكان هو بُعد ما بين دمشق وتهامة الحجاز، وبينهما مدى في الزمان مقداره تسع وخمسون سنة.

زمان طويل طويل، تبدل فيه كل شيء يقبل التبديل: غاب العالم الذي عرف صباي وتبدلت معالمه ومضى أكثر أهله. الناس الذين كانوا هم ناسي، وكانوا أهلي وصحبتي، لم يبق في كل ألف منهم بضعة آحاد يعدون على الأصابع. فلا البلد اليوم هو البلد، ولا أهله هم الأهل، ولا العادات والأوضاع هي العادات والأوضاع، حتى لو أنَّ الله بعث جدي الشيخ أحمد الذي مات سنة ١٣٣٢ هـ، لما عرف من دمشق إلا جامع التوبة والجامع الأموي وجبل قاسيون. حتى الجبل الذي خلّفه عارياً أجرد، لن يميزه اليوم، فقد لَبِس الشوارع والبيوت فسترت شعابه وغطت ترابه. بل لن يعرف في هذا الشيخ الذي جاوز الثمانين حفيده الذي تركه ولم يتعد الخمس السنين[2]، ولو أنه بعث ووصف ما رآه وما أحسَّ به في كتاب، لجاء أطرف من (حديث عيسى بن هشام)، وقصة

---

(١) سنة ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م.

(٢) كذا يقال، وأفصح منه أن نقول: خمس السنين.

(حاجي بابا في إنكلترا)، التي نشر الزيات ترجمتها في مجلة (الرواية) من قديم. لأن هذا التبدل الذي تمَّ في ثلاثة أرباع القرن التي عشتها لا يقع مثله في ثلاثة قرون.

والمجتمعات (تتطور) دائماً، ولكن (تطورها)، إن أسرع، يمشي مشية الخيل التي بالغ الشاعر مبالغة جاوزت حد المعقول حين وصفها فقال:

وأجل علم البرق عنها أنها   مرت بجانحتيه وهي ظنون

فصارت هذه المبالغة حقيقة، وغير المعقول معقولاً واقعاً، وصرنا ونحن في مكة نسمع الخطيب يخطب في أميركا قبل أن يسمعه من هو قاعد أمامه في النادي، لا مجازاً بل حقيقة، لأن الصوت يصل إلى من في النادي من طريق الهواء، ويبلغنا بالموجات الكهرطيسية (أي الكهربائية المغناطيسية)، ولو صرخ النذير من فوق الجبل يحذرنا طيارة معادية قادمة علينا لوصلت الطيارة قبل أن نسمع الصوت، لأنَّ من الطيارات ما هو أسرع من الصوت، وإذا كان الشاعر قد مدح بطلاً بأنه (ينظم فارسين بطعنة) أو أنه يقتل من الأعداء مئة في غارة، فلقد رأينا غارة من المتمدنين أهل الحضارة، تقتل مئة ألف في هيروشيما في لحظة واحدة، جلهم من غير المحاربين، وإنما هم من الأطفال والنساء والشيوخ العاجزين.

جدّ جديد في العلم لو خُبِّر به أعلم علماء الطبيعة من مئة وخمسين سنة لجنّ أو لحسب المُخبِر مجنوناً: صرنا نسمع المغنّي يغنّي لنا، وقد مات واستحال جسدهُ إلى رفات.

كان الشعراء يصفون القمر، ويشبهون به الغيد الحسان، فوصلنا إلى القمر ووطئناه بنعالنا، وإذا هو كالأرض: صخر ورمل وتراب.

* * *

وهذه كلها آيات لمن كان له قلب، ومن كان يفكر فيما يرى وما

يسمع، آيات وشواهد تقوي الإيمان في القلب المؤمن. أما من كان كالأنعام همُّه الطعام والشراب والزواج فيمر عليها وهو غافل عنها، يقف عند الصنعة وينسى الصانع، يقول: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾، وينسى قول الله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾. ملء كوب من ماء البحر، فما الكوب من البحر.

﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: علمنا قوانين الله التي وضعها للجاذبية، ولكن هل عرفنا ما الجاذبية؟ وما حقيقتها؟ وعرفنا الكهرباء، وكثيراً من سنن الله فيها وجعلنا لها علماً، وألّفنا فيها كتباً، وفتحنا لها في الجامعة أقساماً، وأقمنا لهذه الأقسام أساتذةً، ولكن هل عرفنا ما هي حقيقة الكهرباء؟

ودرسنا المخَّ وخلاياه وأقسامه، ولكن هل عرفنا ما علاقة المخ بالفكر؟ لقد نبذنا المقالة الحمقاء التي قالها بعض الماديين في القرن التاسع عشر (هيكل أو استرنر): أن المخ (يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء) منذ قضى (هنري بركسون) وصحبه على هذا المذهب، ولكنا بقينا على جهلنا بعلاقة المخ بالتفكير، وأكثر منه جهلنا بعلاقة القلب بالإيمان والعواطف، وهل المراد بالقلوب (التي في الصدور) هذا العضو الذي لم نعرف عنه إلا أنه مضخة للدم، ولا نتساءل لم تسرع ضرباته عند الغضب، وتبطىء عند الحزن، فيحمر الوجه أو يصفر، وتظهر عليه تلك الأعراض إن لم يكن إلا مضخة تضخّ الدم؟

أم المراد بالقلب شيء آخر، لم نعرفه بعد، وأننا حين نقول (القلب) نريد به اللب، كما نميز في الفاكهة قشرتها من لبها ولونها وشكلها، اللذين لا يدلان على العناصر التي تتألف منها، ولا على ما أودع من النفع والضر فيها.

إن اختلت خلايا المخ اضطرب التفكير، كما ينقطع تيار الكهرباء

إن انقطعت الأسلاك، ويبطل عمل الرائي (التلفزيون) إن نقص شيء من أجزاء الجهاز، ولكن هل الأسلاك والمصابيح هي الكهرباء؟ إنَّ الذي يعرفه الأطباء عن الدماغ كالذي يعرفه (مصلح التلفزيون) عن جهازه، يكمل نقصه، أو يقوم اعوجاجه، ولكن ما أثر ذلك فيما يعرض فيه من ندوات ومسلسلات، وما فيها من الخير أو من الشر؟

إن هذه الكشوف العلمية، وهذه المخترعات الحضارية، تقوي الإيمان عند من في قلبه إيمان، كما تشحن الذاخرة (أي البطارية) بالكهرباء إن كان لا يزال فيها بقية من كهرباء.

لقد كان في قريش عقلاء، وكان فيهم أولو نهى، ولكن لما قال لهم رسول الله ﷺ: إنه ذهب إلى القدس ورجع من ليلته، لم يستطع أكثرهم أن يصدق، وكاد يتزعزع إيمان بعض من قد آمن، ولو أنت قلت اليوم لأقل الناس علماً وأكثرهم جهلاً: لقد ذهبت أمس من جدة إلى عمان ورجعت، لما عجب، ولما رأى في ذلك شيئاً يتعجب منه.

إني حين أفكر فيما كانت عليه الدنيا وأنا في صدر حياتي ومطلع صباي، وما هي عليه الآن، أحسُّ كأني صعدت إلى رأس المئذنة ووقفت عند الهلال، لا أستند إلى شيء، أنظر من تحتي إلى ما حولي، فأحسُّ أن الدنيا تدور بي، حتى أكاد أسقط على رأسي.

لقد كان تبدلاً يكبر عن التصديق، ولكن هل كان خيراً كله؟ الجواب: لا. هل كان شراً كله؟ الجواب: لا. إن فيه خيراً من الواجب علينا أن نتمسك به، وفساداً علينا أن نصلحه، ومن هنا حاولت، وأنا أكتب وأؤلف وأخطب وأحاضر (من ستين سنة)، أن أجعل حظاً من عملي هذا في سبيل الله ثم (في سبيل الإصلاح).

فكيف نسلك هذا السبيل؟

إن ما وصلنا إليه فيه الطيب وفيه الخبيث، فكيف نميز الخبيث من الطيب؟

وإن ذلك كله يتبدل ويتغير، فأين الثابت الذي لا يعتريه تغيير ولا تبديل لنتخذه مقياساً يكون به هذا التمييز؟ أين الطيب الذي لا خبيث فيه، والحق الذي لا باطل معه؟

الجواب واضح بيّن لمن أعمل فيه فكره، وكان فكره مجرداً عن الهوى.

هو أن البشر يخطئون ويصيبون، فلنرجع إلى من لا يخطىء أبداً، والذي يقول الحق وهو يهدي السبيل. لندع ما اختلف فيه البشر إلى ما شرعه خالق البشر، وأنزله علينا، ولم يكل حفظه إلينا كما وكل ذلك إلى أهل الكتب من قبلنا، فبدلوا فيها وغيّروا، بل تولى هو حفظه جل جلاله، وتقدست أسماؤه. فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

فالمقياس هو شرع الله، هو الكتاب الذي لم يستطع أعدى عدو لنا، وأعتى ظالم مخاصم، أن يثبت (بل لم يجرؤ أن يدعي مجرد دعوى) أنه قد بدِّل أو غيِّر، أو أنه قد صحِّف أو حرِّف، أو أنَّ القرآن الذي هو في المصاحف بين أيدينا غير الذي أنزله الله، وبلَّغه جبريل سيد الملائكة محمداً سيد المرسلين، وإن كان بعض الفرق التي تنتسب زوراً إلى الإسلام تدَّعي كذباً وجهلاً، ما لم يدعه هؤلاء الأعداء، من أن المصاحف التي نقرأ فيها كلها قرآن ولكن ليست كل القرآن، وهي دعوى لا أدري أيُّهما أظهر: سخافتها أم وقاحتها.

ولكن الشيطان حين عجز عن تحريف تنزيله، دخل علينا من باب تأويله، حتى صار من الناس من يصرف الكلام عن معناه ويوجهه إلى غير الوجه الذي أراده الله، وحتى أنه كان عندي كتاب اسمه (حجج

القرآن) لرجل اسمه الرازي (نسبة إلى مدينة الري قرب طهران الآن) جمع فيه ما احتجت به الطوائف كلها، المسلمة والمرتدة عن الإسلام، التي تُدعَى في الاصطلاح (الفرق الإسلامية) باعتبار ما كانت في الأصل عليه، هذا الكتاب فيه العجب العجاب، من صرف الآيات عن مدلولها في لسان العرب الذي نزل به القرآن، وعمّا صحَّ في تفسيرها عن رسول الله الذي هو المبيِّن للقرآن.

ودخل علينا من باب صرفنا عن تدبر آياته، وتفهُّم معانيه، والعمل بأوامره ونواهيه، إلى تصريف الصوت في تلاوته بالأنغام، وطرب الناس لسماع الصوت بدل الخشوع عند فهم المعاني. وكان معنى كلمة(القرَّاء) حين نقرؤها في حروب الردة مثلاً وذكر من استشهد منهم في معركة اليمامة، كان معناها: الذي يقرأ القرآن متدبراً واعياً، عاملاً بما قرأ معلماً إياه من لا يعلم. فصار معناه: البصير بالألحان والمقامات، الخبير بالمحطات والتصرف بالنغمات، وصار السامعون يتصايحون من الطرب كأنهم يسمعون مغنياً في ملهى، لا يزيد إيمانهم بتلاوة القرآن، كما خبَّر الله عن أهل الإيمان، وصرنا نفتح به ونختم به الإذاعات والحفلات، ويكون بين تلاوة الافتتاح وتلاوة الختام ما لا يرضي الله من المخالفات والذنوب والآثام.

* * *

من هنا دخل علينا الشيطان، كما دخل من الأحاديث الموضوعة التي كشفها العلماء، وما زال يرددها بعض الجهلة من الوعاظ والخطباء، ومن يبتدع في الدين ما لم يأذن به الله ولا أرشد إليه رسول الله، ومن سوء فهم بعض الفقهاء لكلام الله وسنة رسول الله، ومما دخل علينا من شبه وضلالات على أيدي المنصِّرين المكفِّرين الذين يتسمَّون كذباً بالمبشرين، وأيدي المستشرقين الذين يتكلمون في العربية وفي الدين، وقليل منهم من المخلصين، الذين يؤتون من

ضعف العلم بالدين، وفقد مَلَكَةِ العربية التي لا تحصل بالتعليم والتلقين، وأكثرهم عدو للإسلام يدسُّ ويفتري ويلبّس دسّه وافتراءه ثوب التحقيق العلمي، كما كان يفعل كولد زيهير ولامنس وشاخت وأمثالهم وتلاميذهم الذين قرؤوا عليهم، ونشؤوا على أيديهم، ك (فيليب حتي) الذي جعلناه المرجع في التاريخ.

* * *

إن سبيل الإصلاح بيِّن ظاهر، إن شئنا سلوكه فليتفق الدعاة إليه على منهج واحد، نرتب فيه المقاصد التي ندعو إليها، نقدِّم الأهم منها على المهم، لا ندع الأصول ونتنازع في الفروع، وقد وضَّح الرسول ﷺ هذا المنهج لمعاذ لما بعثه إلى اليمن داعياً إلى الله، ومبشراً بالإسلام ومعلماً ومرشداً للراغبين فيه، فقال له: ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، إلى تصحيح العقيدة لأن العقيدة هي الأصل، هي الأساس، فإن ارتفع البناء عشرين طبقةً في الهواء بغير أساس لم ينفعه الارتفاع، ومن قام الليل كله وصام الدهر كله، وفي إيمانه شرك، كان كالتلميذ الذي أخذ أسئلة الامتحان وقعد في داره فأجاب عليها كلها، ولكنه سحب أوراقه من المدرسة، ومحى اسمه من سجلاتها.

درسٌ واحد أمره أن يعلمه الناس، هو صدق التوحيد، وصحة العقيدة، فإن هم وعوه واستقرَّ في قلوبهم، انتقل إلى الدرس الثاني وهو الصلاة، ثم الزكاة، منهج مرتب، فما بالنا في غفلة عن منهج رسول الله ﷺ، ما بال كل داع يخترع منهجاً غيره يبدأ الطريق من وسطه أو من آخره، ويأخذ المسألة من ذنبها، حتى صارت الدعوة فوضى، والطرق فيها متداخلة ومتقاطعة.

وإذا كان شياطين اليهود قد وضعوا مخططات لإفساد بني الإنسان، تستمر على زعمهم أكثر من مئة عام، فلم لا يجتمع حكماء المسلمين

من أهل الإصلاح، فيضعوا مخططات للدعوة يدعونها: (مخططات حكماء حراء)، لتقوم لأهل الحق مقام (مخططات حكماء صهيون) لأهل الباطل.

إن الدعاة منا كثر، والمسلمون حاضرون ليستجيبوا لهؤلاء الدعاة، فإن لبثوا على خلافهم وتنازعهم، وتضارب مناهجهم، كان عليهم إثم أنفسهم، وإثم هذه الأمة التي تمشي وراءهم وتقتدي بهم.

وبعد فهل كنت أنا في عملي كله، في هذه السنين الستين، أعمل لوجه الله وحده، لا أبتغي غير ذلك شيئاً، ولا أخلط به دنيا؟ ألم يكن يسرُّني أن يقول لي الصالحون: أحسنت، ويسؤوني أن يقال: أسأت؟ ألم أكن أفرح إن جاءتني كتاباتي وأحاديثي بالمال الحلال؟.

إني الآن وأنا في آخر العمر وعلى مقربة من القبر، أسأل نفسي، أقول: يا نفس، أليس بالواقع؟ فتقول: بلى. فأقول: لم يا نفس خلطت قصداً صالحاً بقصدٍ سيء؟ فتقول: إنها طبيعتي التي طبعني الله عليها، والتي لا يقوى على التخلص منها إلا النادر من عباد الله المخلصين.

فأقول: فما جوابك عند سؤال ربِّ العالمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ فتقول، أجيب: غرَّني يا رب ما وصفت به هنا نفسك، لتذكّرنا به بعفوك، غَرَّني بك أنك الكريم، فإن عاملتني بعدلك خسرت وضعت، لأني ظلمت نفسي وأسرفت عليها، فأنا أخاف عقوبتك، ولكني لا أقنط من مغفرتك، فاغفر لي وارحمني، وارحم من يقرأ هذا الكلام فيقول: آمين.

اللهم صل على محمدٍ وعلى آل محمد، واغفر لي، فإنَّ الصلاة على رسولك تقبلها لا تردها، وقد قرنتها بطلبِ المغفرة لي فلا تفرق اللهم بينهما.

رب اغفر لي ولوالدي ولذريتي، واغفر اللهم لكل من مات مؤمناً بك وبملائكتك وكتبك كلها ورسلك جميعاً.

اللهم إنَّ رحمتك لا تضيق بالمسلمين وقد وسعت كل شيء.

علي الطنطاوي

في سبيل الإصلاح
مقدمة الطبعة الأولى[1]

(في غرة رجب سنة ١٣٤٨) كانت «رسائل في سبيل الإصلاح» أول ما نشرت، وقد قلت في مقدمتها: إننا «إن لم نجد في عصرنا من المصلحين، كالذين كانوا في الصدر الأول، فلا أقل من أن نتشبَّه بهم، ونسلك سبيلهم، فنصيح بالناس بقدر ما في حناجرنا من قوة، ندعوهم إلى الإصلاح، وندلّهم على طريقه، وإذا جاءت أصواتنا خافتة فضاعت في جَلَبة المجتمع فلم تُسمع، فإن حسبنا أن فعلنا ما استطعنا.

وهذه الفصول صيحتي، وإنها لضعيفة، بل هي أشبه بالهمس، ولكنها غاية جهدي، ولم أرد أن أدلّ بها على علم عندي فإن كل ما قلته يعرفه القراء، ولكن أردت أن أذكّر بها من نسي، وأُنبِّه من غفل».

واليوم (في غرة رجب ١٣٧٨)، أنشر كتابي هذا «في سبيل الإصلاح»، فلا أجد ما أقدم له به، إلا هذا الكلام الذي قلته قبل ثلاثين سنة كوامل.

هذه هي كلمتي أقدمها (بين يدي الكتاب)، وهذا هو الكتاب أضعه (بين أيدي القراء).

علي الطنطاوي

---

(١) سنة ١٣٧٨هـ = ١٩٥٩م.

هتاف المجد

علي الطنطاوي



المقدمة[1]

قصتنا مع اليهود[1]

قعدت أكتب كلمة أقدم بها هذه الطبعة للناس[2]، فوجدته أنه قد مرَّ على آخر طبعة له تسع وعشرون سنة، حدثت فيها أحداث، ووقعت فيها وقائع، منها ما هو لنا، وأكثرها علينا، لو أنّي سلكت في وصفها أو الإشارة إليها، أو التعليق عليها مسلكي في هذا الكتاب لكان من ذلك كتاب مثله أو أكبر منه.

ولقد رأت هذه الأمة في تاريخها الطويل، من النصر والهزيمة، والأيام البيض والأيام السود، ما تراه كل أمة، ولكن الذي تواجهه أمة محمد الآن أشد من كل ما واجهت في سالف الأيام، إن أعداءها يكيدون لها الآن كيداً (مدروساً)، يُعدّون لحربها خططاً تعمل لها عقول كبيرة جداً، وتُنفق عليها أموال كثيرة جداً، وتسندها جماعات (بل دول) قوية جداً، ولا نيأس مع ذلك كلِّه من الظفر، لأن الله وضع لنا في أمور الدنيا وأمور الآخرة سنناً لا تختلف، هي مثل السنن التي سنَّها الله للوجود، أعني القوانين التي نسميها القوانين الطبيعية، لا يؤثر فيها اختلاف المكان ولا الزمان: قانون الجاذبية مثلاً الذي وضعه الله يوم خلق العالم، واكتشفه (نيوتون) من قريب، يسري في البلاد التي تتلهب

---

(١) طبعت هذه المقدمة في رسالة صغيرة بنفس العنوان، وصدرت عن دار المنارة عام ١٤١١هـ - ١٩٩٠م (مَجد).

(٢) مقدمة الطبعة الثانية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م (مَجد).

من الحرِّ عند خط الاستواء، وفي الجبال التي يُغطي هامها الثلج، عند القطبين، وتَنْفُذُ الآن كما نفذت قبل قرون وستظل نافذة بعد قرون وقرون.

ومنها: أنَّ (العاقبة للتقوى) وأن للباطل صولة، ولكن الظفر للحق.

ولما قبض رسول الله عليه صلاة الله، ارتد بعض العرب عن دينه، أو أرادوا هدم ركن من أركانه هو الزكاة، وحسب ناس أنها نهاية الإسلام، فما هي إلا أن قام رجل واحد يهزُّ راية القرآن، ويضرب بسيف محمد حتى عاد المرتدون إلى الدين، وعاد الإسلام أقوى مما كان.

ويوم وقفت لنا أوربة كلها وكانت جيوش الصليبيين أولها في القسطنطينية وآخرها في وسط أوربة، وتوالت الحملات، واشتد البلاء، وغدت لهم في الشام دول وإمارات، ولبثت القدس نفسها في أيديهم أكثر من تسعين سنة، ثم كتب الله النصر للحق.

ويوم سال سيل المغول من الشرق، كما جاء سيل الصليبيين من الغرب، وجرف الدول، وهدَّ العروش، وأخذ في طريقه أعظم مدن الأرض يومئذ: بغداد التي كان فيها مليونان من البشر في تلك الأيام، والتي كانت عاصمة الدنيا، كل حسن فيها يحمل إليها. وألقيت كتبها في دجلة حتى اسود منه ماؤها عند الضفتين، وما ذاب فيه الحبر الذي كتبت به، ولكن ثمرات العقول ونتاج الأدمغة، وخلاصة الفكر البشري.

وما حاق بالمسلمين من قبل ومن بعد من نكبات وأرزاء، فما ضرّها ذلك كله، لأنها كانت تعرف كيف تمدُّ يدها إلى السلاح (والسلاح قريب منها)، فتوجهه إلى أعدائها، وتعرف كيف تشعل المصباح (والمصباح عندها)، فتبدِّدُ به الظلام من حولها. وما المصباح إلا هذا القرآن، وما السلاح إلا القلوب المؤمنة، والعقول المفكرة واليد العاملة التي تعرف كيف تعدُّ القوة لحرب عدوِّها، مبتغية بذلك رضا ربها، لا نيل المكاسب من دنياها.

وآخر ما ابتليت به الاستعمار: لقد فتحت عيني على الدنيا في أوائل هذا القرن الميلادي وما في ديار الإسلام بقعة لم يدخلها أو يَحُمْ حولها الاستعمار، إلا هذه الجزيرة التي عصمها الله أن تطأها نعال جندي أجنبي، أو ترفرف عليها رايته، ولقد كنت أظن وأنا صغير أن من أصعب الصعب طرد المستعمر من أرضنا، فسهَّل الله الصعب، وأدنى البعيد، وعادت البلاد إلى أهلها.

لم يأتنا الاستقلال عفواً بلا تعب، ولكن بذلنا له أرواحنا، وأرقنا دماءنا، وجاهدنا، وجالدنا، وعملنا كل ما استطعنا.

وانجلت الحرب الكبرى وإذا نحن نُبتلى بما هو شر مما كنا فيه، ابتلينا بشرار الخلق وأخسِّ الأمم. اليهود. لا الذين اتبعوا موسى وآمنوا به، بل الذين كفروا بموسى وعيسى كما يكفرون بمحمد، وبدلوا دينهم وكانوا شيعاً، يختلف طريقها ولكن تتحدُّ في عداوتنا غاياتها.

وكذلك يصنع الآخرون، إنهم إذا كان موقف فيه حرب الإسلام كانوا جميعاً علينا. كان بين أمريكا وروسيا ما صنع الحداد (والنجار، والذي يعمل الرشاشات والمدافع). كانوا يختلفون على كل شيء، ولكن لما قامت هذه الدولة التي ولدت لغير أب شرعي، والتي جاءت مسخاً مشوهاً، دولة إسرائيل، تسابقت الدولتان إلى الاعتراف بها، ومباركة ولادتها قبل أن تبلغ يوماً وليلة من عمرها. ابتلينا باليهود.

ولو أنّي بُليت بهاشمي ... خؤولته بنو عبد المدان
لهان عليَّ ما ألقى ولكن ... تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

* * *

زعم اليهود أنهم مظلومون، وأنهم قد نكلّ بهم وأُوذوا، وأن هتلر أباد خضراءهم وقتل أبناءهم، فتحركت (الرحمة!) في قلوب الأقوياء من دول الأرض فأرادوا أن يجدوا لهم داراً فلم يجدوا إلا

أرضنا، فأجبرونا أن نخرج من مساكننا، وأن نمنحهم خيرات بلادنا، وجاء وزير المتمدنين الذين يلبسون جلود الظباء على أجساد الذئاب، فأعطاهم (وعداً) بأن يجعل لهم من قلب بلادنا ملجأً: يمنحهم ما لا يَمْلكُ، وهم لا يستحقون ما منح، فكانت فضيحة التاريخ البشري التي لم يُسمع بمثلها في حاضر ولا غابر، وها هم أولاء اليوم يدعوننا إلى السلام ونبذ الحرب يقولون: أليس السلام خيراً لكم، فلماذا تراق الدماء، وتزهق الأرواح؟.

إن السلام الذي يدعوننا إليه كالسلام بين اللص الذي اقتحم دارك وقتل بعض أهلك، وسكن في بعض منزلك، فلما أردت أن تخرجه، قال: انظروا إلى هذا (الإرهابيّ)...

ودعوا إلى الاجتماع على حرب الإرهاب[1].

لقد هببنا ندافع عن أرضنا، وهذا الدفاع حق لنا، ومن يسكت على من يحتل أرضه؟ أترضى أمريكا أو إنكلترا لو سرق عدوٌّ لها قطعة من أرضها عند واشنطن أو لندن، وقتل ونهب وارتكب السبع الموبقات ثم قال: لماذا القتال؟ تعالوا يا جماعة نتفاهم.

كنا سنة ١٩٤٨ نقاتل ولاحت لنا تباشير النصر، فأكرهونا على (هدنة) شَلَّتْ أيدينا، ومكنت لعدونا، وكان بنا نقص في القوة وفي التجربة، فخدعنا وصدقنا، فتمكن اليهود منّا وضربوا ضربة الجبان، والجبان إذا تمكن جمع قوته كلها وضرب ضربة واحدة، لا يقدر على غيرها، يضربها في ظلمة الليل، فيكون فيها نجاته أو مماته.

وقد انقضى الآن الليل، وتنبه الغافل، وكبر الصغير واشتد عوده، هل ترون الشجيرات التي تزرع على حافات الشوارع تكون ضعيفة

---

(١) إننا نسمع كل يوم عن فلسطيني أخذ بتهمة (مقاومة الاحتلال) فهل تكون تهمةً مقاومة الحرامي المجرم الذي جاء يحتل دارك؟

فيمسكونها في قفص من الحديد، تعتمد عليه ولكنه يكون كالقيد لها، فإذا غلظ ساقها، واعتمدت على نفسها، نبذت القفص عنها. أو استدار عليه جذعها فاحتواه.

فنحن اليوم كالشجرة التي اشتد عودها، وكنا يوماً كالغصن الطري الذي كان يحتاج إلى ما يدعمه ويعمده.

لقد بدأت الأمور ترجع إلى نصابها، وانزاحت الغشاوة قليلاً فرآها الناس على حقيقتها، وما أزاحها إلا حرب رمضان. أعني حرب أكتوبر أو تشرين، صغرت إسرائيل في عيونهم بعد تلك الحرب وزادت صغاراً بعد هذه الانتفاضة المباركة، كانت كالبالون الذي يلعب به الأولاد، فأصابه ثقب. . . فخرج منه بعض الهواء، لقد بدأت إسرائيل تفتضح وتظهر حقائقها، حتى إذاعة إسرائيل صارت بعدها هزأة ولم يعد يصدقها أحد، حتى دعايتها وإعلامها التي طالما خوَّفت به، لم تستطع يوماً أن تصنع شيئاً مع (كرايسكي) مستشار النمسا، مع أنه يهودي تنصَّر، سلَّطت إسرائيل عليه سيوف إعلامها، واستعانت عليه بأنصارها وحماتها، وضغطت عليه بكل قواها، حتى تدخل نيكسون بذاته، وذهبت عجوز النحس كولدامائير بذاتها، ليعيد فتح (ممر الشر) في (شوناو). الذي مرّ منه إلى إسرائيل ثمانون ألفاً فيهم كثير من أهل الفكر أو الفن أو الصناعة ليكونوا جنوداً لإسرائيل في حربنا، فعادت إسرائيل بإعلامها وحماتها ورئيسة وزرائها بالخيبة والهوان، وكان ذلك في حرب رمضان.

بكتْ إسرائيل وشكت أننا هاجمناها في يوم الغفران، ولم نحترم مقدساتها. . . ! وأنا أسأل أولاً من قال لإسرائيل أنها قد ضمنت الغفران وحددت له يوماً؟. كذبت إسرائيل. إن الله لا يغفر أن يشرك به، وإسرائيل (أعني شعبها لا إسرائيل الذي هو يعقوب نبيُّ الله عليه السلام) إسرائيل أشركت حين قالت عزيرٌ ابن الله، تعالى الله أن يكون له ولد، أو يكون له كفواً أحد. ما كان الله ليغفر لمن قتلوا النبيين، وكذبوهم، وافتروا عليهم، ولم يدعوا في قاموس الجرائم جريمة لم يرتكبوها،

فَعَدُّوا عن قصة الغفران هذه، ويوم الغفران، فليس أمامكم إلا النار، تصلونها في الدنيا بأيدينا بعون الله، ولنار الآخرة أشدّ.

أما المقدسات، فما أوقح إسرائيل! . . . .، هل احترمت مقدسات أحد حتى تطالب بأن تحترم مقدساتها التي لا قداسة لها؟ أما أحرقت المسجد الأقصى؟ أما حاولت زعزعة أساسه؟ وهزَّ أركانه، لعله يسقط؟ أما حفروا بحذاء جداره ـ ينزلون في بطن الأرض يأملون أن يصلوا إلى الأساس فيظهر تحته أثر من هيكل سليمان ـ تبلغ الحفر أكثر من خمسة عشر متراً. وليس أمامهم إلا جدار الأقصى، ولو حفروا بحذاء قلعة خمسة عشر متراً لتزعزع جدارها ومالت لتنهار.

أما دنسوا وآذوا كنيسة القيامة التي يقدسها النصارى وسرقوها؟ سرقوا الكنيسة كما أحرقوا المسجد! . . .، لصوص ومخربون، ويبكون ويشكون أن هاجمناهم في يوم عيدهم، وهم الذي لم يتركوا لأهل فلسطين عيداً يعيّدون فيه، لقد حوَّل هؤلاء المجرمون أعيادهم مآتم.

هل رعَتْ إسرائيل مريضاً؟، أما خربت المستشفيات وقتلت المرضى والأطباء والممرضات؟

هل رعت طفولة؟، حتى تطلب أن يرعى الناس أطفالها؟

هل تذكرون أنّي قلت لكم عشرين مرة، ـ كررت القول حتى مللتم ـ أن إسرائيل ليست كما تظنون، إنها ضبع تعيش على الجيف وجَدَتْ جلد سبع أو قُدِّم لها فلبسته، وحملت شريطاً مسجلاً عليه زئير سبع فظنها الناس سبعاً، ثم قلدت أشعب فَصدقَتْ هي نفسها.

كان الناس يظنون أن استخبارات إسرائيل أقوىٰ استخبارات على وجه الأرض، وإنها تعرف حركاتنا وسكناتنا، حتى لقد ظن ناس منا (واستغفر الله الذي لا إله إلا هو) أنها تعلم ما تخفي صدورنا. فها هي ذي فوجئت (يوم حرب رمضان) بالهجوم، ولم تستطع استخباراتها أن تُحسَّ به أو تشم له رائحة. . .

وبارك الله في هؤلاء الجنود الذين تعلَّموا من حرب ١٩٦٧ فضيلة الكتمان، بل تعلموها من سيرة محمد ﷺ، إن محمداً القائد استطاع يوم الفتح أن يُخفي تحركات جيش من عشرة آلاف كان في جزيرة العرب في تلك الأيام يُعَدُّ جيشاً ضخماً، فيه من كل القبائل، ومع ذلك فقد سدَّ كل طريق يصل منه خبره إلى قريش.

ومعركة بدر الظافرة كانت بعدها هزيمة، وإن كان ثبات الرسول ﷺ وصحبه الكبار، ردَّ الهزيمة ظفراً، ذلك لتعلموا أن الحروب سجال، والدهر دولاب، والدنيا ليل ونهار، والأرض صعود جبل وهبوط واد، ولكن العبرة بالنهاية، والأمور بخواتيمها، والنهاية لنا إن شاء الله، للإسلام، ما دمنا معه فالنصر لنا.

إن الذي صنعناه في رمضان شيء عجيب، تصوروا لو أن تلاً من الرمال غير ممهد علوُّه عشرون متراً كلفت صعوده لتعبت، فكيف إن كان حوله من يقذفك بالحجارة ليمنعك من صعوده، فكيف إن كان بدل الحجارة الرصاص والبارود، فكيف إن كا هذا الرمل يُغطي حصوناً من يابس الصخر ومتين الأبرق (أي الإسمنت المسلح)، فيها المدافع والدبابات وأقوى المتفجرات، فكيف اقتحمها جنود مصر؟! أقوى وأحدث خط دفاع، كلف ٢٨٣ مليون دولار اجتازوه بأقدم وأضعف وسيلة هجوم، بسلم من خشب ثمنه ثلاثة دولارات كيف تمت هذه الأعجوبة؟!. . . بالإيمان ومعه ما يستلزمه الإيمان ويطلبه العقل والدين من الخطط والسلاح والكتمان، كل هذا لا بدَّ منه، ولكن كل هذا كأعضاء الجسد، والإيمان الروح، وفي حرب ١٩٦٧ كان عندنا هذا كله ولكن بلا روح الآن جاءت معه الروح، وهو نزول عجيب، لعله مثله نزول الحلفاء على ساحل نورماندي خلال الحرب الأخيرة، بل أعظم، وأحسب أن نزول المصريين يوم ٦ تشرين الأول ١٩٧٣ على ضفة القناة الأخرى سيدخل في تاريخ الفن العسكري الذي يدرس في الكليات الحربية.

لقد دهش العالم وعجب مما رأى من جنودنا في سيناء وفي الجولان، وكان عليه أن يعجب من هزيمتنا في حرب ٤٨ وحرب ٦٧ لا من ظفرنا في رمضان، العجب مما يأتي من غير أهله، ابن حاتم الطائي لا يعجب منه أحد إن كان كريماً، لأن الولد سرُّ أبيه، (ومن شابه أبَه فما ظلم)، ولكن العجب أن يبخل ويشحَّ ابن حاتم الطائي:

تعجبين من سقمي؟ صحتي هي العجب

العجب أن يظفر اليهود الذين ضُرِبَت عليهم الذلَّة والمسكنة، لا أن يظفر أبناء من فتحوا الشرق والغرب، وكانوا سادة الدنيا وأساتيذها، على أننا ما غلبنا نحن في الحربين: ٤٨ و٦٧، ولا اليهود ظفروا، إنما علبت فينا خلائق اليهود التي دخلت علينا في غفلة منا، خلائق الانقسام والتردد، وفقد الكتمان، وارتجال الخطط، والإصغاء لمشورة الأعداء.

صغرت إسرائيل أكثر لما بدأت هذه (الانتفاضة)، صبيان يقاتلون بالحجارة جيشاً يملك أعتى وأقسى ما أوحى به الشيطان إلى أوليائه من وسائل القتل والتدمير والهلاك، وحسبوها فورة حماسة تستمر ساعات ثم تخمد، تمتد يوماً أو يومين، فإذا هي تستمر الشهر والشهر الذي بعده، والشهور تتوالى والانتفاضة لا تزداد إلا قوَّة، ذلك بأنها ليست حركة وطنية، ولا قومية، ولا لمجرد استرداد الأرض، وطرد الواغل الدخيل منها، هذه كلها مقاصد قد تشترك في مثلها أمم الأرض، بل لأنها جهاد، جهاد بالمعنى الذي عرفه الإسلام، بذل الروح لله وحده، وابتغاء الجزاء منه وحده، جهادٌ مَنْ يظفر فيه يَظْفَر بنيل الأمانيّ وبلوغ الغايات، ومن يَمُتْ يَنَلْ ما هو أكبر من مِتَع الدنيا كلها رضا الله والجنة.

كتب الله لهذه الانتفاضة الاستمرار والقوة، كما كتب مثل ذلك للحرب الجهادية في الأفغان لأنهما قامتا لله لا للدنيا، وما كان لله فهو المتصل.

رحم الله الملك العبقري عبد العزيز الذي كان ينظر بنور الله: لما استعدت الدول العربية السبع لدخول فلسطين والقتال فيها، كان من رأيه أن نُسلِّح أهل فلسطين ونمُدُّهم بالمال ونَدَعْ لهم حرب اليهود، لقد بدا الآن الدليل على صحة رأي عبد العزيز.

هؤلاء الذين لا يملكون إلا حجارة أرضهم وأيديهم التي تطلقها، لو كان عندهم مثل سلاح اليهود، أو كان عندهم نصفه، أو رُبعه أو عُشْره هل كان يبقى اليهود في فلسطين؟

وعبقري عربي آخر[1]، أستاذنا في كلية الحقوق سنة ١٩٣١ الذي مات مسلماً، لما كان رئيس مجلس الأمن سنة ١٩٤٧ وقال كلمته المشهورة: إنَّ قضية فلسطين لا تُحلُّ في أروقة مجلس الأمن بل تُحلُّ على ثرى فلسطين.

إنكم ترون أننا بحجارة أرضنا، وسواعد أبنائنا، نكاد نطرد الكلاب من بلادنا.

إن الذين دعوتموهم جنود الحجارة ما ضعفوا وما استكانوا، جادوا بأرواحهم (والجود بالروح أقصى غاية الجود) ثبتوا هذه الأيام الطوال فما عليهم ملام، ولكن نحن، نحن المسلمين الذين فرض الله علينا أخوتهم، وأوجب علينا نصرتهم نحن ألا نُلام؟

أندعهم وحدهم يواجهون بالحجارة الدبابات والمدافع والرصاص والغاز الخانق وهاتيك الأهوال والمصائب، أيكفينا في شرع الله، في أدب الفروسية، في قواعد الشرف، أن نراهم في (الرائي) وأن نسمع عنهم في الإذاعات، وأن نُعجب بهم وأن نُصفق لهم:

فيمَ التقاطع في الإسلام ويحكُمُ   وأنــتُــمُ يــا عــبــادَ الله إخــوانُ

(١) هو الأستاذ فارس الخوري.

ألا نفوس أبيَّات لها همم　　أما على الخير أنصارٌ وأعوانُ

أسباب النصر رجال وسلاح، فما الذي ينقصنا منها؟ هل ينقصنا العَدَدْ، أم العُدَدْ، أم العلم؟ أما العدد فنحن، نحن المسلمين ألف مليون. فكم عدد اليهود؟ والعُدَدْ؟ إن ما لدى المسلمين جميعاً منها أكثر مما لدى اليهود، وفي المسلمين جميعاً من العلماء أكثر مما في اليهود أو هم مثلهم، فكيف غلبونا؟. كيف أخذوا منا قبلتنا الأولى ومسرى نبينا؟.

إنهم (أولاً) ما غلبونا بأنفسهم، ولا هم بالذين يستطيعون أن يغلبونا أو أن يعدلونا، ولكن بالذين أعانوهم علينا، وأمدوهم بالمال والسلاح وبالناس، السلاح من الغرب من أميركا، والناس من الشرق، من بولونيا وروسيا، إنهم يختلفون فيما بينهم ولكن إذا جاءت عداوة الإسلام نسوا اختلافهم وصاروا صفاً واحداً، ويداً واحدة علينا. لما قامت هذه الدولة الباغية العاتية التي سمَّوها دولة إسرائيل تسابقت أمريكا وروسيا إلى الاعتراف بها ومباركة مولدها.

ثم إنهم ما غلبونا (ثانياً) بقوتهم لكن بضعفنا وتفرقنا وانقسامنا. الأب يؤدب أولاده إذا أساؤوا وعصوا، والله (ولله المُثُل العليا، وتعالى الله أن يكون كمثله شيء) يأخذ عباده المؤمنين ببعض الألم ليعودوا إليه، ويبلوهم (أي يختبرهم) بشيء من الجوع والخوف ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، يُنبههم إذا أساؤوا وانحرفوا ليحسنوا ويستقيموا، ونحن أسأنا وانحرفنا، أمرنا الله أن نتمسك بدينه، ونعتصم بحبله، ونكون جسداً واحداً له شعور واحد، وتكون رحمتنا وعاطفتنا لإخواننا، وشدَّتُنا وحِدَّتُنا على عدوّنا. فما صنعنا؟ هل أطعنا أمره؟ أم حِذْنا عن سبيله، وتركنا الحق من ديننا للباطل من دين عدوِّنا، وانقسمنا وصرنا شيعاً، وجعلنا شدتنا وقوتنا على إخوتنا، وَلَطُفْنا وضَعُفْنا أمام عدونا، لذلك عاقبنا الله فجعل امرأة عجوزاً تهددنا مرَّة، ويسلبنا قومها

وهم أذلُّ الأمم، مسرى نبيّنا، نعم عاقبنا الله بأذلِّ الأمم كما يُعاقب الجبابرة بأضعف مخلوقاته، بحيوان لا يُرى، بالجراثيم، فتذلُّ جبروتهم، وجعل امرأة أخرى تضع يدها على تسعين ألفاً من أسرانا، تسعين ألفاً كآساد الشرى فلا نملك ونحن سبعمئة مليون أن نطلقهم.

إنها يا سادة عقوبة كعقوبة الأب الرحيم، إنها كما قال الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك راحماً   فليقسُ أحياناً على من يرحم

ولكن هل تدوم؟ لا، وأُؤَكِّدُها وأجزمُ بها، لا تأكيد حماسة فارغة مثل الطبل، بل تأكيد الفعل والواقع.

لقد علمونا في المدرسة أن كل أمر مخالف لطبيعة الأشياء التي طبعها الله عليها لا يمكن أن يدوم، فهل ترونه أمراً طبيعياً أن تعيش دولة صغيرة قائمة على الباطل، على سرقة الأرض وطرد سكانها، ولو صارت ثكنة ممتلئة بالجند، ولو غَدَتْ قلعة محصنة الجوانب، ولو بلغ سكانها مليونين أو ثلاثة ولن يبلغوها، هل يمكن أن تعيش وسط بحر يمتد على مدى ثلث محيط الأرض فيه ألف مليون كلهم عدو لها، عادوها لظلمها وبغيها لا كرهاً لها وعدواناً عليها، ولو هي عاشت عشراً أو عشرين أو سبعين أو ثمانين عاماً، فهل تعيش الدهر كله؟ وما سبعون أو ثمانون عاماً في أعمار الأمم؟. لقد بقي الاستعمار البرتغالي في أنغولا وموازنبيق مثلاً خمسمئة سنة فهل استمر الاستعمار البرتغالي لأنغولا وموازنبيق؟ وقسمت بولونيا (بولندا) مرات وتقاسم جيرانها أجزاءها ثم عادت بولونيا، بل لقد غزا ديار الشام من هم أكثر من اليهود عَدداً وأقوى جنداً وعُدداً وأقاموا فيها دولاً عاشت دهراً، ثم دالت هذه الدول وعاد إلى الأرض أصحابها، أما بقيت القدس قرابة قرن من الزمان بيد الصليبيين، فهل دام في القدس حكم الصليبيين؟.

إن القوة المادية لا بد منها، والله أمرنا باتخاذ أسبابها فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ جاء لفظ القوة منكراً ليشمل كل قوة

كانت أو تكون، نُعِدُّ كل ما قدرنا عليه، وما استطعنا الوصول إليه، لكن النصر ليس موقوفاً عليه، ولا مرتبطاً حتماً به، بيَّن لنا ربنا أنها لمجرد الإرهاب: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أما النصر ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إنها بشارة وتطمين: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، إنه ربما نصر الله الفئة الأقل عدداً، والأضعف سلاحاً ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾.

إن أقوى أسلحة النصر، الإيمان، حتى الإيمان بالجبت والطاغوت إنه يكسب صاحبه النصر العاجل كقصة أهل فيتنام مع أقوى دولة في الأرض الأميركان، فإن كان إيماناً حقاً إيماناً بالله وملائكته وكتبه ورسله، ضمن النصر الكامل، والدليل روسيا والأفغان.

إن في داخل النفوس شيئاً اسمه (القوَّة المدخرة) طالما تكلمت عنها، تظهر في الشدائد، وعند الاضطرار، وساعة اليأس، إن الهرة إن استيأست تهجم على الذئب، بل إن الدجاجة لتحمي أفراخها تجرؤ على الكلب العقور، إن الرجل الذي يروح إلى داره تعبان، جوعان لا يبتغي إلا كرسياً يلقي بجسده عليه إذا رأى الدار قد شبت فيها النار، أو رأى الصغار تَحفُّ بهم الأخطار، نسي تعبه وجوعه وصبَّت القوة في أضلاعه صبّاً، فمن أين جاءت تلك القوة، إنها (القوة المدخرة)، إن الذين لا يستطيع أن يَعْدُو مئة متر، إذا لحقه سبع ضار أو مجرم مسلح ولم يجد مخلصاً إلا الهرب يركض نصف ساعة، إن الإيمان يثير هذه القوة المدَّخرة، لذلك كانت العزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين.

ستقرؤون في هذا الكتاب وصف بعض ما كان منا في جهادنا لاسترداد استقلالنا، وفي كل بلد مسلم ابتلي بالاستعمار مثل هذه الأخبار، وما نسمعه ونقرؤه من أنباء المجاهدين في الأفغان، وما يصنع أطفال الحجارة في فلسطين كثير من أمثالها.

إن اللص الذي ينام ويده على سلاحه لا يستطيع من الخوف أن يستسلم للمنام، فكيف يشعر اليهود بالأمن والاستقرار في فلسطين ونحن لهم بالمرصاد، وكلما ولد مولود منّا لقنّاه مع لبن الأم الاستعداد لحربهم وتطهير أرضنا من رجسهم؟.

نحن أكثر من اليهود عَدداً، وعندنا من العدد والعلم الذي يصنع العُدد مثل الذي عندهم، إن لم نكن نملك منه أكثر مما يملكون هم، ثم إن عندنا ما ليس عندهم، عندنا الحق الذي نؤمن به، ونقاتل دونه، وما عندهم إلا الباطل، وأيُّ حق لهؤلاء في فلسطين وما هم ولا آباؤهم منها، ولا صلة لهم بها، ولا دينهم من دينها، وما لسانهم بلسانها، ولا هم أصدقاء أهلها، ولا يبتغون الخير لها.

وعندنا قبل ذلك وعد الله المؤمنين بالنصر وأن العاقبة لهم، فهل يغني عنهم وعد بلفور بإعطائهم أرضاً لا يملكها ولا معه وكالة من أهلها، وأين وعد الله من وعد بلفور؟، ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾.

لقد مرَّ يوم على هذه الأرض المسلمة كان فيها من الضعف والانقسام أكثر مما نراه فيها الآن، أيام الحروب الصليبية، لما كان في سورية يومئذٍ من الدول بمقدار ما فيها من المدن، وكان النزاع قائماً بينها، وكان في قرية شيزر (قرب حماه) دولة، وفي صرخد (ويدعونها اليوم صلخد في جبل الدروز) دولة، وكان الساحل كله بيد الصليبيين، فما هي إلاّ أن نهض عماد الدين، ثم نور الدين، ثم صلاح الدين فنشروا راية الإسلام، وضربوا بسيف محمد حتى غدا الانقسام وحدةً، والضعف قوة، والمغلوب غالباً، وكذلك يصنع الإسلام في كل زمان ومكان.

لا ليست معركتنا مع اليهود، ومتى كان اليهود أهل قتال؟ أيوم قال لهم رسولهم: قاتلوا، فقالوا: اذهب أنت وربك فقاتلا، أم يوم دعاهم

إلى الفتح وقد مهَّد الله لهم أسبابه، وفتح لهم بابه، فارتجفوا كالشياه المذعورة وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة: ٢٢].

هذه بطولاتهم، يريدون من يحارب عنهم، من يُخرج لهم العدوَّ من القلعة ليدخلوها فاتحين، وما تبدلت حالهم، إنهم لا يزالون كما كانوا، إنهم يقاتلون بسلاح سواهم، ويلوحون بقوة غيرهم.

على أنَّ قضية فلسطين لن تموت لأنها عقيدة في قلب كل مسلم، هل سمعتم أو قرأتم أن عقيدة يحملها في قلبه ألف مليون يمكن أن تموت. إن الناس يموتون في سبيل العقيدة، وما ماتت عقيدة قطّ من أجل حياة إنسان، إنها ليست قضية أهل الضفة والقطاع، إلى متى تقولون: الضفة والقطاع، إنها فلسطين، إن اليهود يريدون أن يُنسى اسم فلسطين، فلا تكونوا عوناً لهم على ما يريدون.

ليست قضية أهل فلسطين وحدهم، ولا قضية العرب، لماذا تسمونها عربية، وفي العرب من لا يرى فيها رأيكم ولا يدين بدينكم، ومن قد يكون هواه مع عدوكم، ولِمَ لا تجعلونها إسلامية؟. إن أيدي المسلمين جميعاً تمتد إليكم لتكون معكم إن جعلتموها جهاداً في سبيل الله، ودفاعاً عن المسجد الأقصى، والأرض التي باركها الله حوله، فلماذا لا تصافحون هذه الأيدي فتصير مع أيديكم يداً واحدة على عدوهم وعدوكم.

يقول الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ فالنصر مقرون بطاعة الله، فلما بعدنا عنها، ابتعد النصر عنا، حتى إذا عدنا فدنونا منها قليلاً في حرب رمضان سنة ١٣٩٣، دنا منا.

لما كان هتافنا (أمجاد يا عرب أمجاد) لم تنصرنا أمجاد العرب، لأن مجد العرب الحق ولد يوم ولد محمد، لولا محمد لم يكن للعرب إلاّ المعلقات، وقصر غمدان، ومعارك بين القبائل، لم تبن مجداً، ولا خلَّدت ذكراً، ومآثر لم تدر بها روما ولا القسطنطينية ولا مدائن كسرى، فلما جاءهم محمد بالإسلام جعلهم به سادة الأرض وأساتذتها وجعل

منهم مُثُلَ البشرية العليا في الفضائل والمفاخر، حتى إذا كانت معركة رمضان وذكرنا النشيد العلوي الذي كنا نهتف به من قبل نشيد (الله أكبر) وضعنا أقدامنا على طريق النصر.

كنا كلما عَدَتْ إسرائيل علينا فزعنا إلى (مجلس الأمن) كما يصنع التلميذ الضعيف في المدرسة يضربه الأقوياء فيذهب إلى الأستاذ: أستاذ (فلان ضربني) فيقول الأستاذ للضارب: (عيب يا ولد لا تضرب رفيقك) ويغمز بعينه يقول له: لا تخف أنا معك لن ينالك أذى. كأنَّ مجلس الأمن إنما أُنشىء ليكفل الأمن لإسرائيل وحدها. وهذا الولد المدلل قريب المدير فهو يُؤْثره على الأولاد، ويُعنى به من دونهم، فكان يتعدى على الكبار فلا يستطيعون أن يردوه خوفاً من المدير، حتى تمرَّد الولد وطغى، وضاق بهم الصدر ونفذ الصبر فأمسكوا به، فشدوا أذنه وصفعوا خده، وضربوه بالنعل، وقالوا له: اذهب أنت الآن فاشتك.

* * *

وبعدُ، فأنا رجل معتزل. كنت من أيام شبابي أمضي جُلّ وقتي في داري، عاكفاً على كتبي، وقد زاد ذلك بي لما شخت وفترت همتي، وكلَّ عزمي، ودخلت عشر التسعين من عمري.

حضرت مؤتمراً عامّاً مرة واحدة، في المؤتمر الإسلامي في القدس سنة ١٩٥٣، الذي شارك فيه رجال من بلاد الإسلام كلها، وقد شرَّفوني فكلفوني أن أخطب فيه، يوم افتتاحه، فكان مما قلت:

إن الله نزل القرآن وتولى حفظه، فالعاقبةُ للإسلام، ما في ذلك شك لأن وعد الله هو الحق، والله لا يخلف وعده، فإن عدنا إلى ديننا، وجعلناه دستور حياتنا، في سلمنا وفي حربنا، جعل الله هذا النصر على أيدينا، فربحنا عز الدنيا والآخرة، وإن كانت الأخرى استبدل بنا قوماً غيرنا فكان الفتح على أيديهم، والنصر لهم، وعدنا نحن كفقراء اليهود، لا دنيا ولا دين ـ لا قدَّر الله ذلك علينا ـ.

علي الطنطاوي

مقدّمة الطبعة الأولى

هذا هو الكتاب التاسع من سلسلة كتبي الجديدة. وفيه مقالات وخطب، أَما الخطب فقد ألقي أكثرها في هذه السنوات الأخيرة. لذلك لم أجدد تاريخها، ولذلك جاء فيها معان مكررة، وأفكار معادة وهذه الخطب لم تنشر قبل الآن.

وأنا أعتاد هذه المنابر من أكثر من ثلاثين سنة، ولكني كنت أخطب ارتجالاً، فيضيع ما قلت، ولو أني دوَّنت كل ما كنت ألقيته كما دوَّنت هذه الخطب، لكان لديَّ منها ما يملأ عشرة كتب من أمثال هذا الكتاب.

وعند الله أرجو عليها الثواب

دمشق: ١٠ شعبان سنة ١٣٧٩هـ
٨ شباط سنة ١٩٦٠م

علي الطنطاوي
مستشار محكمة النقض

تعريف عام

بدين الإسلام

علي الطنطاوي

طبعة منقحة

دار المنارة
للنشر والتوزيع
جدة - السعودية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قصة هذا الكتاب

في صدر الطبعات السابقة، فصل عنوانه (قصة هذا الكتاب)، أعدت النظر فيه اليوم، فوجدت أني لم أسرد فيه القصة من أولها.

ولعل أول القصة كان أيام الحرب الأولى (حرب سنة ١٩١٤) وهي الأيام التي بلغت فيها سنّ التمييز، وأدركت ما يحيط بي، فوجدت في بيت أبي دروساً يلقيها على تلاميذه بعد الفجر، وقبل العشاء، وكانت دروساً تختلف عن دروس المدرسة التي كنت أذهب إليها، وكان التلاميذ فيها مشايخ بعمائم ولحى، لم يكونوا صغاراً كتلاميذ المدرسة، فكنت أستمع إليها ولو لم أفهمها كما أفهم دروس المدرسة. فكانت دراستي بذلك مزدوجة: درست في المدارس إلى نهاية الجامعة، وكنت مع ذلك أتلقى العلم عن العلماء. عن أبي (الشيخ مصطفى الطنطاوي) أولاً، وكان من صدور الفقهاء في الشام، وكان أمين الفتوى عند المفتي الشيخ أبي الخير عابدين، فلما توفي رحمه الله، في شعبان سنة ١٣٤٣ هـ، قرأت على غيره من العلماء[١].

---

(١) ثم اتصلت بعدد لا أحصيه الآن من العلماء. منهم من قرأت عليه، ومنهم من حضرت دروسه، ومنهم من جلست واستفدت منه، في الشام ومصر والعراق.

من هؤلاء الشيخ بدر الدين الحسني المحدث الأكبر، وقرينه السيد محمد بن جعفر الكَتّاني صاحب «الرسالة المستطرفة»، والشيخان المعمّران: الشيخ عبد =

فكنت أول من جمع في دمشق بين أسلوبَي الدراسة، وكان العلماء يومئذ بين (شيخ) لا يعرف من علوم الدنيا الحديثة شيئاً، وبين (أفندي) لا يفقه من علوم الدين شيئاً، إلا شيئاً قليلاً لا يغني ولا يجزي.

فتنبهت مبكراً إلى ضرورة عرض الإسلام بأسلوب عصري، وكتبت في ذلك مقالات، ونشرت رسائل، ذكرت فيها من نحو خمسين سنة[١] بعض الآراء التي أُوردها اليوم في هذا الكتاب.

= المحسن الأسطواني، والشيخ سليمان الجوخدار، ومفتي الشام الشيخ عطا الكسم، وخلفه المفتي الشيخ محمد شكري الأسطواني، وخلفه المفتي (الطبيب) الشيخ أبو اليسر عابدين، والسيد محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر، والشيخ عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر، والشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر، والشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر، وخالي محبّ الدين الخطيب، والشيخ أبو الخير الميداني، والشيخ صالح التونسي، والشيخ محمد بهجة البيطار، والشيخ توفيق الأيوبي، والشيخ أحمد النويلاتي، والشيخ عبد الله العلمي، والشيخ هاشم الخطيب، والأستاذ سليم الجندي، والشيخ عبد القادر المبارك، والأستاذ محمد كرد علي منشيء المجمع العلمي في دمشق. والشيخ المصنف الأديب الشيخ عبد القادر المغربي، والأديب الراوية الأستاذ عز الدين التنوخي، والأستاذ معروف الأرناؤوط، والأستاذ شاكر الحنبلي، والأستاذ سعيد محاسن، والشيخ عبد القادر بدران الحنبلي، والشيخ محمد الكافي المالكي، والشيخ نجيب كيوان الحنفي، والشيخ أمين سويد، والشيخ زين العابدين التونسي، والشيخ أمجد الزهاوي، والحاج حمدي الأعظمي العراقي، والشيخ قاسم القيسي، والشيخ زاهد الكوثري، والشيخ البشير الإبراهيمي الجزائري، والشيخ كامل القصاب، والشيخ عيد السفرجلاني.

وجوّدت القرآن على شيخ قراء الشام الشيخ محمد الحلواني، والشيخ عبد الرحيم دبس وزيت، وولده شيخنا (وتلميذ والدي) الفقيه الحنفي الشيخ عبد الوهاب، والشيخ عبد الله المنجد، وخلق غيرهم كثير.

أسأل الله لهم الرحمة والغفران، من ذكرت منهم هنا، ومن غاب الآن اسمه عن ذاكرتي، وأظن أني لو عددتهم لأربى عددهم على المئة جزاهم الله خيراً.

(١) ولكن ذلك لم يكن إلا بارقة برقت لي، لم تكن ضياءً يكشف لي الطريق، أو =

ففي رسالة «الإصلاح الديني»[1] في الصفحة (١١) منها، عند الكلام على ضرورة التدين، قلت ما نصّه:

(هل يمكن للإنسان أن يعيش بلا دين؟.

والجواب قطعاً هو: لا، إلا أن يعيش بالمادة وحدها، وينبذ كل ما وراءها حتى نفسه التي بين جنبيه، وحبه الذي يجيش به صدره، وشعوره بالطبيعة وجمالها، والطيور وتغريدها، والمقبرة ووحشتها).

ثم تحدثت عن عالم المثل الأفلاطونية، واستشهدت بأقوال (كانتْ) و (أوغست كونت) و (باستور) و (نيوتن) و (باسكال) و (مالبرانش) و (هارفي) و (غوليه) و (هوكسلي)، ذلك لأني كنت حديث العهد بدراسة الفلسفة، وكان مكتوباً على غلاف الرسالة (بقلم علي الطنطاوي بكالوريوس في الآداب وفي الفلسفة).

وكتبت، في الردّ على من يدّعي أن هذا الكون وُجد بالمصادفة، ما نصّه: (إذا وضعنا في كيس أربع كرات بيض وواحدة حمراء، وسحبنا واحدة منها، كان احتمال خروج الحمراء واحداً من خمسة، وإذا وضعنا

= يرسم لي خطة لتأليف هذا الكتاب، بل لم أكن أدري ما تأليف الكتب، ولا يخطر على بالي أني سأكون من المؤلّفين.

كانت بذرة صغيرة جمع الله لها شروط الإنبات، ربما كان منها شجرة ثابتة الأصل، ممتدة الفروع، تعيش دهراً، وربما طارت بها ريح، أو ذهب بها سيل، أو عبث بها صبي، أو نقرها طائر، فذهبت ولم يأت منها شيء، وربما خرجت منها بقلة هينة لا تعيش إلا شهراً، وذلك من أسرار خلق الله: إذ يُخرج المختلف من المؤتلف، والمتعدد من الواحد. الأشياء كلها من الذرة، والأحياء من الخليّة، والذرة والخلية خَلْقُهما في الجميع واحد.

(١) المطبوعة في دمشق سنة ١٣٤٨ هـ وهي الجزء الأول من «رسائل الإصلاح»، التي كان لصدورها أصداء، وأُلّفت في الكلام عنها كتب، منها كتاب «الإفصاح عن رسائل الإصلاح» للشيخ أحمد الصابوني الحلبي رحمه الله.

تسعاً بِيضاً وواحدة حمراء، كان واحداً من عشرة، فلو وضعنا ما لا نهاية له من البيض كان الاحتمال واحداً من لا نهاية، ولا يقول عاقل إن الحمراء تخرج حتماً من السحب مرة أو مرتين أو مئة مرة.

وهذه الكواكب التي لا نهاية لها، ليس لها إلاّ حالة واحدة، تجعلها تسير بهذا النظام، ويمتنع بينها الصدام، فكيف نقول إن هذه الحالة حصلت بالمصادفة من غير مسيّر حكيم عليم؟).

* * *

هذا ما قلته من أكثر من خمسين سنة في رسالة لي مطبوعة موجودة.

ثم صح العزم مني على إصدار كتاب في هذا الموضوع، وجعلتُ عنوانه «لماذا أنا مسلم؟»، وأعددتُ فصوله وأعلنتُ عنه، ونشرتُ مقدمته في رسائل «سيف الإسلام» التي كنت أصدرها سنة **١٣٤٩**هـ (**١٩٣٠** م)، ولكن تعذر الطبع، وضاعت الأصول، ولم يصدر الكتاب.

ولما ذهبت إلى العراق سنة (**١٩٣٦**) مدرّساً للأدب العربي في الثانوية المركزية في بغداد، وكلفت حيناً بتدريس الدين، جعل الطلاب يسألونني عن كتاب واحد، يفهمون منه الإسلام، لا يريدون كتاب تجويد، ولا كتاب توحيد، ولا كتاب تفسير، ولا فقه ولا أصول، ولا حديث ولا مصطلح، بل كتاباً في الإسلام، يعرضه كما كان رسول الله ﷺ يعرضه على من يفد عليه من العرب (أو الأعراب)، فيفهمونه في يوم واحد، أو بعض يوم.

فلم أكن أجد مثل هذا الكتاب. فكتبت في الرسالة، وكنت من كتّابها عشرين سنة كاملة من سنة تأسيسها إلى سنة احتجابها، كتبتُ مقالات أدعو فيها العلماء إلى تأليف هذا الكتاب، وأعدتُ الدعوة، فما

استجاب لها أحد إلا شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار، وإذا رجعتم إلى (الرسالة) وجدتم فيها ما كتب.

* * *

ومرت الأيام، ورأيت الطريق الذي كنتُ أسلكه وحدي، أو مع نفر من أمثالي، منذ خمسين سنة (طريق الجمع بين الإلمام بعلوم الدين، والإلمام بعلوم الدنيا)، وقد كثر بحمد الله سالكوه، وصاروا عشرات، ثم صاروا - بحمد الله مرة ثانية - مئات، ونشأ فيهم من هو أكثر مني علماً، وأفصح لساناً، وأكثر إيماناً، وأفضل في كل شيء، وألّفوا عشرات من الكتب الإسلامية الجيدة ولكن هذا الكتاب لم يؤلف.

وجاءت سنة (١٣٨٧ هـ)، فنشرت مقالة في (مجلة رابطة العالم الإسلامي)، عنوانها «تعريف عام بدين الإسلام»، تنبّه لها صديقنا معالي الشيخ محمد عمر توفيق، وزير الحج والأوقاف يومئذ، فكتب للرابطة لتكليفي بتأليف كتاب في هذا الموضوع.

وتنّبه لها صديقنا الشيخ مصطفى العطار، فكتب لمعالي وزير المعارف الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ، ووجدت منه ومن معالي الشيخ عبد الوهاب عبد الواسع - وكان يومئذ وكيل وزارة المعارف - كلّ التشجيع.

وعملت الصيف كله، والسنة الجامعية بعده، لكني كنتُ أدافع الكسل، وأشتغل على ملل، وتجمّعت لديّ ثلاثة ظروف كبار، فيها فصول كاملات، وفيها قصاصات ومذكرات، تحتاج إلى تصنيف، وترتيب، وعمل كثير.

وجاء الصيف الجديد، وذهبت إلى عمان، ومن خوفي على هذه الظروف حملتها بيدي، وأذكر أنني خرجت من المطار، ودخلت السيارة لتحملني إلى دار زوج بنتي، وهي معي.

وشغلت بمتاعب الانتقال، ومباهج الاستقبال، ولقاء الأصحاب والآل، فلم أذكرها إلاّ بعد أسبوعين، فبحثتُ عنها فلم أجِدها، ونفضتُ الدار نفضاً وسألت كل سائق سيارة، وراجعتُ كل مخفر شرطة، فلم أصل إلى شيء، وبقيت أياماً، وأنا ذاهل متألم، لا أهنأ بطعام، ولا أستغرق في منام، حتى إذا هدأت نفسي، ورجع لي عقلي، قررت أن أستعين الله وأبدأ من جديد.

وكنتُ أنزل في ضاحية من عمان: مكتبتي في دمشق، وأوراقي في مكة، وما عندي إلا المصحف وما استقرّ في ذهني مما قرأت وما سمعت من العلماء في أكثر من خمسين سنة، وما كان لي فيها من عمل إلاّ النظر في الكتب ومجالسة أهل العلم، فقلت: لعل هذا هو الخير، فما أؤلف هذا الكتاب للفقهاء والعلماء، بل للشبان، أعرّفهم فيه ما الإسلام، وكلما أقللت النقل عن الكتب، وجئت بشيء جديد كان خيراً لهم.

وباشرتُ العمل وأنجزتُ هذا الجزء الأول، وهو جزء العقيدة، في عشرة أيام، وحملتُ مخطوطته معي إلى مكة.

فطُبع أولاً في المدينة، والفضل في طبعه لله ثم للأستاذ عثمان حافظ. ثم نشرته وزارة المعارف الأردنية، في عدد خاص من مجلتها «رسالة المعلم». وطبعتْ منه اثني عشر ألف نسخة، وزعتها على جميع المعلمين والمعلمات، في المملكة الأردنية، وكان الفضل في ذلك لله ثم لمعالي الدكتور إسحاق الفرحان ـ وكان يومئذ مدير دائرة الكتب والمناهج في الوزارة، ثم صار هو الوزير ـ وللأخ الدكتور الشيخ إبراهيم زيد الكيلاني، والأخ الأستاذ سليم الرشدان. ثم نشرته وزارة الدفاع الأردنية، وكان الفضل في ذلك للصديق اللواء معن أبي نوّار سفير المملكة الآن في لندن، والصديق أبي أنور العقيد أحمد العبيدات، وقرأه أفراد الجيش الأردني.

ثم قامت مؤسسة الرسالة في بيروت بطبعه أولاً طبعة رخيصة، ثم عادت فطبعته طبعة أنيقة.

أما الجزء الثاني والثالث اللذان أرجو أن أتكلم فيهما عن الإسلام وعن الإحسان (أي السلوك الإسلامي)؛ فأنا والله في خجل من القراء، وعذري أن القلوب بيد الله، والله هو باعث الهمم، ومنشىء العزائم، وقد والله ضعفت همتي، ووهن العزم مني، ولقد كنتُ في شبابي في توثّب دائم، أكتب وألتمس الناشر، على قلة البضاعة، وضحالة التفكير. والآن حين نضج الفكر، واختمرت المعلومات، وكثر الناشرون، لم أعد أقوى على العمل، فإنْ ألهم الله واحداً من القراء ودعا لي بظهر الغيب بأن يسهّل الله عليّ كتابة الجزأين، كتبتُهما بتوفيق الله وعونه كما كتبتُ الأول في عشرة أيام.

ولكن متى تجيء هذه الأيام العشرة؟ العلم عند الله.

* * *

هذا، وأنا أرجو أن ينفع الله بهذا الكتاب، وأن يكون زاداً لي يوم لا زاد إلاّ التقوى وصالح الأعمال. ولقد ذكرت في مقدمة الطبعة السابقة أني أكتب من ستين سنة (من سنة ١٣٤٧ هـ) والمطبوع مما كتبتُ يزيد على ثلاثة عشر ألف صفحة، وأن لي أكثر من خمسين كتاباً ما بين رسالة صغيرة وكتاب كبير، وأني أحاضر في النوادي من سنة (١٣٤٥ هـ)، وأتحدث في الإذاعات بلا انقطاع من يوم أنشئت محطة الشرق الأدنى في يافا، قبل الحرب الثانية، وأن لديّ الآن أصول أحد عشر كتاباً لا تحتاج إلاّ إلى عمل قليل لتُقدَّم للمطبعة.

وأنا أرضى أن أنزل عن هذا كله، ويوفق الله إلى إكمال هذا

الكتاب، وإكمال كتاب «ذكريات نصف قرن»[1] الذي أروي فيه خبر ما رأيت وما سمعت، من تبدّل الدول، وتحوّل الأحوال، ومن لقيت من الرجال، فلقد شهدت في الشام حكم العثمانيين، وحكم الشريف فيصل، وحكم الفرنسيين، وعهد الاستقلال وما بعده من العهود، وعشت حيناً من عمري في مصر، وفي العراق، وفي لبنان، وفي السعودية، ورحلت إلى أقصى المشرق حتى لم يبق بيني وبين (سيدني) في أوستراليا إلاّ مرحلة ساعتين بالطيارة، ورحلتُ إلى (فولندام) في أقصى الشمال من هولندا، ورأيت حلواً ورأيت مرّاً، وذقت الفقر وذقت الغنى، ووجدت الوفاء ووجدت الغدر، وتركت من التلاميذ في سوريا والعراق ولبنان والسعودية آلافاً وآلافاً، منهم من صار رئيس جمهورية، ومنهم من بلغ رياسة الوزراء، ومن كان وزيراً أو قاضياً كبيراً، أو موظفاً أو سفيراً، أو أستاذاً في الجامعة، أو مقدماً في عالم المال والأعمال.

ولقد كنت في عمري كله بعيداً عن غمرة المجتمع معتزلاً الناس، لكني كنت أرى وأسمع كل شيء، ولطالما وقفتُ مواقف كانت حديث الناس وكانت حادثة الساعة، وكنت فيها ملء الأسماع والأبصار، وكان اسمي فيها على كل لسان.

ولكن ذلك كله مضى، وسيمضي العمر، ويذهب الجاه والمال، كما ذهب الشباب، وينسى الناس كل ما عملت، وعمل غيري، ولا يبقى إلا الذي يحمله معه العبد إلى آخرته، هذا وحده الذي يبقى وكل ما سواه إلى زوال.

فيا رب لا تجعل عملي يذهب سُدى، واكتب لي بفضلك

---

(١) وقد صدر منه ثمانية أجزاء بعنوان (ذكريات) جمعت فيها ما نشرته في مجلة (المسلمون) ثم في جريدة (الشرق الأوسط). ونشرتها (دار المنارة) في جدة.

ورحمتك بعض الثواب عليه. اللهم اجعل ما كتبت وما خطبت من العلم النافع الذي لا ينقطع بانقطاع العمر.

اللهم إني أستغفرك، وأتوب إليك، وأسألك حسن الخاتمة، والوفاة على الإيمان.

جدة (الزهراء): ٢٥ ذو القعدة ١٤٠٨ هـ

علي الطنطاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة طبعة دار الوفاء بالمنصورة

كان من الحق عليّ لمصر أن تصدر الطبعة الأولى لهذا الكتاب عنها، لأن أصلي منها، من طنطا التي كانت تدعى (طنتدا)، جاء منها جدي أبو أبي سنة ١٢٥٥ هـ مع عمه الذي كان من العلماء الكبار، ولأني نشرت أول ما نشرت في مصر سنة ١٣٤٨ هـ، في (الفتح) وفي (الزهراء) عند خالي محب الدين الخطيب يوم كنت طالباً في (دار العلوم) ولم أكمل دراستي فيها، ويوم كانت مصر كما يدعوها أهلها (أم الدنيا)، أم الدنيا العربية، ما كان لهم (جامعة) إلاّ الجامعة المصرية، يؤمها الطلاب من أقطار العروبة كلها، أما (الأزهر) فكان فحل الجامعات، وكان مبعث النور حين خبت ـ أو كادت ـ مصابيح النور، وكان مقصد طلاب العلم من بلاد المسلمين كلها، لا يعدلون به غيره. الأزهر الذي عاش أكثر من ألف سنة، كما عاش جامع القرويين في المغرب، والزيتونة في تونس، وإن لم يكن لهما بعض ما كان له من الأثر. وكانت دور النشر الكبرى في مصر، والكتابُ الذي ينشر فيها ويصدر عنها، يحمل جواز المرور فيصل إلى كل بلد عربي.

كان ذلك حقاً عليّ، لكن الله لم ييسره لي، فقد طبع الكتاب نحواً من عشرين طبعة قبل أن تصدر هذه الطبعة في مصر. بعض هذه الطبعات كان بإذن مني، وبعضها سرق سرقة ـ وسرقة الكتب إحدى

الثمرات المرة لهذه الحضارة الجديدة، التي يسَّرت الوسائل، ومهدت السبل، لأهل الخير ولأهل الشر، فمن لم يكن له دين يعصمه، وخوف من الله يسدده، أحكم السرقة حتى لا تكاد تكتشف، وحتى إنك لو وضعت أمامك النسخة الأصلية من الكتاب والنسخة المسروقة، لم تستطع أن تفرق بينهما، فالورق هو الورق، والحرف والحبر والتجليد - كل ذلك سواء في النسختين. ذلك لتعلموا أنه لا الحضارة ولا العلم ولا الأخلاق، بالتي تغني عن الدين، لأنها كلها للناس، فإن لم ير صاحبها الناس، أعرض عنها وتناساها، واتبع شهوته ومصلحته. أما صاحب الدين فيعلم أنه إن خلا بنفسه، وغلّق عليه الأبواب، وأسدل الستائر، واستخفى من الناس، فإنه لا يستخفي من الله، وهو معه يسمعه ويراه، وإن أنكر شهدت عليه يده التي اقترف بها الذنب، ورجله التي مشى بها إليه، وجلده الذي لا يستطيع أن يخلعه ويخرج منه، كما يخرج من ثوبه، ليلبس جلداً غيره فلا يعرفه من يبصره.

ولقد حدّثت مرة حديث مدرس، جاءنا ونحن صغار فقال لنا: كيف تشهد اليد، وتشهد الرجل؛ هل لها لسان فتنطق؟

فكاد يدخل علينا الشكوك في ديننا، والزيغ في عقيدتنا، فكتب الله لنا أن نعيش حتى نسمع أسطوانة الحاكي (أي الفونوغراف) تتكلم، وشريط المسجل يتكلم، وصندوق الرائي (أي التلفزيون) يتكلم... فرجع إلينا إيماننا، وقلنا: أليس الذي علمنا كيف ننطق الأسطوانة والشريط والصندوق في الدنيا، بقادر على أن يُنطق اليد والرجل في الآخرة؟

وهذه الكشوف العلمية، وهذه المخترعات، تقوي الإيمان عند من كان من أهل الإيمان، ويتخذها الشيطان وسيلة لتضليل من كان من أولياء الشيطان.

وبعد، فأنا أكتب وأنشر من ستين سنة، لا أحصي المقالات التي

كتبتها، ولا الجرائد والمجلات التي نشرت ما كتبت فيها، ولي نحو من خمسين كتاباً، ولكنني أرجو من الله بهذا الكتاب ما لا أرجوه من كل ما كتبت، وأسأل الله أن يعينني على إتمامه، وأن ينفع قارئه به، ولا يحرمني الثواب عليه.

مكة المكرمة ٢٤ صفر ١٤٠٧ هـ علي الطنطاوي





علي الطنطاوي

نشر وتوزيع
دار المنارة
جدة - السعودية

٣٦٥

مقدمة الطبعة الثانية

جئت بغداد، وكتبت عنها هذه المقالات، التي تقرؤون بعضها في هذا الكتاب، وأنا شاب دون الثلاثين، وأكتب مقدمة هذه الطبعة من الكتاب الآن، وأنا شيخ يخطو إلى التسعين. كنت أرمي بهمتي إلى الأمام، أعيش في المستقبل، فنفدت الهمّة، فغدوت أعيش في الماضي.

كان غذاء قلبي الآمال، فأمسى لا يجد إلاّ الذكريات.

ما تقرؤونه في هذا الكتاب، كتب قبل أكثر من خمسين سنة. من كان يومئذ ابن عشر سنين، صار الآن في الستين. فمن لم يبلغ هذه السن، فلا يحكم عليه بذوق زمانه، بل بميزان ذلك الزمان، فإذا لم تدركوه، فسلوا عنه من أدركه وعاش فيه.

* * *

إن وجدتم في الكتاب مثلاً ثناء على الملك غازي أو رثاء له، وإن لمستم الحرارة في ذلك الرثاء، وأنه كلمات مازجها البكاء، فلا تظنوا أني من جماعة غازي، ولا أني من أشياعه، وما أحسب أنه بقي لغازي اليوم جماعة أو أشياع، وما لي صلة بغازي ولا بغيره من الحكام، وإنما كنت أصوّر ما أراه وأسمعه، كما يصنع كل أديب وصاحب قلم، فطر على البذل وعلى المشاركة، فهو يبسط عواطفه، ويعرض للناس مسرّاته وأحزانه، وآماله وآلامه، لا يرضى حتى يشاركوه

فيها. ولو سألتم من بقي من ذلك الزمان، لخبّركم أن الذي كتبته يوم مات غازي، وتقرؤونه في هذا الكتاب، كان تصويراً صادقاً للواقع، ليس فيه مبالغة ولا تهويل، وهل يطلب من الأديب إلا أن يصوّر ما وقع؟.

ليس هذا الكتاب عن بغداد الأمس البعيد، يوم كانت بغداد حاضرة الدنيا، وعاصمة الأرض، وكانت أعزَّ وأجلّ مدائنها، وكان الخليفة الذي يقيم فيها، أكبر أولئك الملوك، ودولته أقوى تلك الدول. ولا عن بغداد اليوم، التي وثبت تشقّ إلى العلياء طريقها، وتستدرك ما فاتها، وتعيد بناء مجدها. بل عن بغداد الأمس القريب، بغداد التي كانت قبل خمسين سنة، بغداد التي كنت أدرّس فيها، في الثانوية المركزية، ثم في الغربية، وفي دار العلوم الشرعية في الأعظمية، التي صارت كلية الشريعة، وكنت أحاضر في دار المعلمين العالية، وكان ذلك سنة **١٩٣٦** م.

بغداد التي عرفتها، صارت أيضاً من التاريخ.

صارت حديثاً على ألسنة الشيوخ والعجائز، صارت ذكرى. لم يكن فيها إلا شارع واحد، على جانبيه عمارات، ما ترتفع عن الطبقة الثالثة، يمتد من الميدان، ميدان باب المعظم، إلى قريب الباب الشرقي، تمرّ على الحيدر خانة، وجامع سيد سلطان علي، وأكثر المعاهد والمتاجر كلها في هذا الشارع. وفي أواخر أيامي في بغداد، باشروا بفتح شارع آخر، هو شارع غازي.

* * *

وكنت أحب أن أمشي على رجلي في كل بلد أدخلها، فكنت أخرج من الثانوية المركزية إلى آخر شارع الرشيد عند الباب الشرقي. وما بعد الباب الشرقي إلا شارع على امتداده، لم يكن قد عبّد يومئذ ولا سكن، أظن أنّ اسمه شارع أبي نواس، فكنا نؤمّه بعض العشايا،

فنجلس عنده مجلساً، ما في المجالس أجمل منه منظراً، ونأكل طعاماً، ما في المآكل أشهىٰ منه مَطْعماً، المجلس عند دجلة ساعة الأصيل، والطعام هو السمك المسقوف (المزقوف)، يخرج لك الصياد السمكة من الماء، وهي حيّة تضطرب في الشبكة، فينظفها، ويضعها على الجمر المتوقّد، حتى تكون سقفاً له، ثم يأتيك بصينية عليها أنواع من الخضر، ممّا أعرف كالبقدونس والكرّاث، وما لا أعرف، ويأتيك بالخبز سخناً قد خبز الآن. ولكل بلد أكلة شعبية، وهذه أكلة بغداد، التي يقول المصريون عن مثلها: إنك تستطيبها حتى تأكل أصابعك بعدها، ولو صحّ هذا الكلام ما بقيت أصبع في كفّ إنسان.

ولم يكن في شارع الرشيد، على طوله، بناء يعلو أكثر من ثلاث طبقات، لأن الأرض كما قالوا رخوة، لا تحتمل البناء العالي، وكنّا نقف أمام دجلة، فنرى الماء عند الفيضان، لولا هذه السدود من التراب، القائمة على جانبي النهر، لأوشك أن يصل إلى صدورنا.

وأوّل بناء عال شيّد على أيامنا في بغداد، بناء لتاجر أذكر أن اسمه (حسّو)، حفظت الاسم لغرابته، أقامه كما قالوا على قاعدة واسعة من الأبرق (أي الإسمنت المسلح).

وكنت أمشي أحياناً وسط الأسواق، أخرج من الثانوية المركزية، فأمرّ على سوق السراي، حيث تباع الكتب، وحيث أكثر المكتبات، ثم تتبدل البضائع، فيكون لكلّ تجارة سوق خاصّة بها، ومنها سوق كنت أقف فيه فأحسّ أنّي في حديقة زهر متعدد الألوان، فيه أقمشة حريرية ملونة، وقريب منه سوق البلّور والتحف، والأنوار الساطعة القوية تبرق من خلال بلّوره وتحفه، فيكون لذلك منظر بهيج.

والأسواق كلها مسقوفة، لا يحسّ من فيها حرّ الشمس، ولا يجد بلل المطر.

حتى أنتهي إلى سوق الفضة، حيث أجد عمالاً بلحى طويلة جداً، أصحاب هذه اللحى يسميهم الناس (الصبّة)، ولعلّ أصل الكلمة الصابئة، فهم ليسوا مسلمين، ولا عرباً، ولكنهم ينفردون بمهنة لا يعرفها في الدنيا غيرهم، يتوارثونها بينهم، لا يعلّمونها إلاّ أبناءهم، هي الكتابة والنقش على الفضة، تعطيهم ما شئت من صورة أو كلام، فتأتي من الغد، فتأخذ ذلك منقوشاً على حلية أو على آنية من الفضة، والكتابة لا تمحى أبداً، على دقّة في الصناعة وجمال في الشكل.

* * *

ومن أعجب ما وقع لي، أني نزلت من الأعظمية، أنا وأنور العطار، صديق العمر رحمة الله عليه، وكنا لا نكاد نفترق، فلا يرانا الناس إلا معاً، حتى أنهم ليخلطون بيننا، فيقولون علي العطار وأنور الطنطاوي، نزلنا مرّة مشاة على أقدامنا، فلم نسلك الشارع العام، ولكن مشينا على شطّ دجلة، فكانت تعترضنا حواجز بين البساتين والمزارع، فنتخطاها، أو ندور حولها، حتى اقتربنا من البلاط (أي من قصر الملك غازي)، ولا تحسبوه قصراً مثل قصر عابدين في مصر، ولا قصر يلدز في إسطنبول، بل هو بناء عادي، لعلّ في بيوت الموسرين ما هو أوسع منه سعة، وأجمل جمالاً، فلما اقتربنا منه، ونحن نتحدث، لا نلقي بالاً لما حولنا، فاجأنا جندي وسلاحه بيده منشوراً، يزجرنا لأننا دخلنا حدود البلاط بغير إذن. وليس هذا العجيب، ولكنّ العجيب، أنني كنت أروي القصة فأجمّلها، وأفلفلها وأعصفرها، وأزيد فيها، على اعتبار أنها قصة أدبية، يجوز في مثلها التحوير والتغيير، لا على أنها رواية تاريخية، فإذا كان المجلس القادم، أخذ أنور رحمه الله القصة بزياداتي، وفلفلها مرة ثانية، وجمّلها وزاد فيها، فآخذ أنا الطبعة الأخيرة منها، أي رواية أنور، ولا يزال كل واحد منّا يزيد فيها، حتى إن رئيس تحرير مجلة المعلم العربي في دمشق أجرى مرة مقابلة معي نشرها،

فسألني عن هذه القصة، فأقسمت له أنّني لم أعد أدري ما وقع، لأن الحقيقة اختلطت فيها بهذه الزيادات، حتى إنّني لم أعد أذكر أصلها.

* * *

بغداد التي عرفتها كانت تنام على الشطّين بعضها في الكرخ، وأكثرها في الرصافة، رأسها في باب المعظم، ورجلاها في الباب الشرقي، أو بالعكس، فما أبالي أين الرأس وأين القدمان، ما دام الفراش ممدوداً، ومداه محدوداً.

لم يكن في طريق الأعظمية إلاّ البلاط الملكي، ثم أقامت الأوقاف ـ على ما أذكر ـ أمامه دويرات (فيلات صغيرة) جعلوها ذات ألوان مختلفات، أو أذنوا للناس بإقامتها، على أن يسكنوها مدّة معلومة، ثم تؤول إلى إدارة الأوقاف، لأن تلك الأرض كانت وقفاً، وليس بعد البلاط ولا قبله منازل ولا بنيان، حتى نصل إلى أوائل دور الأعظمية، فينادي سائق الحافلة (الباص): رأس الأحواش، أي أوائل البيوت، لينزل من شاء من الرّكاب.

أما الحافلات (الباصات) فهي صناديق كبيرة من الحديد، فيها كراسي ضيّقة متراصّة، ما فيها من وسائل الراحة شيء، وقد خبّرت أن الحافلات التي تحمل الناس الآن في بغداد، هي التي يحملهم مثلها في لندن، لا تختلف عنها، وأن منها ما هو بطبقتين، وعلمت أن عند أمانة العاصمة متحفاً أو معرضاً، يعرضون فيه تطور سيارات النقل العام، من عهد تلك الصناديق التي أعرفها، والتي كنت أزاحم الناس لأتخذ لي كرسياً فيها، إلى ما انتهت إليه اليوم.

وقالوا: إن بغداد اليوم أكبر مساحة، وأكثر امتداداً، من بغداد الرشيد والمأمون، وقالوا: إن طولها زاد على خمسين كيلاً، وإن الجسر

الذي كان على عهدي يقوم على عوّامات، فإذا زاد الماء صار كالتل، وإن قلّ صار كالوادي، وكان يتحرك أبداً بحركة الماء، قالوا إنه صار الآن مبنياً مثل جسور المدن الكبرى، يقوم على دعائم راسيات في الأرض، وأنه بدل الجسرين اللذين كنت أعرفهما، صار فيها جسور كثيرة.

وقالوا: إن بغداد ذات الشارع الواحد، صار فيها عشرات وعشرات من الشوارع التي تمشي فيها السيارات، وتقوم على جانبيها ضخام العمارات، فهل هذا الذي قالوه حقيقة أم هو من باب الدعايات؟

وأشتهي أحياناً أن أرى بغداد بعد طول الغياب، ثم أفكر ما الذي أجده اليوم من بغداد التي عرفتها؟ من الذي سألقاه ممن كنت ألقى يومئذ، فأسعد بلقياه؟ هل أجد الشيخ رضا الشبيبي الذي بسط عليّ جناحيه، فدفع عنّي الأذى، يوم تحالف عليّ إخوة كرام، إثر ما كان بيني وبين المفتش؟ هل أجد العالم الأديب، الذي كان يعمل معه: الأستاذ طه الراوي؟ هل أجد العالم الكبير الشيخ المعمّر، الشيخ إبراهيم الراوي؟ ألا يزال في جامع سيد سلطان علي، يستقبل كلّ من دخل عليه، ويلزمه أن يأكل من طعامه، ولو لم يكن الوقت وقت طعام؟

هل أزور الأخ الذي كانت له في قلبي منزلة ليس لأحد مثلها، والذي كان لي أكثر من الأخ الشقيق، الأخ الأكبر، وإن كان لا يزيد عني في العمر إلا خمس سنين، الذي كان سبب سفري إلى العراق، والذي كان مكتبه في وزارة المعارض مغداي أو مراحي كلّ يوم.

شوقي يقول:

قد يهون العمر إلا ساعة ... وتهون الأرض إلا موضعاً

وقديماً قالوا:

وليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد

وأنا حينما أتذكّر الآن أيامي في بغداد، أراها على طولها، وأرى بغداد على سعتها، قد جمّعت في غرفة صغيرة، من وزارة المعارف، التقى فيها الزمان والمكان، وصبَّت ذكرياتي كلها فيها، والتقت بين جدرانها، كما تلتقي سيول الجبل، تحملها الشعاب إلى قرارة الوادي، وهي غرفة الأستاذ بهجت الأثري، من كان يعرفه من القرّاء، فليحمل إليه سلامي، وليخبره أن ثلاثاً وخمسين سنة، لم تمح من نفسي الاعتراف بفضله.

وفي مصر غرفة مثلها، أو أصغر منها، هي غرفة الأستاذ الزيّات، رحمة الله عليه، في إدارة الرسالة، عند ميدان عابدين، حيّا الله الأثري، وأجزل الرحمة للزيّات.

كنت آوي إلى غرفة الأثري، كلما ضربتني أمواج الحياة، فأجد الجبل المنيع، الذي لا تصل هذه الأمواج لمن يأوي إليه، عرفته في دمشق، وفي لبنان، وفي العراق، فما عرفت فيه إلاّ الأخ الوفيّ، والصديق الصفيّ، الشاعر الراوي، الكاتب البليغ، الذي يكفيه أنه ساجل إمام البلاغة الزيّات، في قصته وضاح اليمن، فما كان أسلوبه دون أسلوب الزيّات، ولا بيانه أقلّ من بيانه، وإن كان الحق فيما قال الأثري، لا فيما قصّ الزيّات.

هل أجد إن ذهبت إلى بغداد، زملائي الذين جاؤوا العراق معي، أو الذين جمعني بهم العراق، أنور العطار، عبد المنعم خلاّف، أحمد مظهر العظمة، أكرم زعيتر، صالح عقيل، كامل عيّاد، حيدر ركابي؟.

يا أسفاه، لم يبق منهم إلا: الأستاذ أكرم، والأستاذ خلاّف، وأنا.

هل أجد من جاء بعدي لما فارقت العراق إلى بيروت، الدكتور زكي مبارك ـ رحم الله من مات منهم، وأولى الخير من بقي.

هل أجد الشيوخ الأجلّة، الذين جمعني بهم التدريس في دار العلوم الشرعية الملحقة بمسجد الإمام الأعظم، الذي سمّيت باسمه،

ونسبت إليه، مدينة الأعظمية؟ هل أجد العالم الغني الزاهد الشيخ أمجد الزّهاوي، والعالم الحقوقيّ، صاحب خزانة الكتب الكبيرة الحاج حمدي الأعظمي، والمفتي الصالح الشيخ قاسم القيسي، ومدير الدار الأستاذ الشيخ المعمّر فهمي المدرّس؟ لقد كنت وحدي الشاب بينهم، وكانوا كلهم أكبر مني سنّاً.

خبروني ألا تزال غرفة الأثري في الوزارة، حافلة بالصفوة المختارة من أهل العلم والأدب؟ ألا تزال المكتبة في دار الحاج حمدي، موئل العلماء والأفاضل؟ ألا تزال في دار الشيخ قاسم، على شط دجلة، تلك المجالس التي كانت لروحي رَوْحاً، ولقلبي طرباً، ولذهني غنى وخصباً، وكنت أطرح فيها وفي أمثالها رداء التكلّف، وأطلق نفسي على سجيتها، وأبدي كلّ ما فيها؟

وكذلك كنت أصنع مع أمثال هؤلاء، كالأستاذ كرد علي، والشيخ بهجة البيطار، وعزّ الدين التنوخي، وعبد الوهاب عزّام، والزيّات، والشيخ عبد الوهاب خلاّف، والشيخ محمد الخضر التونسي، ومن لا أستطيع أن أسرد الآن أسماءهم، ولو جمّعت ذهني لكتبت عنهم كتاباً صغيراً.

* * *

أين مني تلك الأيام؟ ماذا أجد، إن ذهبت، من بقاياها، من أريجها، من عطرها، من أنقاضها، من آثارها؟ وتلاميذي الذين لا أحصيهم عدداً، وإن ظللت أذكرهم أبداً، وأتعلل بذكراهم على طول المدى، وبعد الزمان. لقد كان منهم عبد السلام عارف، رحمه الله، وغفر له ما كان أخطأ فيه، لقد صار رئيس الجمهورية، وكلما قابل أحداً من أهل الشام، سأله عني، وعن أنور العطار، ولكني لم ألقه بعدها. إني أتهيّب أن أطرق باب الرفيق، إن لم يتصل حبلي تماماً بحبله، ولم

ترتفع الكلفة بيني وبينه، فكيف برئيس الجمهورية؟ حتى الذين صاروا وزراء من تلاميذي، وهم كثير، لم أعد أراهم، إذ هم في شغل عن زيارتي، وأنا في عزوف عن زيارتهم.

وقليل من الطلاب، الذين لبثوا على طول العهد محافظين على الود. منهم واحد سقت لكم من قبل خبره: كان طالباً في الشهادة الثانوية سنة ١٩٣٦ م، فلما نالها دخل الكلية العسكرية، فتخرج فيها، وتدرج صاعداً في الرتب العسكرية، حتى صار عقيداً (كولونيل)، فحدثت أحداث في العراق، اضطرته إلى ترك العسكرية، فماذا صنع؟ هل قعد في بيته يبكي ما فقد، يندب ماضيه يائساً من مستقبله؟ إنّ أصحاب الهمم العالية، إذا هبطوا الجبل من جانب، قاموا يحاولون صعوده من الجانب الآخر، لأنهم لا يطيقون البقاء في الحضيض، بل يبتغون المعالي أبداً، فدخل كلية الحقوق، فدرس فيها، ونال شهادتها، وصار محامياً، ونجح في المحاماة، فحدثت أحداث، اضطرته إلى ترك بغداد كلها، فهل يئس؟ إنه مؤمن، أشهد بإيمانه من يوم كان طالباً يقعد بين يدي، والمؤمن لا ييأس من روح الله، وإذا ضاقت به بلاد العرب فإن: في الأرض منأى للكريم عن الأذى.

فسافر إلى النمسا، وتعلّم لسانها، ودخل كلية الطب، وتخرّج طبيباً، وقد تجاوز عمره الستين، ولم ينقطع طول هذه المدة عن مراسلتي، والاتصال بي، يرسل إليّ من الأدوية ما يفيد أمثالي في شيخوخته، إن لم يكن شيء يردّ إلى أمثالي شبابهم الذي ولّى، وقد رأيته في الحج، من سنوات قليلة، زارني في داري في مكة، هل عرفتموه؟ إنه العقيد المحامي الطبيب جهاد عبد الوهاب.

ومنهم من هو اليوم من (الدبلوماسيين) العراقيين المرموقين، ومن الأدباء والباحثين المعروفين، لزمني مدّة لزوم الولد أباه، ثم راسلني مرة

أخرى، ثم تراخى ما بيني وبينه، فلم أعد أسمع عنه شيئاً، حتى رأيته يكتب في الشرق الأوسط، مقالات فيها متعة، وفيها منفعة، هو الأستاذ نجدة فتحي صفوة.

* * *

يقول الشاعر وأحسب أنه جرير:

ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى　　والعيش بعد أولئك الأيام

الأيام التي مضت ولن تعود. أحنّ إليها ولا أدري لماذا الحنين إليها؟ أنا الآن أوسع بحمد الله دنيا، وأكبر اسماً، وأكثر مالاً، لا أشكو من مرض، وما بي حاجة إلى أحد، قد كفاني الله بفضله عمن سواه، ولكنه الإنسان يزهد فيما وجد، ويشتهي ما فقد، فأنا أحنّ إليها لأني فقدتها. أيامي في مصر في دار العلوم سنة **١٩٢٨** م، أيامي في بغداد سنة **١٩٣٦** م، أيامي في بيروت لما كنت أدرّس في الكلية الشرعية سنة **١٩٣٧** م، وكان من صغار التلاميذ، الرجل العالم العامل المجاهد، الذي أكرمه الله فقضى شهيداً، الشيخ حسن خالد. وقبل ذلك أيامي في دمشق، بلدي الحبيب الذي أتمنى أن أقضي في ربوعه ما بقي لي من العمر، بين أهلي فيه، وبين أصحابي. ولكن أين أهلي؟ وأين أصحابي؟ ما بقي منهم إلاّ القليل، فلو ذهبت إلى الشام، لغدوت فيها غريباً.

هذا جزاء امرىء أقرانه درجوا　　من قبله فتمنى فسحة الأجل

بل أين دمشق؟ أين البلد الذي شهدته صبياً، وشهد صباي؟ لقد تبدّل فيه كل شيء. لا الدار دار ولا السكان سكان.

يقول الشريف الرضي:

وقائلة في الركب ما أنت مشتهٍ؟　　غداة جزعنا الرمل، قلت: أعود

وهيهات، فلا الماضي يرجع، ولا الشباب يعود، ولا من جعل الله أمر الناس في يديه، يتركني أكحل العين برؤية بلدي قبل الممات.

كنت أجلس في دار العلوم في الأعظمية كلّ مساء، بإذن من المدير، في هذا الصحن المشرق، تظلّلنا الأشجار، قد أثقلتها ثمارها، وتحفّ بنا الأزهار، قد ملأت صدورنا عطورها، ومن فوقنا زقزقة العصافير، كأنها موسيقى بارعة، ما وضعت أنغامها عبقرية إنسان، وكان الفرّاش يعدّ الشاي، وكان الباب مفتوحاً، فليس تخلو عشية من أساتذة كرام يزوروننا، أو طائفة من الطلاب يجيئون إلينا، أو جماعة من الجيران نبقى معهم بين أحاديث تدور، أحاديث في العلم وفي الأدب، ومناظرات تتخلّلها مراجعات في الكتب، وفي المدرسة مكتبة كبيرة، فيها كتب قيّمة، حتى نسمع داعي الله للصلاة، فندخل المسجد من باب بينه وبين المدرسة فنصلي.

* * *

كان إخواننا في العراق يقولون لنا، غداً ستنسوننا وتنسون بغداد، وها أنذا بعد أكثر من خمسين سنة، أتعلّل بذكرى العراق، وأثني على العراق، ما نسيته، ولا نسيه من إخواننا وأصحابنا الذين كانوا معنا أحد، لا أنور، ولا مظهر، ولا زكي مبارك، رحمهم الله، ولا عبد المنعم خلاّف ولا أكرم زعيتر، مدّ الله في عمريهما. أسأل من يعرف خلاّفاً من قرّاء هذه المقالة أن يخبرني كيف حاله، وأن يبلغه تحيّاتي، وأن يحمل إليه حبي، فقد كان رفيقي في مصر، في دار العلوم سنة ١٩٢٨ م، وفي المؤتمر الإسلامي في القدس سنة ١٩٥٤ م، وفي القاهرة، وفي دمشق. كما كان من إخواننا في مصر الأستاذ عبد السلام هارون، والأستاذ محمود شاكر.

* * *

وبعد، فما كنت أقدّر أنّي أقدم بغداد، وأنّي أعيش فيها سنين من عمري، وأنّي أتّخذ فيها أصدقاء وأحبّة، أعدّهم من أدنى أحبابي إلى قلبي.

وما أحسست يوماً بالغربة في بغداد، إلاّ ما ركّب الله في نفس الإنسان من الشوق أبداً، إلى أول بلد فتح عليه عينيه، وأول مجتمع عاش بين ظهرانيه، ولو كان البلدان: البلد الذي ولد فيه، والبلد الذي انتقل إليه، في الدولة الواحدة، ذلك بأن الله ما جعل هوى القلوب منوطاً بالحدود المرسومة على المصّور الجغرافي.

ألا يحسّ الشاميّ بالشوق إلى دمشق، وهو يسكن في حلب؟ وابن بغداد في الموصل؟ وابن جدة في الدمّام؟ على أنه قد ينتقل من البصرة إلى فاس، ومن الجزائر إلى اليمن، فلا يتبدل عليه إلاّ الوجوه والأسماء، وإن هو شعر بالغربة، ذهب إلى المسجد فعاد إلى موطنه، لأنّ المسجد موطن كل مسلم، مع أن المسافر من (آخن) في طرف ألمانيا، إلى (لييج) في وسط بلجيكا، لا يقطع على الطريق إلاّ نصف ساعة فقط بالسيارة أو بالقطار، فيجد أن ملامح البلد، وبعض عادات أهلها، تبدّلت كما تبدّل اللسان، وقد رأيت ذلك عياناً.

* * *

وبعد فبلاد المسلمين كلها بلدي، أحبّها حبّي بلدي، وأحفظ لها من جميل الذكريات مثل الذي أحفظه من ذكريات بلدي، وأسأل الله أن يردّ عليها وحدتها، وأن يعيد إليها عزّتها، حتى تصنع لغدها مثل الذي صنعته لأمسها، وتحية مني لبغداد التي كتبت عنها هذا الكتاب.

مكة المكرمة جمادى الأولى ١٤١٠ هـ

علي الطنطاوي

صُوَرٌ مِنَ الشَّرْقِ

في أندونسيا

تأليف

علي الطنطاوي

نشر وتوزيع

دار المنارة

جدة - السعودية

مقدمة الطبعة الثانية[1]

لقد كان هذا الكتاب رحلة إلى أندونيسيا، وصفتُ فيها بعض ما رأيت، ورويتُ فيها بعض ما سمعت، فصار كتاب تاريخ أُسجل فيه صفحة من حياة إندونيسيا، ومرحلة من تاريخها، وإذا كان من الأحياء مَنْ تحبه ومن تكرهه، ومن الأمم من تعجب به وتكبره، ومن تنكر حاله وتحقره، فإن من مضوا ذهبوا بحسناتهم وسيئاتهم، وانقطع بيننا وبينهم حبل الحب والكره، وصاروا أحاديث، ذهبوا بما لهم وما عليهم، وصار حسابهم على ربهم. لقد مر على الطبعة الأولى من هذا الكتاب أقل من أربعين سنة في حساب التقويم، ولكنها في ميزان الأحداث مئتا سنة، لقد عشت أنا خمساً وثمانين سنة، ولكنني لما رأيت من أحداث الدهر وتقلبات الزمان، عشت مئة وثمانين سنة. وعيت على الدنيا في دمشق، وهي إحدى الولايات العثمانية التي تمتد حدودها حتى تشمل طرفاً من أوروبا، وطرفاً من إفريقية، وبلاداً واسعة في آسيا، فرأيت الحرب الأولى، وكنت لما نشبت في أوائل أيام المدرسة، ورأيت ما كان بعدها إذ غدت الشام التي كانت بعض ولاية من ولايات الدولة، غدت دولاً: دولة دمشق ولها حكومة ولها حاكم، ودولة حلب، ودولة العلويين ودولة الدروز، ودولة أكبر منها، ولكنها فرع من الأصل الذي انبثقت منه وانفصلت عنه، هي دولة لبنان الكبير، الذي انتزعوا الأقضية الأربعة من سوريا وضموها إليه ومنها طرابلس والبقاع، ولبثنا سنين ونحن نخرج بالمظاهرات نطالب بالأقضية الأربعة، وما كنا نملك إلا سلاح

---

(١) ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م دار المنارة.

المظاهرات والمقالات والإضرابات، ثم جاءت قضية لواء الإسكندرون، وكان مطلبنا هو الاستقلال، وطرد الواغل الدخيل. وكان تاريخ طويل، تبدلت فيه حكومات، وكانت فيه انقلابات، وتوالت فيه ثورات وثورات، حتى انتهينا إلى المصير الذي صرنا إليه، وإلى الله المشتكى.

فلما قعدت أكتب مقدمة هذه الطبعة من كتاب أندونيسيا عدت إليه فنظرت فيه، فإذا أنا أقرأ كتاباً جديداً، كتاباً لا يصف أندونيسيا اليوم، ولكن يؤرِّخ لبعض ما كانت عليه بالأمس. أفأدع الكتاب لا أعيد طبعه، فيخسر القرّاء ما فيه من وصف، وما جاء فيه من حقائق، وإن منها لصفحات تعبت في إعدادها، وأرجو من الله الثواب عليها، كفصل دخول الإسلام إلى أندونيسيا، وفصل عن تاريخ الحركات الإسلامية فيها جمعته من أفواه الرجال الذين شاركوا في صنعه، وما أحسبه موجوداً مثله في غير هذا الكتاب. لا لن أدعه ولكن أنشره على أنه كتاب تاريخ، وإن من التاريخ ما هو قريب، ولكنه على قربه صار أبعد عن الأذهان، وأدنى إلى النسيان.

لقد تبدّلت أندونيسيا التي تقرؤون عنها في هذا الكتاب فحالت الأحوال، وذهب أكثر من ذُكر فيه من الرجال، وصار تاريخاً يُروى، وقد كان قائماً يُرى. ما تبدلت طبيعة الأرض، ولا تغيرت مشاهدها، ولا ذهب ذلك الجمال الذي جعلني أقول في نعته: (إن سويسرا قد انتقلت إلى آسيا) فهذا خلق الله، وخلق الله باق ما أذن الله ببقائه، لا يصل إليه الفساد، إنما يفسد ما امتدت إليه يد الإنسان.

إقرأ الكتاب ثمَّ انظر فاسأل أين (سوكارنو) الذي كان اسمه على كل لسان وصورته في كل مكان، وأخباره تتصدر الأخبار، وتملأ الصحف، والمجلات، وتلهج بها الإذاعات. لم يكن ينطق (الإعلام) إلا بمدحه، بل يكاد يقدسه ويسبح بحمده، تعالى الله عن أن يكون له في أسمائه وصفاته مماثل أو شريك، فأين اليوم سوكارنو؟ وأين الذين كانوا يحفون به، يخشون سخطه ويطلبون رضاه؟ وأين أمثاله ممن كانوا على

عهده، وعلى مثاله في الشام ومصر وتونس والجزائر، وكثير من البلدان، بل أين الذين كانوا وراء الستار الحديدي، يتخذون الإلحاد ديناً، ويجحدون الله رباً، ويقدّسون ماركس ولينين؟ لقد هُتك الستار، وهُدم في برلين الجدار، واضطجعت الشيوعية على فراش الموت، وأطباؤها هم قاتلوها، وأصحابها هم مشيّعوها، ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾. كان الشيوعيون يظنون أنهم سيسيطرون بها على الدنيا، وأن ماركس ولينين ستحل أسماؤهم محل أسماء النبيين والمرسلين، وأنها ستمحو كل نظرية أو دعوة سواها، وتزيل كل نظام عداها، وأن ظلامها سيغطي على أنوار الإيمان ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. وغداً (وإن غداً لناظره قريب): تسألون ثلاثة أرباع طلاب المدارس... مَنْ كارل ماركس؟ فلا يعرفه إلاّ القليل. كم عدد الذين يعرفون اليوم من هو (مزدك)؟. لقد قلت من قديم أنه لن يعرف غداً. إلا العلماء الكبار. ما هي (البعثية)، بل لا يعرفون ما هي (الشيوعية) ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾، ولا يبقى إلاّ الصحيح، والصحيح هو (الإسلام) وكل ما خالفه أباطيل وأوهام.

من كان يظن أنه سيأتي من قوم ستالين رئيس اسمه خروشوف يلعن ستالين، ويطمس آثار ستالين، وأنه سيأتي آخر اسمه جورباتشوف، يشارك أعداء الشيوعية بهدمها؟ هذه العِبر قيد النظر، ولكن أين من يعتبر؟ أين الذين ظنوا أنهم شاركوا الله في ملكه، فاستكبروا في الأرض بغير الحق، وأذلّوا رقاب العباد، وملؤوا الدنيا بالفساد؟ لقد كانوا ملء الأسماع والأبصار، فصاروا خبراً صغيراً في حاشية كتب التاريخ؟

وبعد، فهذا كتاب (أندونيسيا) ما بدلت فيه شيئاً، وإن تبدل فيها كل شيء، فاقرؤوه على أنه كتاب تاريخ، يرويه من عاش هذا التاريخ.

علي الطنطاوي

مقدمة الطبعة الأولى

من ست سنين، انعقد في القدس مؤتمر إسلامي للنظر في نكبة فلسطين، وطريق العمل على نصرتها، وفدت عليه الوفود من بلاد الإسلام كلها، من مراكش إلى أندونيسيا، وكان (برلماناً شعبياً) مثّل كل بلد فيه زعماؤه وكبار أهله.

وقد أوفدت بعض البلاد رجالاً لهم صفة رسمية، كالأستاذ عبدالمنعم خلاف الذي حضر من جامعة الدول العربية مراقباً، والدكتور سوبارجو وزير خارجية أندونيسيا السابق ووكيلها الآن، وأوفدت بعضٌ رجالاً يمثلون أحزاباً أو هيئات معروفة، كالأستاذ علال الفاسي رئيس حزب الاستقلال في مراكش، والأستاذ الشيخ الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء في الجزائر، والأستاذ القليبي رحمه الله رئيس الحزب الدستوري في تونس، واللواء صالح حرب (باشا) الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين في مصر، والأستاذ الشيخ أمجد الزهاوي رئيس جمعية إنقاذ فلسطين في العراق، ومندوب عن الكاشاني في إيران، ونواب صفوي عن فدائيان إيران، وسعيد بك شامل حفيد الشيخ شامل زعيم مسلمي القوفاز، وابن الشيخ صادق المجددي الزعيم الديني الأفغاني ووزير الأفغان في مصر.

ورأى أعضاء المؤتمر القدس وما حلّ بها، والقرى الأمامية ومصابها، وشاهدوا آثار المأساة وبقاياها، فتقاسموا على نذر أنفسهم للعمل لها.

وانتخب المؤتمر لجاناً ثلاثاً، كانت إحداها لجنة للدعاية والإنعاش الروحي، شرّفني برياستها، وكلّفها أن تطوف العالم الإسلامي، تعرف بفلسطين وتدعو الناس لإمدادها بالمال.

وكنا خمسة، اثنين من العراق، الأستاذ الزهاوي والأستاذ الصواف، واثنين من الجزائر، الأستاذ الإبراهيمي والأستاذ الفضيل الورتلاني رحمه الله، وأنا.

فاعتذر الجزائريان، ورجع الأستاذ الصواف مضطراً من كراتشي، فبقيت مع أستاذنا الجليل، بركة العصر، الشيخ أمجد الزهاوي، وكان علينا أن نجمع المال، ولكنا خفنا أن يقول الناس أننا سرقنا أو أخذنا لأنفسنا، فآثرنا السلامة، وجعلنا عملنا أن نشرح للناس قضية فلسطين، ونصف لهم مأساتها، ونعرض عليهم أدوارها، وأن نؤلف اللجان في كل بلد لتجمع هي المال لها، وتبعثه مع أمناء منها، لتتولى إنفاقه بنفسها، وكنا نقول للناس: إننا لسنا من أهل فلسطين، وليس لنا فيه مصلحة لأنفسنا، وإنما هو الواجب ونحن وأنتم في هذا الواجب سواء، ثم إننا لا نستلم بأيدينا قرشاً واحداً، فما تجودون به فابعثوا به إلى القدس.

وإننا نعلن (مع الأسف) أننا وجدنا في العالم الإسلامي أزمة ثقة، فما فيه بلد إلا وقد اكتوى بنار المحتالين والدجالين، والمتاجرين باسم الدين، وبمأساة فلسطين، يجمعون لها ثم يأخذون لأنفسهم تسعة أعشار ما يجمعون، ولو أنهم وثقوا أن هذا المال يصل إلى فلسطين حقاً، لأعطوا ما على أجسادهم، وما في أفواه عيالهم.

على أن الذي صنعناه لفلسطين لم يصنعه أحد، فقد جعلنا حديثها بعون الله، ثم بفضل الشيخ أمجد والأستاذ الصواف، حديث الناس والحكومة والإذاعة والصحف في كل بلد دخلناه، لقد ألقيت ثلاثاً وأربعين محاضرة وخطبة عن فلسطين، وعقدت ثمانية وعشرين مؤتمراً صحفياً، وشغلت بها ست إذاعات، وأكثر من أربعمائة جريدة ومجلة.

وما أقول هذا مناً ولا فخراً، ولكن لأثبت للناس أن الواحد منا

ولو كان ضعيفاً مثلي، يستطيع (إذا أراد) أن يعمل ما لا تقدر عليه إلاّ الجماعة.

ولقد تركنا لفلسطين لجاناً في كل من كراتشي وكلكتة ولكنو ودهلي وبومباي وسنغافورة وجاكرتا وجوكجا وسورابايا، وقد بلغ ما جمعته هذه اللجان، وما أرسل لمكتب المؤتمر الدائم (وأمينه العام الأستاذ سعيد رمضان) من ذلك ومن التبرعات والإمدادات، من النقد ومن الأعيان، أكثر من أربعمئة ألف ليرة سورية، لم أشارك في قبض شيء منها، ولا في إنفاقه، لأن عملي في المؤتمر اقتصر على حضور جلساته، والسفر للدعاية له وتأليف لجانه، ولم يبق لي من صلة به، إلا أن أدعى إلى إلقاء خطبة أو محاضرة، في حفلاته في القدس وفي غيرها، كما أدعى لإلقاء مثلها في سائر الحفلات.

وأنا لا أستطيع أن أختم هذه المقدمة، من غير أن أسجل العتب على الحكومة الأندونيسية، وعلى سفارتها في مصر، وقنصليتها في دمشق، ذلك أن الحكومات تبذل الكثير للدعاية لنفسها، وأنا استمررت ثلاثة أشهر أذيع الأحاديث عن أندونيسيا أعرف بها من لم يسمع باسمها، ثم وضعت هذا الكتاب عنها، ولم أطلب منها عوناً ولا أريده، ولكن طلبت طائفة من الصور والمطبوعات ومجموعة من (مجلة الشؤون الأندونيسية) التي ترسل إلى الكبير والصغير، فلم أجب إلى شيء من ذلك، فصدر هذا الكتاب وليس فيه من الصور إلا ما التقطناه من الصحف والمجلات.

فأرجو من القراء أن يعذروني، وأرجو من إخواننا الأندونيسيين، ألا يسوءهم هذا العتاب.

دمشق: ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٠.

٢٧ رجب ١٣٧٩

علي الطنطاوي



علي الطنطاوي



دار الفكر

مقدمة الطبعة الأولى[1]

أرجو من القارىء ألَّا ينظر في فصل من فصول هذا الكتاب، حتى يرى تاريخ كتابته. فليس كل ما فيه لـ (علي الطنطاوي) الذي يكتب هذه المقدمة، بل إن كل فصل فيه لـ (علي الطنطاوي) الذي كان في ذلك التاريخ.

وليس المؤلف إذن واحداً، ولكن جماعة في واحد، وكذلك الشأن في كل إنسان.

ولكل من هؤلاء (المؤلفين...) آراؤه وعواطفه، وأنا أحسُّ إذ أعرض فصول هذا الكتاب قبل دفعها إلى المطبعة، أنَّ كثيراً من هذه الآراء، وهذه العواطف، مما أنكره الآن وآباه[2].

ولا عجب أن يبدل الإنسان في السنة الواحدة رأياً برأي، وعاطفة بعاطفة، فكيف لا تتبدل آرائي وعواطفي، وأنا أكتب في الصحف والمجلات منذ اثنتين وثلاثين سنة بلا انقطاع؟.

على أن لديَّ أشياء ما بدَّلتها قط، ولن أبدلها إن شاء الله، هي أني حاربت الاستعمار وأهله وأعوانه وعبيده دائماً، ومجَّدت العربية وسلائقها وأمجادها وبيانها دائماً، وكنت مع الإسلام وقواعده وأخلاقه وآدابه دائماً.

---

(١) صدرت الطبعة الأولى سنة ١٣٧٩هـ = ١٩٦٠م (مَجد)

(٢) ولكني تركت كل شيء على حاله، ما بدلت فيه ولا عدلت.

ولقد بلغ ما طبع من كلامي أكثر من عشرة آلاف صفحة، لو نخلتها نخلاً، ما وجدت فيها بحمد الله سطراً فيه تزلف للظالمين، ولا سطراً فيه إزراء على العربية، ولا سطراً فيه خروج على الإسلام. وشيء آخر هو أني ما كنت أبداً في (حزب)، ولا جماعة ولا هيئة، وما كان قلمي لهيئة ولا جماعة ولا حزب.

ولقد كنت أكتب في الصحف أيام الفرنسيين، فكنت أقول ما لا يجرؤ على أكثر منه قائل من الوطنيين. وليست هذه دعوى بلا دليل، بل هي حقيقة دليلها موجود في صحف تلك الأيام، في فتى العرب والمقتبس والقبس، وألف باء والأيام، واليوم والنصر، والناقد والجزيرة، ولقد كنت أدعو إلى وحدة أقطار العرب يوم كان في دمشق دولة، وفي حلب دولة، وفي السويداء دولة، وفي اللاذقية دولة، وكان لكل دولة حدود، ولها حكومة ولها رئيس!

* * *

وبعد فلقد كنت أريد أن أجعل هذه المقدمة، ترجمة لي، على عادة المصنفين قديماً وحديثاً في الترجمة لأنفسهم، ولا سيما أن موضوع هذا الكتاب هو (أنا)، ثم آثرت أن أجعل ذلك موضوع كتاب أكتبه قريباً إن وفق الله، عنوانه (ذكريات نصف قرن)، ليكون مجال القول فيه أوسع، ويكون أمتع وأنفع.

وأسأل الله أن يوفقني إليه، وأن يُقدرني عليه، وألاَّ يحرمني حظاً من الثواب عليه وعلى كل ما أكتب، وأن يجعله من العلم النافع.

والثواب هو وحده الذي يبقى، على حين يفنى الإعجاب، وتذهب الأموال ويعود إلى التراب كل ما خرج من التراب.

ولدعوة واحدة لي، بعد موتي، من قارىء حاضر القلب مع الله،

أجدى عليَّ من مئة مقالة في رثائي، ومئة حفلة في تأبيني، لأن هذه الدعوة لي أنا، والمقالات والحفلات لكتابها وخطبائها، وليس للميت فيها شيء.

وأستغفر الله وأتوب إليه.

دمشق: ٢١ جمادى الآخرة ١٣٧٩ هـ

٢٢ كانون الأول ١٩٥٩ م

علي الطنطاوي

علي الطنطاوي

قصص من الحياة

دار المنارة

مقدّمة الطبعة الرابعة(١)

اللهم لك الحمد على كل نعمةٍ أنعمتَ بها عليَّ، ورأسُها نعمة الإسلام التي يمتدُّ نفعها من هذه الدار الفانية إلى الدار الآخرة الباقية، وأصلّي وأسلّم على رسولك محمد سبب هذه النعم والدالّ عليها.

وبعد، فمن نظر في المرآة فرأىٰ وجهه مصفراً، ولونه حائلاً، فلا يَلُم المرأة على اصفرار وجهه وتحوّل حاله.

والأديب مرآة الأمة ولسانها الذي يبدي المكنون في أفئدة أهلها، ولكل أمة مرايا وعيوب فمن نبَّهَ (مخلصاً) إلى عيب فيها استحق الشكر لا العَتْب والغضب.

وما في هذه القصص أكثره واقع استخرجته من سجلات المحكمة، أو من وقائع الحياة، فرضي عنه ناس وسخط ناس، وقد تركت كتابة القصص الآن وانصرفت عنها إلى غيرها.

وأسأل الله النجاح في كل عمل أعمله، وسلامة القصد، وأن يكتب لي عليه بعض الثواب أقول هذا في مطلع هذه الطبعة من هذا الكتاب.

مكة المكرمة غرة سنة ١٤١١

علي الطنطاوي

---

(١) الطبعة الرابعة صدرت عن دار المنارة ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

مقدمة الطبعة الأولى[1]

ترددت طويلاً قبل أن آذن بنشر هذه القصص في كتاب، لأني نظرت فيها بعقل الكهل (وقد كنت كتبتها بأعصاب الشباب) فوجدت فيها مشاهد لا أستطيع أن أسمح لبناتي بالاطلاع عليها. ولا أرضى لبنات الناس ما لا أرضاه لبناتي. فعزمت على طيِّها وإخفائها. ثم فكرت فرأيت أنها لا يمكن أن تطوى بعدما نشرت في الرسالة وغير الرسالة من المجلات التي كان يطبع منها عشرات الآلاف من النسخ. ثم إن الشباب يقرؤون من الأدب المكشوف الذي يدعو إلى الشر، ما لا يضرهم معه أن يمروا بهذه المشاهد في قصة كتبت ليدعى بها إلى الخير والإصلاح، وإنها لم تخترع اختراعاً ولكنها تصور شيئاً واقعاً إذا نحن كتمنا خبره، لم نستطع أن نمحو حقيقته. وإذا هم لم يقرؤوه في كتاب، سمعوه من الناس بآذانهم، أو رأوه في الناس بعيونهم، وفي قصيدة كعب التي نظمها في رسول الله ﷺ، وفي القصائد التي كان يستشهد بها علماء الصدر الأول، كثير من أوصاف النساء، ما منعتهم كثرته من الاستشهاد به.

على أني قد عدت إلى هذه القصص، فمشيت عليها بقلم الاختصار والحذف. وضحيت بكثير من الصور الأدبية في سبيل الحياء والخلق. وتركت قصصاً برمتها لما رأيت أنها لا يمكن تنقيتها مما جاء بها.

ولست أجوّز (مع ذلك كله) أن يوضع هذا الكتاب في أيدي

---

(١) صدرت الطبعة الأولى عام

الشباب والشابات وإذا امتدت إليه يد شاب فأنا أوصيه إن أراد راحة أعصابه، وهدوء باله ألاَّ يقرأ هذه القصص وهي: (من صميم الحياة - الخادمة - بنات العرب في إسرائيل - طبق الأصل - في حديقة الأزبكية - صلاة الفجر) ولست أقول هذا دعاية لها، بل ضناً بهم عليها، وخشية من الله أن أكون قصدت الإصلاح فأفسدت، ويا ليتني لم أكتب هذا الذي أضطر إلى الاعتذار منه، والندم على الإقدام عليه، وأسأل الله أن يغفر لي ويعفو عني.

علي الطنطاوي

* * *



علي الطنطاوي

دار المنارة
للنشر
السعودية - جدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم. اللهمَّ لك الحمد، اللَّهم وفقنا لما ترضى، واختم لنا بالحسنى...

وبعد:

فهذه ذكرياتي. حَمَلْتُها طول حياتي، وكنت أعدُّها أغلى مقتنياتي، لأجد فيها يوماً نفسي، وأسترجع أمسي، كما يحمل قِربةَ الماء سالكُ المفازة، لتردَّ عنه الموتَ عطشاً، ولكن طال الطريق، وانثقبت القربة. فكلما خطوتُ خطوةً قطرت منها قطرة، حتى إذا قارب ماؤها النفاد، وثقل عليّ الحمل، وكلَّ مني الساعد، جاء من يرتق خرقها، ويحمل عني ثقلها، ويحفظ لي ما بقي فيها من مائها، وكان اسمه (زهير الأيوبي).

جاءني يطلب مني أن أدوّن ذكرياتي في مجلة (المسلمون) لمّا عزم الأخَوان الأستاذان هشام ومحمد ابنا أخي الأستاذ علي حافظ على إصدارها، وكان نشرُ هذه الذكريات إحدى أمانيّ الكبار في الحياة، ولطالما عزمت عليها، ثم شغلت عنها، وأعلنت عنها لأربط نفسي بها، فلا أهرب منها، ثم لم أكتبها، بل أنا لم أشرع بها، لأني لا أكتب إلا للمطبعة، لذلك لم أجد عندي شيئاً مكتوباً أرجع عند تدوين الذكريات إليه، وأعتمد عليه، وما استودعتُ الذاكرةَ ضعفت الذاكرةُ عن حفظه، وعجزتْ عن تذكُره، فأجّلت وماطلت، وحاولت الهرب من غير إبداء

السبب، وهو يحاصرني، ويسدّ المهارب عليّ، ويمسك بأدبه ولطفه وحسن مدخله، يمسك لساني عن التصريح بالرفض، ثم اتفقنا على أن أحدِّث بها واحداً من إخواننا الأدباء، وهو يكتبها بقلمه، واخترنا الأخ العالم الأديب إبراهيم سرسيق، فسمع مني، ونقل عني، وكتب حلقتين، كانتا من براعة الاستهلال لهذا الكتاب، وما قصَّر أحسن الله إليه، بل لقد تطوّل، وأحسن وأجمل، ولكن لا يحكّ جسمك مثل ظفرك، فكان من فضله عليّ أن أعاد بعض نشاطي إليّ، فبدأت أكتب.

ولولا زهير الذي اقترح، ولولا إبراهيم الذي نشّط وشجع، لما كتبتُ، فلهما وللأستاذين هشام ومحمد، ولَدَي الأستاذ علي حافظ، وابني أخ الأستاذ عثمان الحافظ، رائد الصحافة في هذا البلد، لهم الشكر.

والشكر لولدي وصهري صاحب «دار المنارة» التي تقدِّم الطبعة الأولى من هذه الذكريات، ولحفيدي الذي عمل على ترتيبها وتنسيقها وإعدادها للطبع، وإن كان صهري محمد نادر حتاحت وحفيدي مجاهد ديرانية مني - ليسا غريبين عني، فإن شكرتهما فحمداً لله أن رزقني مثلهما، وإلاّ فما يشكر امرؤ نفسه.

والشكر للأستاذ محمد علي دولة، الذي آثر العمل في نشر الكتب على التعليم الذي كان من أهله، وكان موفّقاً فيه، لما يجد في النشر من نفع الناس ورجاء ثواب الله. فهو الذي وقف على طبع الكتاب، ووضع فيه ذوقه وفنّه وخبرته وتجربته.

* * *

بدأت كتابة الذكريات وليس في ذهني خطّة أسير عليها، ولا طريقة أسلكها، وأصدق القارىء أني شرعت فيها شبه المكره عليها، أكتب الحلقة ولا أعرف ما يأتي بعدها، وكثيراً ما كنت أنسى ما الذي كتبته في

التي قبلها، فجاءت غريبة عن أساليب المذكرات، وطرائق المؤرخين، فمن المؤرخين من مشى مع السنين، اقتداء بشيخهم وشيخ المفسرين (الطبري)، فقطّع الحادث الواحد تقطيعاً، فأضاع وحدته، وأبلى جدّته، وفيهم من جمع الأحداث، ربط مبداها بمنتهاها، ولكنه أخفى زمانها.

ووجدت في أكثر الذين كتبوا مذكراتهم في هذه الأيام من اعتمد وثائق مدوّنة، أو وصفاً للحادثات كتبه في حينها، وأنا لا أملك إلا بعض الأوراق الرسمية المدرسية، أو الوظيفية، أو الصور الشمسية، وكثير منها لم يكن تحت يدي وأنا أكتب، فقلت لنفسي: إن جاءت مهوّشة على غير نظام، فكذلك الدنيا، الدنيا فيها صحو ومطر، ومسرّة وكدر، ويسر وعسر، وضحك وبكاء، وشدة ورخاء، ولكن هل يأتي ذلك على ترتيب معروف، ونهج واضح؟

كذلك جاءت ذكرياتي.

ولعلي إن مدّ الله في الأجل، ونشّطني للعمل، أعود إليها، فأستأنف النظر فيها، فأنظمها في خيط واحد، أضمّ النظير إلى نظيره، أجمع الأشباه، وأؤلف بين النظائر، حتى يأتي الحديث مسلسلاً. وإن لم يقدَّر لي ذلك فحسبي أن أنقذت من النسيان ما أمكن إنقاذه.

هذا وأنا إلى الآن قد كتبت، أو أنا على الصحيح قد أمليت وكتبوا، مئة وثلاثين حلقة، ولا أزال في سنة ١٣٥٩ هـ، فهل أصل إلى نهاية الشوط؟

اللهم إن أحييتني فوفقني لما يرضيك، وإن توفيتني فعلى دينك، واكتب لي بكرمك العفو عن سيئاتي، والنجاة يوم الحساب.

مكة المكرمة: صفر ١٤٠٥ هـ

علي الطنطاوي

الحلقة الأخيرة

هذه نهاية الجزء الثامن من الذكريات ولكنها ليست نهاية الذكريات. . . ولا أحسب الذكريات تنتهي حتى تنتهي الحياة، لأن الإنسان كلما عاش يوماً، رأى فيه مشهداً، أو سمع خبراً، أو مَرَّ بتجربة، وتمحص الأيام هذه المرئيات وهذه المسموعات، فيأكل كثيراً منها النسيان، وما بقي منها استحال إلى ذكريات.

وقد علمونا ونحن صغار أن الأمور مرهونة بأوقاتها، ولكنا لا نعرف هذه الأوقات إلا حين لا تنفعنا معرفتنا بها، أي بعد حدوث الأمور، ولو عرفناها قبلها لأعددنا لها عدتها.

كنت عازماً على كتابة هذه الذكريات من قديم، حتى إني أعلنت عنها في مقدمة كتابي (تعريف عام بدين الإسلام)، ولكني لم أبدأ بها إلا حين جاء وقتها، وشرعت فيها وما في ذهني خطة لها أتبعها، ولا صورة لها أحققها، فجاءت على أسلوب غير ما عرفنا من أساليب المذكرات، فرضي عنها ناس، وسخط ناس، وكان الذهن موجهاً إليها والقلم ماشياً بها، وكان بالإمكان أن أكتب مثل الذي كتبت ونشرت، ولكني توهمت أنها طالت، وأن القراء برموا بها، والجريدة ضاقت بها. وما ضاقت الجريدة ولا برم القراء، ولكني توهمت أمراً فرأيته حقيقة فقطعتها. والله وحده يعلم هل لي عودة إليها أم قد صرفت عنها فأحتسبها، فالذكريات في نفسي ولكن التوفيق من الله. فأسأل الله أن يوفقني في هذه وفي

غيرها إلى ما يرضيه، وأن يرضيني بما يرضاه لي.

وله الحمد ثم لجريدة (المسلمون) التي بدأتها، و (الشرق الأوسط) التي نشرتها مقالات، ولدار المنارة التي أخرجتها في هذا الكتاب.

مكة المكرمة (العزيزية)

يوم ذكرى مولدي ٢٣/٥/١٤٠٩ هـ

الذي يوافق هذه السنة غرة سنة ١٩٨٩ م

يابنتي ويابني

علي الطنطاوي

دار المنارة
جدّة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

بسم الله، والحمد دائماً لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أنا أكتب وأخطب من ستين سنة، فما قُدِّر لمقالتين نشرتهما من الذيوع ما قدِّر لهاتين المقالتين، ولاسيما مقالة (يا بنتي)، كتبتها وأنا أمشي إلى الخمسين، وأنا اليوم أقرع باب الثمانين، أسأل الله دوام الصحة وحسن الخاتمة، وأن يجزي خيراً من يمدُّ يديه من القراء ويقول: آمين.

طُبِعت مقالة (يا بنتي) ستاً وأربعين طبعة علمتُ بها، ولعلها طبعت غيرها ولم أعلم بها، فقد أبحت (لمن يشاء) أن يطبعها على أن يوزعها بالمجان.

ونحن نُهاجَم اليوم من طريقين: طريق الشبهات، وطريق الشهوات. والأول مرض أشد خطراً وأكبر ضرراً، ولكنه بطيء السريان، فليس كل من تُلقى إليه شبهة يقبلها، ولكن كل من تُثار له من الشباب شهوة يستجيب لها، فهو مرض سريع الانتشار كثير العدوى، وإن كان يُضني ولا يُفني ويؤذي ولا يميت، والأول كفر وهذا يوصل إلى الفسق.

وقد كتبت بعدها وحاضرت وأذعت وحدَّثت كثيراً كثيراً، ولكن بقي لهذه المقالة بفضل الله أثرها في نفس قارئها وقارئتها، أسأل الله أن

ينفع بها وأن يثيبني ويثيب ولدي وصهري محمد نادر حتاحت، الذي ينشرها اليوم، عليها.

ولم أبدِّل فيها ولا في أختها (يا ابني) حرفاً. كيف وقد قُرئت في الشرق والغرب، وطبعت في الشام والأردن ومصر والعراق، وترجمت فيما علمت إلى أوسع لغتين انتشاراً وأكثر اللغات ناطقين بها: الإنكليزية والأوردية، وصارت ملكاً للقراء فكيف أبدِّل فيها؟

وأنا أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم....

مكة المكرمة: ١٢ ربيع الأول/١٤٠٦ هـ.

علي الطنطاوي



طريق الجنّة وطريق النار

علي الطنطاوي

مكتبة المنارة
مكّة المكرّمة

مقدمة الطبعة الأولى

ما قعدت أكتب مقدمة لهذه الرسائل، فما قلته في مقدمة الطبعة الجديدة من كتابي (في سبيل الإصلاح)، وما ذكرته منها في ذكرياتي، هو مقدمتها.

كان لي الأمل الكبير في المستقبل، والشباب المتوقد في القلب، والمطمح البعيد والأماني الكبار، وكانت تدفعني دفعاً إلى الأمام، فتصرَّم الأمل، وضاع المستقبل، وذهب الشباب، وانحصرت الأماني كلها في دوام الصحة والستر، وحسن الخاتمة.

لقد كانت هذه الرسائل (بداية) كتبي المطبوعة، وأحسبها ستكون (نهايتها). أصدرت الأجزاء الأربعة سنة ١٣٤٨ هـ ولم يجاوز عمري إحدى وعشرين، وتصدر اليوم الخامسة سنة ١٤٠٨ هـ وقد بلغ عمري الثانية والثمانين، وبين التاريخين العمر كله.

خرجت الرسائل الأربع الأولى كما تخرج القذائف من فم المدفع، لها دويّ، ومن حولها شرر ولهب، فأيقظت في دمشق النيام، وقرأها الناس وهم بين راض عنها، وساخط عليها، ومادح لكاتبها، وقادح فيه، وكانت حيناً حديث المجالس، والتعليق عليها يملأ أعمدة الصحف، ومنابر المساجد، وتصدر الخامسة الآن، فلا توقظ أحداً لأن الأموات لا يقرؤون، ولم يبق في الألف ممن قرأها لما صدرت خمسة، والخمسة في شغل عنها بما هو أدعى لاهتمامهم فيه، والباقون قد انتهى بهم

الطريق ولكل طريق نهاية، وطواهم الثرى الذي يطوي في بطنه كل حي كان يمشي على ظهره، وستنتهي طريقي وطريق من بقي كما انتهى بأولئك الطريق، وستطويني الأرض كما طوتهم، فلا يبقى لي ولا يبقى لهم إلا رجاء عفو الله، والأمل برحمته، ودعاء القراء لي ولهم بالغفران.

وأنا أخطب وأكتب من أكثر من ستين سنة، فإن خلصت لله نيتي في العشر منه بل في معشاره، فكتب في صفحة حسناتي، فقد أفلحت وأنجحت، وإن اقتصر حظي منه غداً على حفلات تأبين تقام، وخطب تلقى، ومقالات تكتب، فيا ضيعة المسعى.

إن ذلك كله يبقى (هنا)، وإنما أنا أريد ما يصحبني (هناك). والله ما لي إلا رجاء عفو الله، وأَني مؤمن لا أشرك بالله أحداً من الناس ولا شيئاً من الأشياء، والأمل بدعاء الصالحين من المسلمين.

اللهم إن تسألني ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ قلت: غرني أنك وصفت نفسك بالكريم. لقد غرني يا ربي كرمك، والكريم لا يرد من وقف ببابه نادماً مستغفراً راجياً.

(اللهم أنت ربي لا إلٰه إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرِّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت).

اللهم صلِّ على محمد، وارحم أمة محمد، واغفر لي ولوالدي ولذريتي وللمسلمين والمسلمات جميعاً، فإن رحمتك يا رب لا تضيق بمسلم.

مكة المكرمة ٢١ رجب ١٤٠٨ هـ.

علي الطنطاوي



المثل الأعلى للشاب المسلم

تأليف

علي الطنطاوي

نشر وتوزيع

دار المنارة

جدة - السعودية

المقدمة

لا إلٰه إلا الله. ما أعجب تصريف الأقدار، وجلّ جلال المقدِّر. هل كان يخطر على بالي يوم ألقيت هذه المحاضرة أني سأعود إليها بعد سبع وخمسين سنة لأعدها للطبع في رسالة مفردة؟

أين بيروت التي ألقيتها فيها من بيروت اليوم. سلوا من عرفها تلك الأيام، ومن يعرفها الآن. لقد بُدلت أنا وتبدل كل شيء من حولي، فلا الدنيا في لبنان تلك الدنيا، ولا الناس هم أولئك الناس... كنت شاباً أكاد أتفجر من الحماسة، وأكاد من النشاط ألاّ تمس قدماي الأرض التي أمشي عليها حين أمشي، فصرت شيخاً دخلت في السادسة والثمانين...

كنت يومئذ مدرساً في الكلية الشرعية في بيروت، التي صارت تدعى (أزهر لبنان)، وكان مديرها الأخ الوفي الذي وجدت من نبله وفضله ما لم أنسه ولن أنساه إن شاء الله الأستاذ محمد عمر منيمنة، وكان فيها الأستاذ الداعية إلى الله، الذي بلغ الغاية في الإخلاص والجرأة وما أعطاه الله من قوة الإيمان وقوة الجسد، الشيخ صلاح الدين الزعيم...

وكان من صغار تلاميذها العالم الشهيد، السعيد إن شاء الله، الشيخ المفتي حسن خالد، والأديب القصصي الأستاذ سهيل إدريس، وكان الرئيس الأعلى للكلية مفتي لبنان، الذي رفع من مكانة الإفتاء بما أوتيه من الجرأة والإخلاص: الشيخ توفيق خالد.

رحم الله من مات ممن ذكرت، ومن نسيت فلم أذكره هنا، ووفق إلى الخير من بقي، وختم بالصالحات أعمالهم وعملي، وجعل ما كتبت وما خطبت من ستين سنة إلى الآن في صفحة حسناتي (على قِلّتها) يوم توزع الصحف... ورحم الله من قال من القرّاء: آمين.

مكة المكرمة: غرة جمادى الآخرة ١٤١٢ هـ.

علي الطنطاوي

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة